دراسات عن التصوف
-٢-

أبو حامد الغزالي والتصوف

دراسة حول العديد من كتب الغزالي وخاصة كتابه
«إحياء علوم الدين»

الرئاسة العامة لشئون المسجد الحرام والمسجد النبوي
وكالة الرئاسة لشئون المسجد النبوي الشريف
مكتبة المسجد النبوي الشريف
رقم الكتاب: ١٦٣٦٠
تاريخ التسجيل: ٤/ ٩/ ١٤١٥هـ

تأليف
عبد الرحمن دمشقية

٩٢٠
د م ١
16360

دار طيبة
للنشر والتوزيع
ص. ب ٧٦١٢ الرياض

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

دار طيبة
الرياض - شارع عسير - ص. ب: ٧٦١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

المقَـدِّمـة

إن الحمد لله نستعينه ونستهديه ونستغفره ونتوب إليه . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . من يهد الله فلا مضل له . ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فقد كانت فكرة تأليف هذا الكتاب تراودني منذ فترة بعيدة . وبالتحديد منذ أن كانت تدور بيني وبين بعض المتصوفة مناقشات طويلة حول التصوف عامة ، والغزالي بصفة خاصة . وكان لا بد عند الكلام عن التصوف من العروج على الغزالي وتأثيره في التصوف والمتصوفة .

ولا عجب في ذلك ، فالغزالي محطة من محطات الفكر الصوفي ،

لا بد من الوقوف عندها في كل دراسة أو مناقشة عن التصوف ومباد[ئه] وتعاليمه .

وقد أرسى قواعد التصوف وعلومه في كتابه المعروف : إحياء علو[م] الدين . وإن كان كتب عن التصوف في كثير من تصانيفه الاخرى .

ولذلك كانت مطالعة الإحياء أكثر أهمية عندي من كتبه الأخرى. فابتدأت به .

ثم اطلعت على ما تيسر لي من كتبه . غير أني وجدت في الإحيا[ء] من المسائل المتعلقة بهذا البحث ما لم أجده في غيره .

إذ أنه مشتمل على آداب التصوف جميعها وبيان تفصيل كل واحد منها ، وهو بمثابة توحيد لما تشتت وتناثر من علوم التصوف ، والكتب المؤلفة حوله. كالقشيرية، وقوت القلوب، واللمع، وحلية الأولياء، والرعاية وغيره للمحاسبي والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي والبسطامي .

والميزة التي للاحياء على هذه المصادر السابقة للتصوف تتجلى في خمسة أمور :

١ - ترتيب ما بدّدوه ونظم ما فرقوه . ٢ - حل ما عقدوه وكشف ما أجملوه. ٣ - إيجاز ما طوّلوه وضبط ما قرروه . ٤ - حذف ما كرّروه وإثبات ما حرروه. ٥ - تحقيق أمور غامضة اعتاصت لم يتعرضوا لها في كتبهم.

لذا كان مرجعي الأهم في هذا البحث . إذ هو دستور التصوف الذي يعتمد عليه المتصوفة إلى اليوم .

أهم الأسباب لتأليف هذا الكتاب :

قال لي أحدهم ذات يوم معاتباً :

أنت تفكر في اقتناء أصناف من الكتب لا ضرورة لها ، بينما لم

تحدث نفسك مرة واحدة بأن تقتني كتاب إحياء علوم الدين .

قالها لي بطريقة إستنكارية شعرت معها وكأنني مذنب حقاً لعدم اقتنائي هذا الكتاب ، ووعدته بشرائه في أقرب فرصة . واشتريته فعلاً . لكنني كنت وما زلت أتساءل هل حقاً يجب على المرء أن يقتني كتاب الإحياء وإلاّ كان مستحقاً للتوبيخ؟

وهل حقاً ما يشيعه بعض مشايخ الصوفية بين العوام من أن: من لم يكن عنده الإحياء ما فيه حياء؟.

وقولهم : دع اللحية واقتن الإحياء. إلى غير ذلك من العبارات التي يحفظها العوام عنهم .

إن هذا التعصب القاتل والمدح المتشنج لكتاب الإحياء كان أحد الأسباب التي دفعتني إلى مطالعته لمعرفة السبب الذي جعلهم يفضلون كتاب الإحياء على أمر رسول الله ﷺ لأمته بإطلاق لحاهم ! ومعرفة السبب الذي جعل كل من لا يمتلك نسخة من كتاب الإحياء يكون معدوم الحياء!!.

والسبب الآخر لذلك هو أني قد اطلعت على النقد الذي وجهه ابن الجوزي[١] وابن تيمية[٢] وغيرهما من الأئمة إلى الغزالي « وكان أكثره عن الإحياء وما فيه من المخالفات الشرعية . فحرت بين نهيهم عن مطالعة الإحياء - إلا لمن كان عنده من البسطة في العلم ما يعتصم به من غوائله - وبين انكار أحد الزملاء عليّ لعدم اقتنائي إياه .

ويسرني بعد هذا أن أصرح لهذا الزميل بأني قد قبلت نصيحته وقرأت الكتاب من أوله إلى آخره؟، وها أنا الآن أطلب منه أن يطلع على هذه

(١) أبو الفرج جمال الدين بن علي بن محمد بن جعفر الجوزي توفي سنة (٥٩٧ هـ) .

(٢) شيخ الاسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ثم الدمشقي . توفي سنة (٧٢٨ هـ) .

النتيجة التي خرجت بها منه . .

وبما أن الغزالي «حجة الإسلام» - كما يقال - فقد أصبح سلوكه للتصوف حجة عند المتصوفة . فلم يعد عندهم أدنى شك بأن المتصوفة هم الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة ، ما دام أن حجة الله على خلقه قد سلك سبيل التصوف وسماه : «المنقذ من الضلال» وما دام قد اختاره على ما سواه من المذاهب فإن الحجة فيما اختاره الحجة!!؟؟.

وهذا مشعر باعتقاد الصوفية العصمة في الغزالي ، وامتناع الخطأ والزلل عليه . فإن كان الغزالي حجة عندهم بهذا المعنى فلا الغزالي ولا أحد من الناس حجة . وإنما كتاب الله وسنة رسوله هما حجة الإسلام ، كما أشار إلى ذلك عبد الغافر الفارسي - تلميذ الغزالي - في معرض ترجمته له وتفصيله مراحل حياته في العلم وغيره[1].

وإن أريد بذلك إقامته الحجة على الفلاسفة في ردوده عليهم وتبيينه تهافت آرائهم للناس ومناقضاتهم فما فعله في ذلك كان حجة عليهم حيث ألزمهم الحجة تلو الحجة وخرج بذلك منتصرا عليهم بعد أن كشف تلبيساتهم وتمويهاتهم على الخلق وقبح الفلسفة في أعين الناس بعد أن كانوا فريقين :

فريق يحسن الظن بالفلسفة ، ويرى أنها تنمي العقل وتطوره .

وفريق يعلم أنها زندقة ولكن لا يجرؤ على مواجهتهم ومحاجتهم خوفاً من طرائقهم المنطقية وأساليبهم الجدلية التي قد تجعل لهم الغلبة عليه فيلزمونه بما ليس لازماً له في الحقيقة .

ولهذا كان للغزالي في نقد الفلاسفة أثره الذي يحمد عليه. ولكن لا

---

(١) طبقات السبكي ٤/١٠٩- ١١١ ط- دار الفكر- بيروت . وانظر تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري للحافظ ابن عساكر ٢٩٦ ط- دار الفكر- بيروت .

يعني ذلك أنه يقطع بصحة كل أقواله وأنه يستبعد أن يكون مخطئاً في شيء منها ، إذ الغزالي من جملة البشر الذين يجوز عليهم الخطأ والصواب ، وقد عودنا أن يستغفر الله عند خواتم العديد من كتبه من كل زلل أو خطأ ظنه صواباً .

هذا ومن المعلوم أن حياة الغزالي العلمية مرت على مراحل متعددة ، فقد خاض في الفلسفة ثم رجع عنها وردّ عليها ، وخاض بعد ذلك في الكلام وأتقن أصوله ومقدماته ثم رجع عنه بعد أن ظهر له فساده ومناقضاته ومجادلات أهله . وقد كان متكلماً في الفترة التي رد فيها على الفلاسفة ، ولُقب حينها بلقب «حجة الإسلام» بعد أن أفحمهم وفند آراءهم ، فهل كان تنبّه لعلم الكلام آنذاك حجة ، علماً بأنه تراجع عنه بعد ذلك؟!!.

وبعد إعراضه عن الكلام وذمه إياه ، سلك مسلك الباطنية وأخذ بعلومهم ، ثم رجع عن ذلك ، وأظهر بطلان عقائد الباطنية وتلاعبهم بالنصوص والأحكام . فتبين بهذا أن الاختيار الذي كان يختاره الغزالي من هذه المذاهب لم يكن اختياراً سليماً وبالتالي لا يكون هذا الإختيار الذي وقع عليه - قبل أن يظهر له بطلان هذه المذاهب - حجة على الإطلاق ، ورجوعه في كل مرة عن كل من هذه الأصناف يؤيد ذلك .

ومثل هذا يكون في التصوف - ذاك الصنف الرابع والأخير - الذي رآه منقذاً من الضلال . فيقال أيضاً : هل كان اختيار الغزالي للتصوف حجة دامغة وشاهداً أكيداً على أحقية هذا المذهب؟.

هنا لا يجب التسرع في إعطاء الجواب ، قبل مناقشة هذا المذهب الأخير . كما ناقش الغزالي المذاهب التي سبقته ، فدرسها وتحقق من غوائلها وأصدر حكمه فيها .

وهذا الكتاب الذي أضعه بين يدي القارىء يسير مع الغزالي في أفكاره وآرائه التي عرضها بعد اعتناقه مذهب الصوفية ، ويناقشها مناقشة

مفصلة ومقرونة بعرضها على حجتي الإسلام : الكتاب والسنّة ، ليتعر[illegible]
بكل أبوابه وفصوله على شكل جواب عن السؤال التالي : هل ك[illegible]
التصوف منقذاً من الضلال كما قد صرح به الغزالي ؟[1] . وكيف سلك [illegible]
هذا الطريق؟.

وتجدر بالتالي معرفة أمر مهم ، وهو أن هذه المناقشة لم يكن الهدف
منها القدح في شخص الغزالي أو النيل والانتقاص من قدره . إذ للغزالي
قدره بين الموافقين والمخالفين له .

وإذا كنت قد أظهرت خطأ ما للغزالي ، فليس في ذلك مذمة له ، [illegible]
ما أردت به إلا تبيين الحق فيما أخطأ فيه ، فإنه قد تكون أخطاء بعض
الناس مشوهة للمنهج الرباني الثابت الكامل والذي لا عيب ولا نقص فيه ،
فيكون النقد والإنكار تنقية له عن عوامل التشويه هذه .

هذا والعالمون بطريقة الغزالي ومنهجه في إثبات وتحقيق [illegible]
يريده ، يعرفون جيداً أنه إذا قرر مسألة ما ـ مما قد يكون خطأً ـ فإنه يتأول
لها الآيات والأحاديث الأمر الذي يوهم صحة ما ذهب إليه .

لذا فإن تخطئة الغزالي خير من الإقرار بباطل قاله أو ظنه حقاً ،
والمحافظة على الدين مما قد يشوّهه أعظم من تبرئة الرجال ، ومحاولة
تأويل أخطائهم .

والغزالي قد أفضى إلى ما أفضى إليه ، ولكنه ترك منهجاً يؤثر في
بعض الناس سلباً وفي البعض الآخر إيجاباً وما زال كذلك إلى يومنا هذا ،
فكان لا بد من مناقشة هذا المنهج ونقده . ولا نظن أننا كنا نحتاج إلى

---

(١)يرى بعض الباحثين أن حديث الغزالي في كتابه « المنقذ من الضلال » عن طلب
أصناف العلوم وحيرته فيها ثم اهتدائه ، يشبه إلى حد بعيد كلام الحارث المحاسبي
في مقدمة كتابه « النصائح » . أنظر كتاب « الغزالي » للدكتور أحمد الشرباصي ص [illegible]

الكلام عن الغزالي لو كانت كتبه مفقودة مثلاً أو غير متداولة بين أيدي الناس ، لكن انتشارها وتأثر الناس بها كان هو الداعي إلى ذلك .

فمثلاً كتابه إحياء علوم الدين وحده يبقي على شخصية الغزالي ، ويجعلها تخالط قرّاءه ، مبدية لهم النصائح فيما ينبغي لهم اعتقاده مما لا ينبغي .

وبفضل هذا الإحياء يبقى الغزالي شيخاً مربياً لكل مريد صوفي في كل عصر ومصر ، من غير أن يقتضي ذلك وجود الغزالي بشخصه .

هذا والغزالي شخصية حار فيها الكثيرون ، ووقف منها الناس مواقف مختلفة بين مؤيد مبالغ ومعارض مجحف .

فمن مؤيد مبالغ يتجاوز بمبالغته حدود التعقل والإنصاف إلى الغلو والاعتساف .

ومن منكر مسرف في الذم والاعتراض إلى درجة التجني والإجحاف .

وحد الاقتصاد بين الفريقين أن لا يُعطى الغزالي صفة قدسية تصم المؤيد المتشنج عن سماع أي اعتراض على ما جاء في كتبه ، فيتجاوز بذلك حد التقدير المطلوب إلى التقديس المذموم . حين يستعظم أي نقد على ما خالف الحق في هذه الكتب .

وأن لا يودي الاعتراض والانكار على ما جاء في كتبه إلى التطاول والسباب والشتم بل والتكفير أحياناً كما رأيناه من بعض من لا نريد الإفصاح عن أسمائهم .

وإنما يجب التفريق بين الإنكار على كلامه ـ الذي قد يكون رجع عنه ـ وبين النيل منه شخصياً والحكم عليه بالأحكام الجائرة ، والتي قد لا ينال الغزالي شيئاً منها ، بل قد يعود ضررها على هذا المسرف نفسه .

وإنما الوسط في ذلك ما قاله الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله: «أبو حامد كثر القول فيه ومنه، فأما هذه الكتب - يعني كتبه المخالفة للحق - فلا يُلتفت إليها، وأما الرجل فيُسكت عنه، ويُفوَّض أمره إلى الله»(1).

هذا... وأحيط القارىء الكريم علماً أنه من خلال صحبتي الطويلة لكتابات الغزالي ومصنفاته طوال مدة الإعداد لهذا البحث تبين لي جوانب كثيرة من نبوغ الغزالي وعبقريته، وعلو همته ما لا يمكن معه لمنصف إنكاره، ولا المكابرة في إثباته.

لكن هذه العبقرية الفذة قد استنزفت - للأسف الشديد - طوال حياة الغزالي في البحث عن الحق بين طوائف المبتدعة التي خاض في كل واحدة منها ما أخذ من حياته معظمها.

ولو أنه سخر هذا النبوغ والذكاء في الحديث ورجاله لكان فيه وحيد عصره وفريد دهره بلا شك وهذا الإنشغال حجب الغزالي عن أن يخلف تراثاً نافعاً للأمة يعتدّ به. بل على العكس من ذلك، فقد كان كلما خاض مع طائفة من طوائف المبتدعة صنف فيها ما يوافق مبادئها وغاياتها إذ لما خاض في علم الكلام كتب في الكلام ما يوافق أصحاب هذه الطائفة كالرسالة القدسية المسماة بقواعد العقائد، والاقتصاد في الاعتقاد، والأربعين وغير ذلك.

ولما خاض في الباطنية ظهرت آثار هذا الخوض في كتابه جواهر القرآن، وكتب المضنون بها على غير أهلها.

وكلامه في الفلسفة غالب على أكثر كتبه، كذلك كلامه في التصوف - وأبرزها الإحياء، ومشكاة الأنوار اللذان كان لهما الأثر الأكبر

(1) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٦٥/٤ ط - مؤسسة الرسالة - بيروت.

على التفلسف الصوفي القائم على الطعن بالنبوات والقول بوحدة الوجود.

وكان في هذا التراث، أثر بعيد... وبعيد جداً على من جاء بعده.

فخدم بذلك الفلاسفة، والمتكلمة والباطنية والصوفية، رغم أنه رد على كل واحدة من هذه الطوائف. وما ذاك إلا لأنهم استدلوا من كلامه على ما يدعم شبههم، ولم يلتفتوا إلى ما خالف ذلك.

وإني في هذا البحث لا أزعم أني طويت كل خلاف حول الغزالي وحسمت المسألة من كل جوانبها لكنني آمل أن أكون قد قدمت بهذا الكتاب فكرة عن الرجل أقرب ما تكون إلى الحقيقة المطلوبة.

وكما قدمت، فإن الغزالي عبقري فذّ يندر وجود أمثاله ممن يجتمع فيهم الذكاء الخارق والعاطفة الجياشة، لكنه مع ذكائه الذي لا ينكره إلا متعصب، فإنه واحد من بني آدم الذين قال الرسول ﷺ فيهم: «كل بني آدم خطّاء»(1).

وهو - أي الغزالي - يخطىء ويصيب، حاله في ذلك حال الناس جميعاً، ولو لم يكن كذلك لحُق لمؤيديه أن يغضبوا لأي اعتراض أو إنكار أو نقد يوجه لما جاء في كتبه، لكنه غير معصوم بحال، وقد أبى الله أن يتم إلا كتابه.

كذلك الأمر بالنسبة لهذا البحث الذي أقدمه، فإنني لا أدعي له العصمة من الزلل والخطأ، ولا أدعي تمام الرضى عنه، بل على العكس من ذلك فإنني أعلم يقيناً أنه لا يزال يحتاج إلى مزيد من التعمق والتحقيق.

(1) رواه أحمد ١٩٨/٣ وابن ماجة رقم (٤٣٠٥) والدارمي ٣٠٣/٢، والترمذي باب (٤٩). وإسناده حسن.

وعلى هذا فإني أدعو كل مخلص ، صادق ومنصف ، يرى في و
البحث قصوراً أو عوجاً أن يسارع في الكتابة إليَّ عما يراه مناسباً وحقً
بروح علمية بعيدة عن التعصب المذموم ، والهوى القاتل ، وبأسلوب بعي
عن الإسفاف والسوقية .

وأرى قبل ختام هذه المقدمة أن أتقدم بالامتنان والشكر الجزيل ا
كل من أعانني على هذا البحث ونبهني على مواضع الخطأ فيه . وإلى م
أمدني ببعض المصادر اللازمة له . سائلاً المولى عز وجل أن يجعل ذل
في ميزان حسناتهم يوم القيامة يوم أن يكون المرء أحوج ما يكون إلى حس
واحدة تزيده بعداً من عذاب الله وتطفىء من سخطه عليه .

وفي الختام :

فإنني أدعو الباحثين والمعجبين بالغزالي والمخالفين له إلى تأمل هذ
البحث بروح الباحث عن الحق ، المتأمل في الحجة والبرهان .

كما أدعوهم إلى المنهج الإسلامي الواضح المبين - في تمييز الحق
من الباطل - المتمثل في قوله تعالى : ﴿ فإن تنازعتم في شيءٍ فردّوه إل
اللهِ والرّسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خيرٌ وأحسن
تأويلاً ﴾ [النساء ٥٩] .

فإن في هذين المصدرين شفاء لما في صدور المؤمنين ، جعلنا الله
ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

عبد الرحمن دمشقية
العنوان: المملكة العربية السعودية - الرياض - ص. ب. ٧٦١٢ .

الباب الأول

الفصل الأول

الغـزالى.. حياته ومؤلفاته

هـو محمد بن محمـد بن محمد بن أحمـد، الطوسي المعـروف بالغزالي ، ولد بطوس سنة (٤٥٠ هـ) وكان والده يغزل الصوف ويبيعه في دكانه بطوس فلما حضرته الوفاة أوصى به وبأخيه أحمد إلى صديق له متصوف من أهل الخير ، وقال له : إن لي لتأسفاً عظيماً على تعلم الخطّ وأشتهي استدراك ما فاتني في ولديّ هذين فعلمهما ولا عليك أن تنفد في ذلك جميع ما أخلفه لهما .

فلما مات أبوهما أقبل صديقه على تعليمهما إلى أن أفنى ذلك النزر اليسير الذي كان خلفه لهما أبوهما ، فتعذر عليه القيام بقوتهما فقال لهما : إعلما أني قد أنفقت عليكما ما كان لكما وأنا رجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال ليْ فأَويكما به . وأصلح ما أرى لكما أن تلجآ إلى مدرسة فإنكما من طلبة العلم فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما .

ففعلا ذلك وكان هو السبب في سعادتهما وعلو درجتهما ، وكان

الغزالي يحكي هذا ويقول : « طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكو... لله » ا. هـ[1].

الدراسة وطلب العلم :

عرفنا بأن الحالة الاقتصادية الصعبة هي التي دفعت بالغزالي ... دخول إحدى المدارس الدينية - ليتعلم الفقه فيها ظاهراً وليضمن قوته ... - حيث أنه لم يكن له اختيار في ذلك ، لكن هذا الفقر كان عامل ... لتكوين شخصية الغزالي الفقهية التي تطورت ونمت بشكل أثار ... إعجاب الآخرين .

ولذلك وصفه ابن كثير بأنه « كان من أذكياء العالم في كل ما يتكلم فيه » ، وقد ساد في شبيبته حتى أنه درّس بالنظامية ببغداد وكان يحضر درسه هذا بعض أكابر العلماء ، وممن كان يحضر عنده ؛ أبو الخطاب وابن عقيل فتعجبوا من فصاحته واطلاعه[2].

وقد حكى عنه ابن كثير أيضاً بأن النسخ كان من مصادر قوته[3].

قال السبكي :

« وفي عام (٤٦٥ هـ) بدأ الغزالي يدرس الفقه على أحمد الراذكاني بطوس ، ولما تمكن من العلم سافر إلى جرجان ليطلب المزيد من العلم على يد الشيخ أبي نصر الإسماعيلي وعلق عنه التعليقة . ثم قدم نيسابور ولازم هناك إمام الحرمين « الجويني » وجدّ واجتهد حتى برع في العلوم ووقف على الخلاف والجدل والأصلين والمنطق وقرأ الفلسفة وأحكم ذلك كله ، وفهم كلام أرباب هذه العلوم وتصدى للرد عليهم وإبطال دعاويهم »[4].

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٤/١٠٢ ط دار الفكر - بيروت
(٢) البداية والنهاية ١٢/١٧٣ - ١٧٤ دار المعارف - بيروت
(٣) البداية والنهاية ١٢/١٧٤ .
(٤) طبقات الشافعية السبكي ٤/١٠٣ .

وقد أظهر الجويني عناية خاصة به لما ظهر له فيه من بوادر النبوغ السريع حتى كان يصفه بـ « البحر المغدق »[1].

وقد لازمه الغزالي مدة انتهت بوفاته سنة (٤٧٨) هـ.

ويبدو أن أستاذه الجويني بدأ يقتصد في الثناء على الغزالي ، لأن هذا التلميذ النابغ يمضي نحو تألقه وسطوعه بخطوات سريعة .

وقد غطى على أستاذه حين كتب « المنخول » فضاق صدر الأستاذ ولم يستطع كتم ذلك حتى قال له : « دفنتني وأنا حي ، هلا صبرت حتى أموت ؟ » . يقول ابن عساكر نقلاً عن عبد الغافر (أحد تلامذة الغزالي) في ترجمته له :

« ثم قدم نيسابور مختلفاً إلى درس إمام الحرمين في طائفة من الشبان من طوس ، وجد واجتهد حتى تخرج في مدة قريبة وبز الأقران وحمل القرآن وصار أنظر أهل زمانه ، وأوحد أقرانه في أيام إمام الحرمين ، وكان الطلبة يستفيدون منه ويدرس لهم ويرشدهم ويجتهد في نفسه . وبلغ الأمر به إلى أن أخذ في التصنيف ، وكان الإمام مع علو درجته ، وسمو عبارته وسرعة جريه في النطق والكلام لا يصفي نظره إلى الغزالي سراً لإبائه عليه في سرعة العبارة وقوة الطبع ، ولا يطيب له تصديه للتصانيف ، وإن كان متخرجاً به منتسباً إليه كما لا يخفى من طبع البشر ، ولكنه يظهر التبجح به والاعتداد بمكانه ظاهراً خلاف ما يضمره ، ثم بقي كذلك إلى انقضاء أيام الإمام »[2].

ثم خرج من نيسابور وصار إلى المعسكر بالعراق ، فاتصل هناك بالوزير نظام الملك حيث عهد إليه هذا الأخير مهمة التدريس بمدرسته النظامية ببغداد فقبل ذلك . وكان ذلك في جمادى الأولى عام (٤٨٤ هـ).

---

(١) نفس المصدر والصفحة .
(٢) تبيين كذب المفتري لإبن عساكر ٢٩١ - ٢٩٢ دار الفكر - بيروت .

ولم يكن آنذاك قد تجاوز الرابعة والثلاثين من عمره .

وقد احتل من نظام الملك هناك محل القبول ، وظهر اسمه ، وبرزت [illegible] مناظراته للفحول ومناقراته للكبار ، وارتفق بذلك أكمل الإرتفاق حتى [illegible] به الحال إلى أن صمم على ترك المعسكر والتدريس بنظامية بغداد.

الغزالي في بغداد :

ووصل أبو حامد إلى بغداد ، ولاقى تشجيعاً له على تحقيق [illegible] ومواصلة تدريسه في نظامية بغداد ، وصارت له مكانة عالية وشهرة واسعة حيث كان مدرّساً لثلاثمائة من الطلاب في الفقه والأصول وغيره .

لكن ذلك لم يعمر طويلاً ، فقد أصابه مرض اضطره إلى مفارقة بغداد فرحل إلى الحجاز حاجاً ثم أتى الشام وتركها ذاهباً إلى القدس نحو سنتين .

وقد قيل بأن خروجه من بغداد كان بسبب خطر الباطنية الذين [illegible] على أيديهم اغتيال نظام الملك (٤٨٥ هـ) .

وبهذا فقد قويت شكيمتهم ، واستفحل أمرهم ، ولقد كان وقع [illegible] اغتيال نظام الملك عميقاً في نفس الغزالي ، وتأثر بسبب ذلك تأثراً بليغاً ، وبلغ هذا التأثر مبلغه حين توفي المقتدي سنة (٤٨٧ هـ) بطريقة غامضة ، ولعلها مؤامرة باطنية أيضاً . ومن ثم جاء المستظهر بالله ، فطلب من الغزالي محاربة عقيدة الباطنية وفضح آرائهم ومذهبهم ففعل الغزالي ذلك وصنف ضدهم العديد من المصنفات أشهرها كتابه ـ المستظهري ـ أو فضائح الباطنية .

وبذلك أصبح الغزالي مهدداً بالخطر ، فالباطنية يترصدونه ويتحينون [illegible] المواتية للتخلص منه ، فخرج من بغداد سنة (٤٨٨ هـ) وقد ترك [illegible] للتدريس في نظامية بغداد .

وفي بغداد أيضاً انصرف الغزالي إلى دراسة الفلسفة دراسة عميقة ، فطالع كتب الفارابي ، وابن سينا ، وألف على أثر ذلك كتابه « مقاصد الفلاسفة » .

« ولقد أشارت جميع الدلائل إلى أن الغزالي لم يؤلف هذا الكتاب عن رغبة مجردة في العلم ، بل سعياً لطمأنة شكوكه الفكرية وتهدئة اضطرابه الباطني .

والدليل على هذا أيضاً أنه ألف بعد ذلك كتابه المشهور « تهافت الفلاسفة » لإبداء شكوكه في قيمة العلم ، وبراهينه المنطقية »[١].

وقد علل آخرون خروجه من بغداد بأنه كان نتيجة هذه الشكوك التي جعلته يترك التدريس ويترك الأهل ، والولد ، والمال . ويخرج من بغداد سنة (٤٨٨ هـ) .

أما الغزالي فإنه يروي لنا السبب الذي من أجله فارق بغداد حيث يقول :

« . . . ثم لاحظت أحوالي ، فإذا أنا منغمس في العلائق ، وقد أحدقت بي من كل الجوانب ؛ ولاحظت عملي ، وأحسنها التدريس والتعليم ، فإذا أنا مقبل على علوم غير مهمة ، ولا نافعة في طريق الآخرة . . فلم أزل أتردد بين تجاذب الدنيا ودواعي الآخرة ، قريباً من تسعة أشهر ، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة . .

ثم لما أحسست بعجزي ، وسقط بالكلية اختياري ، أظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أريد في نفسي سفر الشام حذراً أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمي في المقام بالشام ، فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم ألا أعاودها أبداً . . . ففارقت بغداد »[٢].

(١) مقدمة المنقذ من الضلال : لجميل صليبا وكامل عياد ص ١٠ ـ ١١ .

(٢) المنقذ من الضلال ٤٧ ـ ٤٨ تحقيق محمد محمد جابر . ط . المكتبة الثقافية ـ بيروت .

إذن ؛ فالغزالي خرج يريد الشام باطناً والحج ظاهراً ، ويبدو أ…
تواقاً إلى العيش في الشام والدليل على ذلك عزمه في نفسه على الا…
إلى بغداد أبداً .

والسبب الذي دفعه إلى الخروج منها كان التردد بين تجاذب ا…
ودواعي الآخرة . وأنه أحس بأن دروسه ومواعظه غير خالصة لوجه…
تعالى ، فأراد التخلي عن التدريس لذلك يقول :

« . . . ثم تفكرت في نيتي في التدريس ، فإذا هي غير خالصة لو…
الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت فتيقنت…
على شفا جرف هار . . . فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها…
المقام ، ومنادي الإيمان ينادي : الرحيل ! الرحيل ! فلم يبق من العمر…
القليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمـ…
رياء وتخييل »[1]

وهكذا خرج الغزالي إلى مكة فالمدينة فدمشق فالقدس فدمشق…
فالإسكندرية ثم عاد إلى بغداد .

قال القاضي أبو بكر ابن العربي : « رأيت الغزالي في البرية[2] وبيد…
عكازة وعليه مرقعة وعلى عاتقه ركوة ، وقد كنت رأيته في بغداد يحضر…
درسه أربعمائة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم .

فدنوت منه ، فسلمت عليه وقلت له :

يا إمام ، أليس تدريس العلم ببغداد خيراً من هذا؟!
فنظر إليّ شزراً وقال :

لما طلع بدر السعادة في فلك الإرادة (أو قال في سماء الإرادة…

…س المصدر ٤٦ .
… صحراء دمشق .

وجنحت شمس الوصول ، في مغارب الأصول :

تركت هوى ليلى وسعدي بمنزل
وعدت إلى تصحيح أول منزل
ونادت بي الأشواق : مهلاً فهذه
منازل من تهوى ، رويدك فانزل
غزلت لهم غزلاً دقيقاً ، فلم أجد
لغزلي نساجاً ، فكسرت مغزلي[1]

عودته إلى نيسابور :

بعد عشرة أعوام من السفر قضاها الغزالي بين الحجاز ودمشق والقدس والإسكندرية ، عاد أخيراً إلى نيسابور ، وكان ذلك سنة (٤٩٨ هـ) بأمر من الوزير فخر الملك علي بن نظام الملك الذي كان وزيراً في نيسابور لسنجر حاكم خراسان .

ويذكر عبد الغافر الفارسي بأن فخر الملك كان قد ألح عليه في ذلك إلحاحاً شديداً[2] . فلبى الغزالي طلبه وتولى التدريس بالنظامية في ذي القعدة (٤٩٩ هـ) لكنها كانت فترة قصيرة ولم تدم طويلاً ، فسرعان ما قضت أيدي الباطنيين على فخر الملك (٥٠٣ هـ) حينئذ خرج الغزالي مسرعاً إلى طوس ثانية ، وسكن في الطابران منها .

وفـاتـه :

توفي الغزالي يوم الاثنين الرابع عشر من شهر جمادى الآخرة سنة (٥٠٥ هـ) . ودفن بظاهر «طابران» وهي قصبة طوس . رحمه الله تعالى .

---

(١) العواصم من القواصم ٢١ تحقيق محب الدين الخطيب .
(٢) طبقات السبكي ١٠٨/٤ .

ولم يعقب إلا البنات . وكان له من الأسباب إرثاً وكسباً ما
بكفايته ويفقه أهله . وأولاده .

تصانيفه :

وقد قيل بأنه قد قسمت كراريس الغزالي بعدد الأيام التي عا
فبلغت أربعة كراريس كل يوم . ولقد بلغت هذه الكتب والرسائل المثا
وهذا عدد ضخم .

وسببه أن كتباً كثيرة قد نسبت إلى الغزالي .

وأن هناك كتباً لأخيه أحمد نسبت إليه نذكر منها على سبيل المثال :

ـ سوانح العشاق .
ـ المجالس الغزالية .
ـ التوحيد وإثبات الصفات .
ـ الذخيرة في علم البصيرة .
ـ سر الأسرار في كشف الأنوار .
ـ بوارق الألماع .

ومن أسباب ذلك أيضاً أن هناك من اختصروا كتباً للغزالي أو شرحو
أو علقوا عليها فجاء العادون وأضافوها إلى الغزالي .

وسبب آخر وهو أن العادين لم يفرقوا بين الكتاب المصنف وبين
الكتاب الذي هو أحد فصول كتاب من كتب الغزالي فظنوا أن هذه الكت
(الفصول) هي كتب أخرى فأضافوها إلى مصنفاته .

وهناك أيضاً العشرات من كتب السحر والطلاسم والكيمياء منسو
الغزالي . ولكن هناك ما يدل على تعاطي الغزالي للكيمياء فقد اشتمل

كتابه كيمياء السعادة على شيء من ذلك ، وهناك كتاب آخر اسمه «في السحر وعجائب الخواص» أكد عبد الغني النابلسي صحة نسبته إلى الغزالي وقد أكد ذلك في شرحه على قصيدة «قل لإخوان»[1] . وهذا لا يعني أن كل ما نسب إلى الغزالي من هذه الكتب هو مقطوع بصحة نسبته إليه .

وسنذكر من مؤلفات الغزالي ما هو مرتب زمنياً حسب تاريخ تأليفه وما هو غير ذلك .

---

(1) مؤلفات الغزالي ٢٠٦ للدكتور عبد الرحمن بدوي . ط . وكالة المطبوعات ـ الكويت .

الفصل الثاني

الترتيب الزمني لمؤلفات الغزالي [1]

المقطوع بصحة نسبتها إليه حسب تاريخ تأليفها :

أ ـ المرحلة الأولى (من ٤٦٥ ـ ٤٧٨ هـ) أي قبل وفاة أبي المعالي الجويني :

١ ـ التعليقة في فروع المذهب . وهي التي أخذها منه قطاع الطرق ثم ردوها إليه .

٢ ـ المنخول في أصول الفقه .

* * *

ب ـ المرحلة الثانية (من ٤٧٨ ـ ٤٨٨ هـ) :

---

(١) مستقى من كتاب سيرة الغزالي وقد أخذه صاحب الكتاب المذكور عبد الكريم العثمان عن كتاب بويج . Essai de chrono Logie علماً بأن بقية التواليف التي لم تذكر ههنا لم يتحقق المؤلف من فترتها الزمنية تماماً. وقد قارنتها بكتاب مؤلفات الغزالي للبدوي فكانت شبه متطابقة.

٣ ــ البسيط (في فروع المذهب) قال فيه ابن خلكان : «ما صنف في الإسلام مثله».

٤ ــ الوسيط (ملخص من البسيط) .

٥ ــ الوجيز .

٦ ــ خلاصة المختصر ونقاوة المعتصر ، أو الخلاصة في الفقه الشافعي

٧ ــ المنتحل في علم الجدل (في المناظرة والجدل) .

٨ ــ مآخذ الخلاف. (ذكره السبكي بعنوان : المآخذ في الخلافيات)

٩ ــ لباب النظر (في طرق المناظرة والخلاف) .

١٠ ــ تحصين المآخذ (في علم الخلاف).

١١ ــ المبادىء والغايات (في أصول الفقه) .

١٢ ــ شفاء الغليل (في القياس والتعليل) .

١٣ ــ فتوى (لإبن تاشفين) - ٤٨٤ - (من جملة فتاوى الغزالي) .

١٤ ــ الفتوى اليزيدية . (في حكم من كفّر يزيد بن معاوية) .

١٥ ــ غاية الغور في دراية الدور (في المسألة السريجية) - ٤٨٤ (فتوى في مسألة الطلاق) .

١٦ ــ مقاصد الفلاسفة ـ ٤٨٧ - (بيان مبادىء الفلسفة) .

١٧ ــ تهافت الفلاسفة ـ ٤٨٨ ـ (الرد على الفلاسفة وتفنيد كلامهم) .

١٨ ــ معيار العلم «بعد التهافت» وقبل سفره إلى دمشق .

١٩ ــ معيار العقول ٤٨٧ ـ ٤٨٨.

ــ محك النظر في المنطق. ويذكر الذهبي أنه ألفه بدمشق.

٢١ ـ ميزان العمل ٤٨٧ ـ ٤٨٨ يخالف سليمان دنيا ذلك في كتابه الحقيقة عند الغزالي ويرى أنه ألفه في آخر حياته.

٢٢ ــ المستظهري ـ ٤٨٨ ـ وهو رد على الباطنية .

٢٣ ــ حجة الحق ، كذلك في بيان فساد مذهب الباطنية .

٢٤ ــ قواصم الباطنية (يرد فيه على شبههم) .

٢٥ ــ الاقتصاد في الاعتقاد ـ ٤٨٨ ـ (كتبه على طريقة الأشاعرة وتوسع في بيان ذلك) .

٢٦ ــ الرسالة القدسية في العقائد[1] ٤٨٨ ـ ٤٨٩ هي فصل قواعد العقائد الذي في الإحياء) .

٢٧ ــ المعارف العقلية والأسرار الإلهية .

جـ ــ المرحلة الثالثة (من ٤٨٨ إلى ٤٩٩ هـ) :

٢٨ ــ إحياء علوم الدين بين ٤٨٩ و٤٩٥.

٢٩ ــ كتاب في مسألة كل مجتهد مصيب . كتبه في دمشق .

٣٠ ــ جواب الغزالي على مؤيد الملك بشأن دعوته للتدريس في نظامية بغداد ٤٩٤ .

٣١ ــ مفصل الخلاف (وهو من جملة الردود على الباطنية) .

٣٢ ــ جواب المسائل الأربع التي سألها الباطنية بهمذان .

٣٣ ــ المقصد الأسنى (شرح أسماء الله الحسنى) .

٣٤ ــ رسالة في رجوع أسماء الله إلى ذات واحدة على رأي المعتزلة والفلاسفة .

---

(١) عده عبد الكريم عثمان كتاباً غير قواعد العقائد.

٣٥ ـ بداية الهداية .

٣٦ ـ الوجيز (في الفقه) .

٣٧ ـ جواهر القرآن ٤٩٥ ـ ٤٩٨ (وينطوي على أصناف الجواهر والنفائس والدرر القرآنية) .

٣٨ ـ الأربعين في أصول الدين ـ وهو جزء من الجواهر .

٣٩ ـ المضنون به على غير أهله[1].

٤٠ ـ المضنون الصغير (أخبر الغزالي في المضنون الأول أنه يريد تصنيف مضنون آخر فيه تلويحات وآثار ورموز لا يعرفها إلا أهلها قال ذلك في آخر المضنون الأول) .

٤١ ـ كتاب الدرج المرقوم بالجداول . (ذكره الغزالي في المنقذ وجعله من بين ما كتبه ضد الباطنية) .

---

(١) وقد كثر الجدال حول هذا الكتاب فمن مثبت له ومن منكر، وللدكتور سليمان دنيا مناقشة طيبة حول هذا الكتاب في كتابه « الحقيقة في نظر الغزالي فليراجع ص ١٠٩ ط دار المعارف بمصر ١٩٦٥، وابن تيمية يثبت صحة نسبة كتاب المضنون إلى الغزالي قائلاً بأن « طائفة من العلماء كانوا يكذبون ثبوته عنه . وأما أهل الخبرة به وبحاله فيعلمون أن هذا كله كلامه لعلمهم بمواد كلامه ومشابهة بعضه بعضاً، ولكن كان هو وأمثاله مضطربين لا يثبتون على قول ثابت » . وابن تيمية يعيب على مواد المضنون بقوله : « إذا طلبت ذلك الكتاب ، واعتقدت فيه أسرار الحقائق وغاية المطالب ، وجدته قول الصابئة المتفلسفة بعينه ، قد غيرت عباراتهم وترتيباتهم ، ومن لم يعلم حقائق مقالات العباد ومقالات أهل الملل يعتقد أن ذلك هو السر الذي كان بين النبي ﷺ وأبي بكر ، وأنه هو الذي يطلع عليه المكاشفون الذين أدركوا الحقائق بنور إلهي ، فإن أبا حامد كثيراً ما يحيل في كتبه على ذلك « النور الإلهي » وعلى ما يعتقد أنه يوجد للصوفية والعبّاد برياضتهم وديانتهم من إدراك الحقائق وكشفها لهم ، حتى يزنوا بذلك ما ورد به الشرع » أ . هـ نقض المنطق ٥٣ ـ ٥٤ ط دار الكتب العلمية .

٤٢ ـ القسطاس المستقيم ـ ٤٩٧ ـ (فيه الموازين الخمسة المنطقية) .

٤٣ ـ فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ـ ٤٩٧ ـ (فيه رد على الذين كفّروه من الأشاعرة) .

٤٤ ـ القانون الكلي في التأويل .

٤٥ ـ كيمياء السعادة (كتبه بالفارسية وهو مشابه في موضوعاته لإحياء علوم الدين) .

٤٦ ـ أيها الولد . ألفه في نيسابور ـ ٥٠٠ ـ (نصيحة في الأخلاق والمعاملات) .

٤٧ ـ نصيحة الملوك . بعد عودته من الشام ٤٩٨ ـ ٤٩٩ ـ (وفيه نصائح لمحمد بن ملك شاه) .

٤٨ ـ زاد أخرت (فارسي) .

٤٩ ـ رسالة إلى أبي الفتح أحمد بن سلامة بالموصل ـ قبل ٥٠٠ ـ .

٥٠ ـ الرسالة اللّدنيّة. (وفيها شرح العلم الربّاني المصطلح عليه بـ « العلم اللدني ») .

٥١ ـ رسالة إلى بعض أهل عصره .

٥٢ ـ مشكاة الأنوار ـ قبل ٥٠٠ هـ ـ (قسّم فيه العقل على خمس مراتب وجعله تأويل آية : مثل نوره كمشكاة . .) .

٥٣ ـ تفسير ياقوت التأويل .

٥٤ ـ الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين ـ ٤٩٠ تقريباً .

٥٥ ـ تلبيس إبليس (وقد ذكره حاجي خليفة بعنوان : « تدليس إبليس » أنظر مؤلفات الغزالي بدوي ٢٠١) .

د- المرحلة الثانية من التعليم - بين ٤٩٩ - ٥٠٣ هـ .

٥٦ ـ المنقذ من الضلال ٥٠١ - ٥٠٢ - (يحكي فيه الغزالي مراحل حياته العقائدية) .

٥٧ ـ في عجائب الخواص (في السحر والكيمياء . ويؤكد عبد الغني النابلسي صحة نسبة هذا الكتاب إلى الغزالي . مؤلفات الغزالي ٢٠٦) .

٥٨ ـ غور الدور في المسألة السريجية (رجع فيه عن مصنفه الأول غاية الغور في دراية الدور) .

٥٩ ـ المستصفى من علم الأصول (٦ محرم ٥٠٣ كما يرويه ابن الأثير) (أصول فقه) .

٦٠ ـ سر العالمين ، وكشف ما في الدارين (شكك الدهلوي في صحة نسبة هذا الكتاب إلى الغزالي التحفة الاثنا عشرية ١٧) .

٦١ ـ الإملاء على الإحياء - في نيسابور ٥٠٣ - (رد على اعتراضات حول الإحياء) .

* * *

هـ ـ السنوات الأخيرة : من ٥٠٣ - ٥٠٥ هـ .

٦٢ ـ الدرر الفاخرة في كشف علوم الآخرة .

٦٣ ـ منهاج العابدين[1] (في الزهد والأخلاق والعبادات) .

---

(١) قال بدوي : هذا وقد أثير كثير من الجدل حول صحة نسبة الكتاب إلى الغزالي ، والسبب في هذا الجدل هو أن محيي الدين ابن عربي في كتابه : « محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار »١/١٢٥ ,ينسبه إلى أبي الحسن علي المسفر السبتي » . مؤلفات الغزالي ٢٣٧ . =

٦٤ ـ إلجام العوام عن علم الكلام[1] - وهو آخر كتبه التي ألفها ـ ٥٠٥ هـ وقبيل موته بأيام . وفيه جرى على مذهب السلف ونسب ما دونه من المذاهب إلى البدعة .

كتب أخرى مقطوع بصحتها ذكرها البدوي :

وقد ذكر عبد الرحمن بدوي بعض كتب من المقطوع بصحتها ليست موجودة في ترتيب « بويج » الزمني لمؤلفات الغزالي .

وسأوردها مقرونة بحسب الترتيب التاريخي وبأرقامها التي رتب عليها الجدول التأريخي وبالمقارنة لهذه الأرقام مع مثيلاتها من الأرقام المرتبة حسب ترتيب بويج تُعرف على وجه التقريب الفترة الزمنية التي أُلفت فيها هذه الكتب :

٥٩ ـ تهذيب الأصول (كتاب ضخم في علم الأصول يميل إلى الإستقصاء والإستكثار على حد تعبير الغزالي) .

= ومن المستشرقين من شكك في صحة نسبته إليه أمثال ماسينيون الذي اعتمد على ما قاله إبن عربي ، وكذلك بويج واسين بلاثيوس ودوبور.
أما جارنر وجوش فإنهما يؤيدان صحة نسبته إليه . هذا وقد أضافه عبدالكريم عثمان والبدوي إلى جملة الكتب المقطوع بصحة نسبتها إلى الغزالي . وقد ورد ذكر كتاب منهاج العابدين في روضة الطالبين عندما سأله أحد المستنصحين عما يستحسن قراءته من كتب الغزالي غير معارج القدس ومنهاج العابدين الخ . . .

(١)ذكر بدوي أنه وجد في خاتمة مخطوطة الكتاب - بمكتبة شهيد علي باشا ، وتاريخ نسخها ٥٠٩ هـ - مكتوب أن الغزالي فرغ من تأليف هذا الكتاب في أوائل جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ هـ أي قبل وفاته بقليل . وقال بدوي أيضاً أن جورج حوراني ذكر في ترتيبه التاريخي أن إلجام العوام قد تم تأليفه في أوائل جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ هـ . والغزالي توفي في الرابع عشر من جمادى الآخرة من السنة نفسها . (أنظر مؤلفات الغزالي بدوي ١٣ و١٥ و٢٣١) . وهذا الترتيب نشر في « مجلة الجمعية الشرقية الأمريكية مجلد ٧٩ عدد ٤ ص ٢٢٥ . أكتوبر - ديسمبر سنة ١٩٥٩ .

٦٠ ـ كتاب حقيقة القولين (وقد ذُكر بأنه كتبه مدافعاً فيه عن الشافعي).

٦١ ـ كتاب أساس القياس (في الأسماء اللغوية هل تثبت قياساً؟).

٦٢ ـ كتاب حقيقة القرآن؟.

٦٥ ـ الإستدراج (في مقامات أهل الجنة ومراتبهم ودخول كل [illegible] بحسب مرتبته).

٦٨ ـ أسرار معاملات الدين (ذكر فيه : بيان الخصال المحمودة [illegible] المذمومة).

٦٩ ـ جواب مسائل سئل عنها في نصوص أشكلت على السائل.

٧٠ ـ رسالة الأقطاب.

كتب أخرى غير مرتبة زمنياً :

- الرد على الباطنية.
- الصراط المستقيم.
- معارج القدس[1].
- القواعد العشرة.

(١) قال بدوي : ولم يذكره أحد ممن ترجموا للغزالي حتى المرتضى كما أنه لا يـ[illegible] إلى أي كتاب آخر للغزالي . ولا يشير إليه الغزالي في أي كتاب من كتبه ، و[illegible] هنا ثار الشك حول صحة نسبته إليه ، وإن كان ما ورد فيه لا يخالف في شيء [illegible] ورد في سائر كتب الغزالي ، أ . هـ (مؤلفات . بدوي ٢٤٤) . قلت : بل [illegible] ذكره في مقدمة روضة الطالبين الذي كتبه الغزالي كجواب لمن سأله طالباً [illegible] النصيحة قائلاً : . . مولاي إن كان الطريق إلى جوابي مدوناً في كتبك العـ[illegible] كإحياء العلوم وكيمياء السعادة ، وجواهر القرآن ، وميزان العمل ، والقسطا[illegible] المستقيم ، ومعراج القدس ومنهاج العابدين . . . الخ . وقد وردت « بلفظ » معرا[illegible] وليس له غير معارج القدس فتكون اللفظة محرفة بغير عمد . هذا احتمال . [illegible] كان الصحيح لفظ « معارج ».

- الأدب في الدين.
- رسالة الطير.
- روضة الطالبين.
- منهاج العارفين.
- جامع الحقائق بتجريد العلائق.
- معراج السالكين.
- الحكمة في مخلوقات الله.
- مقامات العلماء بين يدي الخلفاء والأمراء.
- الرد الجميل لألوهية عيسى بصريح الإنجيل.
- فضائل القرآن.
- رسالة في المعرفة.
- لباب إحياء علوم الدين.
- شفاء العليل.
- بدائع صنع الله.
- كتاب القربة إلى الله.
- كتاب النصوح في المواعظ.
- كتاب مراقي الزلف.
- خلاصة التصانيف في التصوف.
- التبر المسبوك.
- الرسالة الوعظية.
- مكاشفة القلوب : ولم تصح نسبته إلى الغزالي.

الفصل الثالث

أزمة الغزالي الروحية

لقد عاصر الغزالي زمناً كثرت فيه الآراء والمذاهب والفرق وكان أبرزها آنذاك : علم الكلام والفلسفة والباطنية والتصوف ، وقد عكف الغزالي على دراسة كل واحدة منها .

فقد تلقى الأصول وعلم الكلام على الجويني . وتفرغ لدراسة الفلسفة دراسة وافية وأكب على كتب ابن سينا كالشفاء والنجاة والإشارات ، ورسائل أبي حيان التوحيدي، ورسائل إخوان الصفا، ومؤلفات الفارابي، وتهذيب الأخلاق لابن مسكويه ، وأكثر المصادر التي أخذ منها هي : النجاة لابن سينا ، وتهذيب الأخلاق لمسكويه .

وفي التصوف أخذ عن كتاب : « قوت القلوب » لأبي طالب المكي ، والقشيري صاحب الرسالة المشهورة والمحاسبي والجنيد ، لذا فإنه لم يدع مذهباً من المذاهب إلاّ وقد توغل في دراسته . قال : « ولم أزل في عنفوان شبابي ، منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن ،

وقد أناف السن على الخمسين، اقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور، لاخوض الجبان الحذور، وأتوغل في كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأتقحم كل ورطة وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة لأميز بين محق ومبطل ومتسنن ومبتدع.

لا اغادر باطنياً إلاّ وأحب ان أطلع على بطانته، ولا ظاهرياً إلاّ وأريد ان أعلم حاصل ظهارته، ولا فلسفياً إلاّ وأقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلماً إلاّ وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه، ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته . . . الخ»[1].

ولكن هذه العلوم على اختلافها لم تبن عنده أساس الاعتقاد الصحيح، بل إنها بامتزاجها وتداخلها في عقله أحدثت عنده شكاً في كل العلوم التي تلقاها، ولم يكن واحداً منها معيناً له على الخروج من هذا المرض الذي أصابه وتفاقم عنده فيما بعد.

«فأعضل هذا الداء، ودام قريباً من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال، لا بحكم النطق والمقال حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض، وعادت النفس إلى الصحة والإعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة، موثوقاً بها على أمن ويقين»[2].

يقول الدكتور الأعسم: «وقد فسر ديورانت هذا المرض على أنه إنهيار في «القوى العقلية» للغزالي ويكاد يختلف مؤرخوه جميعاً بين عجز الأطباء عن معالجته وبين أن يكون قد نجح بعضهم في تشخيص مرضه بأنه في الأصل مرض عقلي»[3].

(1) المنقذ من الضلال ٥ تحقيق محمد محمد جابر.
(2) المنقذ من الضلال ١٠ - ١١.
(3) «الفيلسوف الغزالي» للدكتور الاعسم ٧٦، وقد عمدت [illegible] اسمه الأول.

وقد ساعد على هذا الشك وحالة القلق التي انتابت الغزالي شعوره الدائم بملاحقة الباطنية له.

وعرّف الدكتور عمر فرّوخ هذا المرض بأنه وراثي، ويسمى بـ«الكنط».

ومعناه هبوط في القوى الجسمانية والعقلية ينتج اضطراباً نفسياً[1] وقد علل لذلك كثرة مواقف الغزالي المليئة بالتردد تجاه الفلاسفة وبراهينهم.

ولما شفاه الله تعالى من هذا المرض، خرج منه وقد شك في كل العلوم، فأراد أن يسلك طريقه بجدية في البحث عن حقائقها، واختيار المذهب الحق من المذاهب التي سادت في عصره، ليحدد موقفه في كل واحدة منها.

وقد كان له مع كل واحد من هذه المذاهب تجارب، وأخذت كل واحدة منها فترة من حياته.

الغزالي ونظرية الشك:

ما أن شفا الله الغزالي من مرض السفسطة الذي أصابه - والذي حمله على الشك في كل العلوم والحسيات والضروريات - حتى صار يبادر إلى الحث على هذا الشك زاعماً أنه هو الموصل إلى اليقين. يقول في آخر كتابه ميزان العمل:

خُذْ ما تـراه وَدَعْ شيئاً سمعْتَ بـه
في طالِع الشمسِ ما يغنيكَ عن زُحَلِ

* «عبد الأمير» لما له من الإشارة إلى عبودية غير الله تعالى. والظاهر أن هذه التسمية شائعة عند الشيعة.
(1) رجوع الغزالي ٣١١. نقلاً عن «الفيلسوف الغزالي» للأعسم ٧٩.

« ولو لم يكن في مجاري هذه الكلمات إلا ما يشكك في إعتقا[دك] الموروث لتنتدب للطلب فناهيك به نفعاً .

إذ الشكوك هي الموصلة إلى الحق .

فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال »(١) . « غير ان الغزالي لم يبين لنا مصير المرء إذا ظل في شكه ولم يهتد إلى اليقين . . . ولا يفوتنا أن نلفت النظر إلى أن الغزالي نبّه في عدة مواطن من كتبه الى انه يجب على المعلم أن يتجنب كل ما يثير الشك في نفوس الضعفاء »(٢) ، ومعلوم أن الشك لا حدود له .

وبالطبع ؛ فإن الغزالي لا يدعو النصارى أو اليهود أو المجوس إلى التشكك في اعتقاداتهم ـ ولو فعل لكان حسناً منه أن يشكك أهل الباطل في أديانهم الباطلة ـ لكنه يدعو إلى الشك ويحث عليه المسلمين ، مشككاً إياهم من اعتقادهم الموروث . وهو الإسلام الذي أول ما يولد المولود علي[ه] سواء كان بعد ذلك كافراً أو مشركاً ! .

أما عن الغزالي وشكه ، فإنه ليس بالأمر المحمود ، بل العجب كل العجب أن يلم رجل بكل علوم الفقه وأصوله فيعتلي كرسي التدريس ويجتمع من حوله رجال العلم وطلابه ويُستفتى في المشكلات والمعضلات ، ثم لا يفتأ بعد ذلك يشك في كل العلوم التي حصّلها .

وهذا النوع من الشك لا يحصل لأهل اليقين ، وإنما هو سبيل المرتابين المترددين المضطربين . « ومن سلك الطريق الشرعية النبوية لم يحتج في إثباتها إلى أن يشك في إيمانه الذي كان عليه قبل البلوغ ، ثم يحدث نظراً يعلم به وجود الصانع . ولم يحتج إلى أن يبقى شاكاً مرتاباً في كل شيء » .

(١) ميزان العمل ١٣٧ ط. دار الكتاب العربي .
(٢) الأخلاق عند الغزالي ٢٣٣ ـ ٢٣٤ ط. الشعب ـ القاهرة .

وإنما كان مثل هذا يعرض لمثل الجهم بن صفوان(١) وأمثاله .

فإنهم ذكروا أنه بقي أربعين يوماً لا يصلي حتى يثبت أن له رباً يعبده .

فهذه الحالة كثيراً ما تعرض للجهمية وأهل الكلام الذين ذمهم السلف والأئمة » .

« وأما المؤمن المحض فيعرض له الوسواس وتعرض له الشكوك والشبهات وهو يدفعها عن قلبه . فإن هذا لا بد منه كما ثبت في الصحيح أن الصحابة قالوا : يا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه . ما لأن يحترق حتى يصير حممة ، أو يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به . فقال ﷺ : « أفقد وجدتموه ؟ » قالوا نعم . قال ذلك صريح الإيمان . . (وفي السنن من وجه آخر) أنهم قالوا : إن أحدنا ليجد في نفسه ما يتعاظم أن يتكلم به فقال : الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة .

قال غير واحد من العلماء : معناه أن ما تجدونه في قلوبكم من كراهة الوساوس والنفرة عنه وبغضه ودفعه هو صريح الإيمان » .

« وهذا من الزبد الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ **فأما الزبد فيذهب جفاء . وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض** ﴾ » [الرعد ١٧](٢) .

ولقد تلقف هذا الشك الذي روّج له الغزالي ديكارت وغيره من الفلاسفة المحدثين ، وصاغوها في قالب فلسفي إلحادي ، مفض إلى الشك في النفس وإثباتها بعد ذلك بالمؤكدات المادية لها ، ثم الشك في الله وسائر الغيبيات بعد ادعاء عدم توافر هذه المؤكدات المادية لذلك ومن ثم الإنكار البحت. أما ايمان ديكارت الذي زعمه فانه إيمان نظري لا وجود له عمليا.

(١) وهو أصل الفرقة الجهمية ، وأهم آرائه : نفي الصفات . والقول بالجبر . وخلق القرآن ، والقول بفناء الجنة والنار .
(٢) شرح العقيدة الأصفهانية ١٣٠ ط دار الكتب الحديثة ـ القاهرة .

وهذا المذهب الديكارتي هو من جملة المذاهب الإلحادية التي ساعدت على نشر الإلحاد في أوروبا ، وقد اعتمد في إقامة مذهبه على كتاب المنقذ من الضلال وبالتحديد على فترة الشك التي أوردها الغزالي فيه .

« وللكاتب الفرنسي « شارل شومان » مقال أثبت فيه أن ديكارت أخذ كثيراً من المبادىء التي بنى عليها مذهبه من الإمام الغزالي » .

وقد قابل هذا الكاتب بين ما جاء في (المنقذ من الضلال) للغزالي ، وما في رسالة (الأسلوب والتأملات) لديكارت ، وتكاد العبارات تكون واحدة »[1] .

ومن العجب أن شاكاً في حقائق الأمور ـ كالغزالي ـ يصدر مؤلفات إيجابية لبيان حقائق الأمور ، فيتحدى الفلاسفة ويتخطى حدودهم بجرأة وثبات لم تعهد في أحد من قبله ، ويعطي دروساً يجتمع حول حلقتها ما يزيد على الأربعمائة بين أئمة وطلبة علم فيعجبوا لحديثه ويأخذوا عنه حقائق العلوم ودقائقها بإيجابية نادرة، وهم لا يعلمون أن وراء هذه الإيجابية ووراء هذا النبوغ تكمن سلبيات وشكوك تعتري نفسه وتشوش فكره ملقية إياه في بحر من الآراء المتضاربة والأفكار المتداخلة .

«إنه لمن الغريب أن يصدر عن الشاك تأليف وتدريس سلبيان : وأعني بالتأليف والتدريس السلبيين ، النقد والتفنيد ، لأن الشاك باحث ، لم تُسلم لديه أدلة الدعاوى ، إذ قامت لديه حولها شبه ، فهو إذا سطر لنا تلك الشبه في كتب أو ألقاها في دروس ، كان مستجيباً لداعي شكه ، وكان منطقياً مع نفسه » .

« لذلك لم يكن غريباً من الغزالي أن ينقد الفلسفة ومذهب التعليم ،

(١) تحت راية القرآن ٢٣٩ للأستاذ مصطفى صادق الرفعي .

لكني مع ذلك ألاحظ على الغزالي في نقده للفلسفة أنه غير مستجيب لداعي شكه »[1] .

وحينما كتب الغزالي في الفلسفة ومذهب التعليم[2] لم يكن قد اختار لنفسه اتجاهاً معيناً بعد، ولذلك فإنه قال في التهافت :

« فلذلك أنا لا أدخل في الاعتراض عليهم إلا دخول مُطالبٍ منكر ، لا دخول مدّعٍ مثبت ؛ فأُبطل عليهم ما اعتقدوه مقطوعاً بإلزامات مختلفة ، فألزمهم تارةً مذهب المعتزلة وأخرى مذهب الكرّامية ؛ وطوراً مذهب الواقفية ، ولا أنتهض ذابّاً عن مذهب مخصوص ، بل أجعل جميع الفرق إلْباً واحداً عليهم ، فإن سائر الفرق ربما خالفونا في التفصيل ، وهؤلاء يتعرضون لأصول الدين ، فلنتظاهر عليهم فعند الشدائد تذهب الأحقاد »[3] .

وهذا الطريق الذي اعتمده الغزالي يتعارض والمنهج العلمي في البحث عن حقائق الأمور أو تبيينها ، حيث أن كل واحد من هذه المذاهب لا يملك الميزان الوسط الذي يستطيع به أن يحكم بإفراط قوم أو بتفريط آخرين .

ولعل هذا ما أوقعه في الشك فإنه من أجل أن يرد على الفلاسفة كان لا بد له أن يعكف على كتبهم ، ومن أجل أن يبطل دعاويهم من نافذة الفكر المعتزلي أو الكرّامي أو الواقفي فإنه لا بد له وأن يعكف على أفكار ومبادىء أهل هذه المذاهب الثلاثة الأخيرة .

(١) الحقيقة في نظر الغزالي ٥٧ للدكتور سليمان دنيا ط دار المعارف بمصر .

(٢) أصحاب الفرقة التعليمية (أي الباطنية) وهم الذين يرجعون إلى الإمام المعصوم في كل علومهم وشؤونهم . وقد لقي مذهبهم رواجاً وإقبالاً في عهد الغزالي . وكان دور الغزالي إيجابياً وحاسماً في دحض مبادئهم وتبيين فسادها . وله فضله في هذا الباب .

(٣) تهافت الفلاسفة ٤٢ ـ ٤٣ تحقيق د. سليمان دنيا ط الحلبي القاهرة .

وكذلك لا بد وأن يعكف على كتب الباطنية - أصحاب المذهب التعليمي - حتى يتمكن من إلزامهم من خلال كتبهم وآرائهم التي وقف عليها طويلاً.

وهو لم يتحصن بعد ولم يعتمد على مذهب معين يقف عنده - حتى إنه ليرى المسلمين أنفسهم مقلدين لم يلتزموا إسلامهم من خلال البحث والتنقيب وإنما تلقوه عن آبائهم - فكان لا بد وأن تحدث هذه الأفكار المتضاربة عنده تشويشاً وتمتزج عنده المعلومات - والتي دخلت فيه واستقرت من غير اعتناق منه لأيٍ منها.

وهذا ما سبب عنده كثرة التناقض وتضارب الأدلة في النصوص المختلفة من كتبه بل وربما في الكتاب الواحد بل في الفقرة الواحدة.

« إن الغزالي عاب على علم الكلام وهو مؤلف فيه، وعاب على الفلسفة وهو مؤلف فيها. والغزالي شك وأمعن في شكه، وقد كان قبل الشك يستعمل موازين للحقيقة لم يرض عنها بعد الشك. ومع ذلك ظل يعترف بمؤلفاته القديمة ويحيل عليها عند المناسبة »(1).

ولو كان في الشك ما يستحق الثناء لكان علينا أن نمتدح جهماً لوقوعه في الشك وتركه الصلاة أربعين يوماً.

ويظهر أن مرحلة ما بعد الشك تخرج الشاك في حالة من المرض لا يكاد يحس بها في بادىء الأمر، فكما أن جهم بن صفوان خرج من الشك بمبادىء التعطيل والنفي لصفات الله. فاننا نرى كذلك أن أبا حامد قد خرج من مرحلة الشك إلى التصوّف وعجائبه، كما سيمر معنا - وإلى نظرية الكشف التي تنازع النبوة وتجعلها مكتسبة لزيدٍ وعمرو. لا للأنبياء فقط!!!

(1) الحقيقة في نظر الغزالي ١٠ - ١١ .

أصناف المذاهب :

قال الغزالي :

« ولما شفاني الله تعالى من هذا المرض بفضله وسعة جوده، انحصرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق :

١ - المتكلمون : وهم يدّعون أنهم أهل الرأي والنظر .

٢ - الباطنية : وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم .

٣ - الفلاسفة : وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان .

٤ - الصوفية : وهم يدّعون أنهم خواص الحضرة، وأهل المشاهدة والمكاشفة .

ويضيف قائلاً :

« فقلت في نفسي : الحق لا يعدو عن هذه الأصناف الأربعة .

فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق، فإن شذ الحق عنهم فلا يبقى في درك الحق مطمع، إذ لا مطمع في الرجوع إلى التقليد بعد مفارقته(1) ... فابتدرت لسلوك هذه الطرق باستقصاء ما عند هذه الفرق :

مبتدئاً بعلم الكلام .

ومثنياً بطريق الفلسفة .

ومثلثاً بتعليمات الباطنية .

ومربّعاً بطريق الصوفية »(2) .

(1) لعل هذا التقليد الذي خرج عنه ولا يريد الرجوع إليه هو الحق الذي فقده وعاد يبحث عنه بين هذه الأصناف الأربعة التي لا مطمع للوصول إلى الحق عن طريقها .
(2) المنقذ من الضلال ١٢ - ١٤ .

ترى ما هو هذا التقليد الذي فارقه ، والذي يأبى الرجوع إليه؟ أيكون التقليد الذي. أراده هو تعلم الكتاب والسنة؟ قد يكون ذلك مراده وقد لا يكون بالنسبة لك.

ولكن إليك الجواب من الإحياء عن حقيقة هذا التقليد يقول الغزالي معرفاً العلوم الدينية بأنها : « المأخوذة بطريق التقليد من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وذلك يحصل بالتعلم لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وفهم معانيهما بعد السماع »(١).

(١) الإحياء ١٧/٣ .

الباب الثاني

الغزالي وعلم الكلام

الفصل الأول

الغزالي بين ذم المتكلمين ومدح الكلام:

قال الغزالي :

« ثم إني ابتدأت بعلم الكلام فحصلته وعقلته ، وطالعت كتب المحققين منهم ، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف . فصادفته علماً وافياً بمقصوده ، غير وافٍ بمقصودي .

وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة »[1] .

من المعلوم أن الغزالي رجل شافعي المذهب ، قد درس المذهب دراسة وافية وبرع فيه وصار فيه من نظار وفقهاء أهل زمانه ، فلا بد ـ والحال هكذا ـ أن يعلم شيئاً من كلام الشافعي وآرائه في أهل الكلام ، وقد كان الشافعي من أعلام هذه الأمة ومن أكابرها ومن أحرص الناس على

---

(١) المنقذ من الضلال ١٤ .

السنة ، وقد نشأ الكلام والجدل وعلم اليونان في عصره فلم يتخذه سبيلاً للدفاع عن السنة من تشويش المبتدعة بل ذمه أيما ذم وعابه أيما عيب .

والعجيب أن الغزالي حرص على نقل العديد من العبارات التي ذم فيها الشافعي علم الكلام .

قال الزعفراني : قال الشافعي : حكمي في أصحاب الكلام أن يُضربوا بالجريد ويُطاف بهم في القبائل والعشائر .

ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام[1].

وقال : لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء لفرّوا منه فرارهم من الأسد .

وحكى الكرابيسي أن الشافعي رضي الله عنه سئل عن شيء من الكلام فغضب وقال : سل عن هذا حفصاً الفرد وأصحابه أخزاهم الله . ولما مرض الشافعي دخل عليه حفص الفرد فقال له : من أنا؟ .

فقال الشافعي : حفص الفرد ، لا حفظك الله ولا رعاك حتى تتوب مما أنت فيه .

وقال : لأن يلقى الله عز وجل العبد بكل ذنب ـ ما خلا الشرك ـ خير من أن يلقاه بشيء من علم الكلام[2].

وكان رضي الله عنه يقول : ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب ، وميلهم إلى لسان أرسطاليس[3].

لكن الغزالي خالف كل ما نقله حين كتب قواعد العقائد على طريقة

---

(1) إذن ، فالكلام شيء والكتاب والسنة شيء آخر ، فأهل الكلام ليسوا بذلك من أهل السنة

(2) الإحياء ١/٩٥ ط دار المعرفة ـ بيروت .

(3) فضل علم السلف على علم الخلف ٩٩ تحقيق يحيى غزاوي .

المتكلمين ، وكذلك حين شرحه وتوسع في هذا الشرح بإيراد الأدلة الكلامية البحتة[1] .

مع أنه اعترف بحقيقة مهمة في كتابه المنقذ وذلك أنه قال :

« ولم يكن في كتب المتكلمين من كلامهم ـ حيث اشتغلوا بالرد على كلامهم[2] ـ إلا كلمات معقدة مبددة ، ظاهرة التناقض والفساد ، لا يظن الاغترار بها بغافل عامي ، فضلاً عمن يدعي دقائق العلوم » .

واعترف أيضاً بأن علم الكلام لم يكن في حقه كافياً ، ولا لدائه الذي كان يشكوه شافياً ولم يحصل منه ما يمحو بالكلية ظلمات الحيرة في اختلافات الخلق[3] .

وفي رأيي أن علم الكلام هو حصيلة الفلسفة ومدخلها وكما قال ابن الصلاح «فمدخل الشرِّ شرّ» ، وهو أثر من آثارها وبلاياها على الأمة ، فما أن أدخل هذا المنطق والكلام على المسلمين حتى تسبب في وقوع الخلافات والخصومات بينهم .

« فمنهم من تاقت نفسه إلى المناظرة والمجادلة في الكلام فأكب الناس على علم الكلام وأكثروا فيه التصانيف ، ورتبوا فيه طرق المجادلات ، واستخرجوا فنون المناقضات في المقالات ، وزعموا أن غرضهم الذب عن دين الله والنضال عن السنة وقمع المبتدعة . . . ثم ظهر بعد ذلك من الصدور من لم يستصوب الخوض في الكلام وفتح باب المناظرة فيه . لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصبات الفاحشة ، والخصومات الفاشية المفضية إلى إهراق الدم وتخريب البلاد»[4] .

---

(1) أنظر إحياء علوم الدين ١/ ١٠٤ .

(2) أي الفلاسفة .

(3) المنقذ من الضلال ١٥ ـ ١٧ .

(4) الإحياء ٤٢/١ .

هذه حقيقة قد اعترف بها الغزالي وهو أن علم الكلام مفض إلى الخصومات والتعصبات .

وهذا ما حذر منه النبي ﷺ وصحابته والتابعون وأكابر أئمة هذه الأمة وقد اتفقوا على أن الجدل مفض إلى الخصومات في الدين ، وعلم الكلام جدل منظم وموضوع على أصول وطرائق تساعد على جعل المرء « مجادلاً محترفاً ».

ومما أنكره الغزالي على المتكلمين أنهم جعلوا طرائق كلامهم المحدث فصلاً أولياً وهاماً وعلماً من ضروريات هذا الدين ومزجوه بكلمة التوحيد تحسيناً للجدل القبيح وتزييناً له قائلاً :

« (التوحيد) : وقد جُعل الآن عبارة عن صناعة الكلام ومعرفة طريق المجادلة ، والإحاطة بطرق مناقضات الخصوم ، والقدرة على التشدق فيها بتكثير الأسئلة ، وإثارة الشبهات ، وتأليف الإلزامات ، حتى لقّب طوائف منهم أنفسهم « بالعدل والتوحيد ».

وسُمي المتكلمون بـ « علماء التوحيد » مع أن جميع ما هو خاصة هذه الصناعة لم يكن يُعرف منها شيء في العصر الأول، بل كان يشتد منهم النكير على من كان يفتح باباً من الجدل والمماراة »(1).

« ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه ، وقالوا : ما سكت عنه الصحابة ـ مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم ـ إلا لعلمهم بما يتولد عنه من الشر »(2).

وحتى في ردود المتكلمين على الفلاسفة فإنها لم تكن ردوداً مفحمة ، بل قد رد عليهم الفلاسفة واحتجوا عليهم في بعض ما ذهبوا

---

(1) الإحياء ١/٣٣ .
(2) الإحياء ١/٩٥ .

إليه ، كقولهم بمبدأ الجواهر الفردة المأخوذة عن ديموقرايتس وغير ذلك .

وهذا ما حدا بالغزالي إلى القول بأنه لم يكن في كتب المتكلمين من كلامهم ـ حيث اشتغلوا بالرد على الفلاسفة ـ إلا كلمات معقدة مبددة، ظاهرة التناقض والفساد »(1).

ولذلك فقد صرح بأن : « الإيمان المستفاد من الدليل الكلامي ضعيف جداً ، مشرف على التزاول بكل شبهة »(2).

وبالمقارنة بين عقيدة المتكلم وبين عقيدة العامي ، يخرج الغزالي بالنتيجة التالية :

« فقس عقيدة أهل الصلاح والتقى من عوام الناس بعقيدة المتكلمين والمجادلين : فترى اعتقاد العامي في الثبات كالطود الشامخ . لا تحركه الدواهي والصواعق.

وعقيدة المتكلم الحارس اعتقاده بتقسيمات الجدل كخيط مرسل في الهواء تفيئه الرياح . مرة هكذا ، ومرة هكذا »(3).

إذن فعقيدة المتكلم تفيئها الرياح ، وعقيدة العامي لا تحركها الدواهي ولا الصواعق .

فلماذا تناقض الغزالي بعد صفحتين من هذا الكلام قائلاً بأن منفعة علم الكلام شيء واحد: وهو حراسة العقيدة على العوام وحفظها من تشويشات المبتدعة، وأن المتكلم بمثابة الحارس لطريق الحجيج!!!»(4).

---

(1) المنقذ من الضلال ١٧ .
(2) فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة ١٥٣ (مجموعة القصور العوالي) .
(3) الاحياء ١/٩٤ .
(4) الإحياء ١/ ٩٧ و٢٢ .

مع أنه صرح قبل ذلك أن عقيدة المتكلم مهلهلة ، مشرفة على الزوال بكل شبهة .

وأن عقيدة العامي ثابتة كالطود الشامخ ، فكيف تحصل حراسة المهلهل للشامخ؟!!.

وكيف يتصور عاقل أن تحصل من الذي تفيئه الرياح ، حراسة ما لا تحركه الدواهي والصواعق؟.

وما يزيد المرء تعجباً بالغزالي أنه جعل حاجة الناس إلى المتكلم أشد وأشد بكثير من حاجتهم إلى الفقيه[1].

ومن التناقضات البارزة في كلامه أنه أثنى على عقيدة العوام ، وذم عقيدة المتكلم ثم جعله (أي المتكلم) حارساً لعقيدة العامي .

بل وأبعد من هذا التناقض : ثناؤه على عقيدة العامي ثم تفضيله للأشاعرة والمعتزلة عليه[2]!!

ولقد أفاض الغزالي في نقله لكلام أكابر الأئمة فيما يتعلق بنهيهم عن الكلام واعتباره بدعة مذمومة ، فمنذ متى تهب البدعة للدفاع عن السنة وحراستها؟ ولم خالف هؤلاء الأكابر؟ . وما من بدعة تأتي إلا ويذهب من السنة مثلها ، قال رسول الله ﷺ :

« ما أحدث قوم بدعة إلاَّ رُفع مثلها من السنة ، فتمسكٌ بالسنة خير من إحداث بدعة »[3].

فتشويشات المبتدعة لا تزول بكلام أهل الكلام والجدل والمبتدع .

---

(١) جواهر القرآن ٢٣ ط دار الآفاق الجديدة ـ بيروت .

(٢) المضنون به على غير أهله ١٦٠ ـ ١٦١ (مجموعة رسائل القصور العوالي) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ٤/١٠٥ ، والدارمي بإسناد صحيح ١/٤٥ .

والكلام الذي اتفق مالك وأحمد وأبو حنيفة والشافعي على تبديعه لا يمكن أن يكون حارساً للعقيدة من البدع . لأن الكلام يكون بالتالي بدعة أخرى ، ولا يتصور عاقل أن يستعان بالباطل لتثبيت الحق ، إذ الحق والباطل عدوان باقيان إلى قيام الساعة . وعلم الكلام مشتق من هذا الباطل .

وكتب الغزالي ـ كالقسطاس المستقيم ، والأربعين ، وقواعد العقائد ، والاقتصاد في الاقتصاد ، وأدلة قواعد العقائد التي في الإحياء ـ مبنية على المنطق وعلم الكلام ، ومثال ذلك قوله في الإحياء :

« . . إن الحادث لا يُستغنى في حدوثه عن سبب يُحدثه ، والعالم حادث ، فإذا لا يُستغنى في حدوثه عن سبب . وأما قولنا : « العالم حادث » فبرهانه أن أجسام العالم لا تخلو عن الحركة والسكون وهما حادثان ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث . . . فما من ساكن إلاَّ والعقل قاضٍ بجواز حركته ، وما من متحرك إلا والعقل قاضٍ بجواز سكونه ، فالطارىء منهما حادث لطريانه ، والسابق حادث لعدمه ، لأنه لو ثبت قدمه لاستحال عدمه . . .

« الثالثة : قولنا : « ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث » وبرهانه أنه لو لم يكن كذلك لكان قبل كل حادث حوادث لا أول لها ، ولو لم تنقض تلك الحوادث بجملتها لا تنتهي النوبة إلى وجود الحادث الحاضر في الحال .

وانقضاء ما لا نهاية له محال ، ولأنه لو كان للفلك دورات لا نهاية لها لكان لا يخلو عددها عن أن تكون شفعاً ولا وتراً .

(الرابع) : العلم بأنه تعالى ليس بجوهر يتحيز ، بل يتعالى ويتقدس عن مناسبة الحيز .

وبرهانه أن كل جوهر متحيز فهو مختص بحيزه ، ولا يخلو من أن يكون ساكناً فيه أو متحركاً عنه .

فلا يخلو عن الحركة أو السكون - وهما حادثان - وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث .

ولو تصور جوهر متحيز قديم لكان يعقل قدم جواهر العالم . . .

قال تعالى : ﴿ **ثم استوى إلى السماء وهي دخان** ﴾ . قال الغزالي :

« وليس ذلك إلا بطريق القهر والإستيلاء ، كما قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق
من غير سيف ودم مهراق »(١) .

وإذا كان الغزالي - الأشعري المذهب - يتأول صفة الاستواء بالإستيلاء فانظر ما يقوله أبو الحسن الأشعري رحمه الله :

« وقالت المعتزلة في قول الله عز وجل : ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ : يعني استولى »(٢) .

أردت أن أقف هنا وقفةً عابرة لأعطي صورة عن تقليد الأشاعرة بعضهم لبعض وتقليد الغزالي لهم - وهو هو الذي يزعم الهروب من التقليد - لم ينج من تقليد المتكلمة الأشاعرة الذين يتمثلون بالأشعري ويتبجحون باتباع معتقده وهو من تأويلاتهم براء .

والذي نقلته من الإحياء كافٍ لبيان خوضه في علم الكلام الذي ذكر قبل ذلك بصفحات قليلة كلام الشافعي (أصل مذهبه) وغيره من أكابر أهل السنة كمالك وأبي حنيفة وأحمد في ذم هذا العلم الجدلي .

---

(١) الإحياء ١ / ١٠٤ - ١٠٨ .
(٢) مقالات الإسلاميين ١٥٧ ، الإبانة ٨٦ تحقيق الأرناؤوط ، تبيين كذب المفتري لإبن عساكر ١٥٠ .

ويبرز بعد ذلك السؤال التالي : هل يعتمد على شيء من هذا الكلام لحراسة العقيدة السنية الصحيحة؟ .

الجواب :

« إن الله قد حفظ سنته بأئمة استنوا بسنّته ﷺ ، وسواء وُجد هؤلاء الأئمة أو عُدم وجودهم فالدين باقٍ إلى يوم القيامة . وهذا وعد رباني . ولا يخلف الله وعده .

فالله سبحانه ينصر دينه بمتبعين لا مبتدعين ، وهب أن علم الكلام نافع لحراسة العقيدة فإن انعدامه لا يهدد دين الإسلام بالزوال ، والوعد الإلهي ببقاء هذا الدين وظهوره على ملل الكفر قائم وإن غاب المتكلمون المجادلون ، فكيف وأنت تعلم أنه علم مبتدع - ليس هذا فحسب - بل متسببٌ في الخصومات والتعصبات التي اعترف بها الغزالي .

وبذلك يكون الأولى دفع البدعة بطريقة السنة لا ببدعة أخرى مثلها .

رأي الاستاذ أبي الحسن الندوي في علم الكلام :

وللاستاذ الندوي في الكلام رأي لا نوافقه عليه ، فإنه يقول :

« لقد كان علم الكلام أحوج العلوم والمباحث إلى النمو والتطور ومسايرة العصر ، لأنه يتكفل الإقناع ودفع الشبهات »(١) .

إن علم الكلام معقد مبدد غاية في التناقض والفساد ، وهو شبيه بخيط مرسل في الهواء ، تفيئه الرياح . مرة هكذا ، ومرة هكذا ، والإيمان المستفاد منه ضعيف جداً ومشرف على التزاول بكل شبهة .

هكذا وصف الغزالي الكلام ومذهب المتكلمين وهو أخبر بأصوله

---

(١) رجال الفكر والدعوة ٢١٧ - الجزء الأول - ط دار القلم .

وطرائقه ممن خاضوا في الكلام في عهده ومن جاؤوا من بعدهم ، لم يصفهُ الندوي بأنه « أحوج العلوم »؟!!.

وهذه عبارة أخرى للغزالي، كأنها نصيحة منه بتجنّب علم الكلام وعدم الخوض فيه يقول فيها:

« فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى درجة المتكلمين ، وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم أخر تناسب نوع الكلام .

وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه « مسدود »[1].

ولست أعتقد بأن الأستاذ الندوي قد غاب عنه هذا التردد والاضطراب الذي كان يعتور سادات المتكلمين ونظارهم ، كالجويني الذي أثنى على دين العجائز وعقائد العوام[2] ، والرازي القائل :

« ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن ، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال لله ويمنع عن التعمق في إيرادات المعارضات والمناقضات »[3].

فهؤلاء هم سادات المتكلمة بلا منازع قد اعترفوا وعلى فرش الموت نصحوا بترك هذا الكلام ، فكيف لو تعلم ما ورد من أكابر أئمة المذاهب وغيرهم في ذم الكلام واعتبارهم إياه من الزندقة؟!..

نهي الغزالي عن الكلام : لمن؟؟:

أما نهي الغزالي عن تعاطي الكلام فإنه موجه للعوام من الناس ، إذ

---

(١) الإحياء ٩٧/١ .

(٢) طبقات الشافعية ٢٦٠/٣ ، تلبيس إبليس ٨٥ ، صون المنطق والكلام ١٨٤ .

(٣) طبقات الشافعية ٣٧/٥ .

ليس الكلام مذموماً لعينه ، بل لما فيه من الضرر على العوام ، وإلا فأصحاب مرتبة الكلام والجدل هم حراس للعقيدة في نظر الغزالي!.

فلا يليق بالعوام ارتقاء مرتبة الكلام ، ولا يليق بأهل الكلام ارتقاء مرتبة الصديقين ، ولا يليق بالعوام إلا الإتباع، والكف عن تغيير ظواهر الآيات والأحاديث ، وتحذيرهم عن إبداع التصريح بتأويل لم تصرح به الصحابة ، وحسم باب السؤال رأساً والزجر عن الخوض في الكلام والبحث.

أما الخواصّ : ـ أصحاب المقام الثاني ، وهم النظار ، فقد أجاز لهم الغزالي ترك الظواهر حسب ما تدعو إليه الضرورة بعدما أحالهم على كتابه «القسطاس المستقيم»، الذي وضع لهم فيه الموازين الخمسة المأخوذة عن المنطق والمناطقة[1] .

ولا يخفى أن تقسيم الناس إلى عوام وخواص وغير ذلك هو من فعل الفلاسفة الذين يحرمون على العوام تأويل الآيات ، ويحرمون في نفس الوقت إثباتها على العارفين ، ويأمرون العوام بإثباتها والعارفين بتأويلها ، كابن رشد الذي يزعم بأن إثبات العارفين للآيات كفر ، وتأويل العوام لها كفر!!![2] .

وهذا مبني على أقوال ابن سينا من أن الشرع خطاب للجمهور على سبيل التمثيل وسنذكر ذلك لاحقاً .

---

(١)فيصل التفرقة ١٣٨ ـ ١٣٩(القصور العوالي). وأنظر مقدمة جميل صليبا لكتاب جواهر القرآن .

(٢) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الإتصال ٤٨ تحقيق محمد عمارة ط. دار المعارف ـ مصر .

موقف الغزالي من الإثبات والتأويل :

قد يحث الغزالي على إثبات صفات الله في كتابٍ ما من كتبه ثم يخالف ما حث عليه بدعوته إلى تأويلها في الكتاب ذاته ، ولنأخذ على سبيل المثال كتابه الإحياء :

فإنه تارةً يدعو إلى التأويل في فصل قواعد الإحياء في العقائد وأول بأن يتأول صفة استوائه تعالى بالاستيلاء زاعماً بأن أهل الحق مضطرون إلى التأويل .

وفي موضع آخر من الإحياء يجعل إقرار الإثبات أو التأويل مرهون بالكشف ، فإن وافق التأويل ما كوشف به العارف أخذ بالتأويل ، وإن وافق الإثباتَ ما كوشف به أخذ بالإثبات[1] .

وفي موضع آخر منه يقول :

«إن إثبات ما أثبته الله لنفسه ورسوله ﷺ مع اعتقاد نفي التشبيه هو الجامع لذلك كله ، إذ أن الخطر في البحث عن الصفات عظيم ، وعقباته كؤودة ، ومسالكه وعرة»[2] .

ويقول في القسطاس المستقيم :

« فإن تشابه عليك شيء فقل : آمنا به كل من عند ربنا ، واعتقد كل ما ورد في إثبات الصفات ونفيها على غاية التعظيم والتقديس مع نفي المماثلة ، واعتقاد أنه ليس كمثله شيء . ولا تلتفت بعد هذا إلى القيل والقال»[3] .

---

(1) سنذكر ذلك بالتفصيل في حينه .
(2) الإحياء ٤/١٧٥ .
(3) القسطاس المستقيم ٦٣ ـ ٦٤ (القصور العوالي) .

ويقول بأن :

«علاج وهم التشبيه أسهل من علاج التعطيل ، إذ يكفي أن يقال مع هذه الظواهر: ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ .

وقد أكد بأن إثبات الصفات مع نفي التشبيه والمثل هو معتقد أهل السنة الصحيح ، الذي هو وسط بين المتأولة المعطلة وبين المشبهة الذين يثبتون الصفات من غير إثبات آيات التنزيه ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ فيفهمون منها ما يفهمونه من صفات المخلوقين . يقول :

«وأما الفرقة المعطلة : فإنهم بالغوا وغلوا وبالغوا في نفي التشبيه حتى وقعوا في التعطيل .

وأما أهل السنة والجماعة : فإنهم سلكوا الطريق الوسط وأثبتو صفات الله كما وردت من غير تشبيه ولا تعطيل»[1] .

أما كتابه «إلجام العوام» فقد أكد فيه على الإثبات ، واشتد نكيره في على التأويل والمتأولة ملقباً إياهم بـ« المعطلة » . وقد حث على سلوك طريق السلف ونسب من سلكوا غير هذا الطريق إلى البدعة وقال في مواضع متعددة من هذا الكتاب بأن : « الحق هو مذهب السلف ، وأن من خالفهم فهو مبتدع »[2] .

وأضاف بأنه : « لما كان زمان السلف الأول زمان سكون القلب بالغوا في الكف عن التأويل خيفةً من تحريك الدواعي وتشويش القلوب .

فمن خالفهم في ذلك الزمان فهو الذي حرك الفتنة ، وألقى هذه

---

(1) روضة الطالبين ٣٩ ـ ٤٠ (القصور العوالي) .
(2) إلجام العوام عن علم الكلام ٦٢ (القصور العوالي) .

الشكوك في القلوب مع الاستغناء عنه فباء بالإثم»[١].

على أنه ينبغي التنبيه إلى أن سكون قلوب السلف إنما هو من السكينة الناتجة عن اعتقاد الحق الصراح الذي نطقت به النصوص وشهدت به الفطر والعقول، فأصبح يقيناً لا يعتريه الشك، ولا تزعزعه الشبهات.

(١) نفس المصدر ٨١.

الباب الثالث

الغزالي والفلسفة

الفصل الأول

أثر الفلسفة في مصنفاته

ما كان السلف الصالح ممن يتطلعون إلى منابع أخرى أو إلى مصادر غير المصدر الذي استقوه من «لدن» نبي هذه الأمة ﷺ ، وهذا يظهر جانب تقديرهم لهذا المصدر ويقينهم بأنه هو المصدر الأوحد الذي يبلغون به سعادتهم الدنيوية والأُخروية .

ولقد كانوا ينظرون إلى المصادر الأخرى نظرة الند والمنافس لمصدرهم الذي بذلوا في سبيل قيامه كل ما كانوا يملكون ، فأقاموه وافتدوه بأنفسهم وأموالهم .

لما فتحت أرض فارس ودخلها المسلمون، وجدوا فيها كتباً كثيرة، فكتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب ليستأذنه في شأنها وتنقيلها للمسلمين ، فكتب إليه عمر رضي الله عنه أن اطرحوها في الماء فإن يكن فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منها ، وإن تكن ضلالاً فقد كفانا الله .

فطرحوها في الماء ـ أو في النار ـ وذهبت علوم الفرس منها عن أن تصل إلى المسلمين[١].

ويا ليت المسلمين اقتدوا بما فعله عمر، إذن لبقي المنبع الصافي ـ صافياً ـ.

لكن المسلمين لم يغاروا على هذا المنبع غيرة عمر عليه، فأخذوا يدخلون علوم الفلسفة إلى جانب علومهم، فهذبوها بعد ترجمتها وأضافوا عليها الشروح وفتنوا بها شر فتنة، ولم يتنبهوا إلى أنها كانت سلاحاً قد استعملته من قبل أيد خبيثة لتهدم به ما جاء به المسيح صلوات الله وسلامه عليه، فكان السلاح ذا كفاءة عالية وتلوث التوحيد الذي جاء به عيسى بالثالوث الإغريقي، وبمبادىء الأفلاطونية المحدثة والفكر الغنوصي.

ومن ثم ظهرت أمراض علم الفلك والنجوم والطلسمات والكلام والباطنية والصوفية وظهر التجهم والاعتزال، وتجرأ الفلاسفة وغيرهم على تكذيب الله ورسوله بتعطيلهم الكثير من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ مما لم يتفق وعلوم الفلسفة.

وقد عاب كثير من نظار المسلمين الفلسفة وبينوا كثيراً من عيبها ومعارضتها لكثير من الأصول الإسلامية مما يتعذر معها سلوك الطريقين ـ طريق الإسلام وطريق الفلسفة ـ في آن واحد. ثم وقف الكثير منهم في وجهها منافحين عن الشريعة عازلين إياها عن أن تشوبها شائبة. فألفوا الكتب في الرد على منتحليها وبيان إبعادها لهم عن مبادىء الإسلام ومنهجه.

ولقد كان أبو حامد الغزالي واحداً من جملة اولئك الذين أظهروا للناس فسادها، بعد أن أمضى قريباً من سنتين يدرس غور وغوائل هذا

(١) أنظر مقدمة ابن خلدون ٤٨٠ ط دار القلم.

المذهب حتى اطلع على ما فيه من خداع وتلبيس وتخييل، ومن ثم قسمهم إلى ثلاثة أصناف.

الصنف الأول: الدهريون.

الصنف الثاني: الطبيعيون.

الصنف الثالث: الإلٓهيون.

ثم قطع بتكفير أصحاب الصنف الثالث ـ وهم الإلٓهيون ـ وتكفير متبعيهم من المتفلسفة الإسلاميين كابن سينا والفارابي وغيرهما، حيث أن أحداً من المسلمين لم يقم بنقل علم «ارسطاطاليس» كقيام هذين الرجلين[١].

والسبب في تكفيرهم بالإلٓهيات قول الغزالي بأنه قد كثرت فيها أغاليطهم فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق، ومجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً يجب تكفيرهم في ثلاثة منها وتبديعهم في سبعة عشر. وهذه الثلاثة هي كالآتي:

(١) قولهم إن الأجساد لا تحشر، وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح المجردة والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية.

(٢) قولهم: إن الله يعلم الكليات دون الجزئيات وهذا أيضاً كفر صريح.

(٣) قولهم بقدم العالم وأزليته[٢].

لقد كان هذا الموقف حسناً من الغزالي، حيث أنه استطاع مجابهتهم وتفنيد آرائهم ثم أظهر تهافتها في كتابه المسمى بـ «تهافت الفلاسفة» في الوقت الذي لم يكن كثير من النظار قادراً على ذلك، إذ كان لدى

(١) المنقذ من الضلال ١٨ ـ ٢٢.

(٢) نفس المصدر ٢٧ ـ ٢٨.

الفلاسفة من الحجج الباطلة والقواعد الجدلية ما يُلبس ثوب الشك لدى خصمهم في القدرة على مواجهتهم بذلك ، حتى جاء الغزالي وأبطل هذه الحجج بقدم ثابتة ، وثقة بالغة ، وجرأة نادرة ، وسجل له التاريخ الإسلامي هذا الفضل العظيم .

بيد أن الغزالي لم يكن يريد بذلك إبادة الفلسفة واجتثاثها من الجذور ، فقد كان يميل إليها ميلاً جعله يصب في وعاء الصوفية من معينها .

فالاحياء مليء بمادة الفلسفة ، وكذلك مشكاة الأنوار ، وكتاب معارج القدس ، وميزان العمل الخ . .

ومع أن الغزالي أعلن استحالة حصول الهدى بسلوك طريق الفلسفة ، ومع أنه أجاد في الرد على الفلاسفة ، لكنه عاد وأظهرها في قالب التصوف والعبارات الإسلامية . ولهذا رد عليه أحد أخصّ أصحابه وهو « أبو بكر ابن العربي » فإنه قال : « شيخنا أبو حامد دخل في بطون الفلاسفة ثم أراد أن يخرج فما قدر » .

ويذكر ابن تيمية عن الغزالي :

« إنه قد أدخل في أول كتابه « المستصفى » مقدمة من المنطق اليوناني وزعم أن من لم يكن له نصيب من علم المنطق فإنه لا يوثق بعلمه » [1] .

« إن الغزالي يعتبر المازج الحقيقي للمنطق : « الارسطاطاليسي » بعلوم المسلمين من خلال هذه المقدمة المنطقية التي وضعها في أول « المستصفى » والتي ذكر فيها أن من لا يحيط بها فلا ثقة بعلومه أصلاً ،

(1) فتاوى ابن تيمية ٩/١٨٤ .

وقد نصّ ابن تيمية على أن أول من خلط ـ المنطق الأرسطاطاليسي ـ بأصول المسلمين هو أبو حامد الغزالي »[1] .

ويقول الدكتور عبد الرحمن بدوي : « وقد استطاع الغزالي بهذا الربط الوثيق ـ بل المزج والتفاعل ـ بين الفلسفة اليونانية وبين العقائد الإسلامية ـ متمثلة في الكتاب والسنة ـ أن يعطي الفلسفة حق المواطن الكامل في داخل الثقافة الإسلامية »[2] .

وكذلك فإن د. بدوي قد وضع تقييماً لفكر الغزالي من خلال تصانيفه التي كتبها بعدما كتب كتابه تهافت الفلاسفة ، فقال : « وهنا قد يتساءل المرء : وما الجديد إذن في الغزالي؟ والجواب واضح وهو :

« أن الجديد في فكر الغزالي هو :

(أولاً) : ربطه بين الفلسفة الأفلاطونية وبين العقائد الإسلامية بتأويل للآيات القرآنية على نحو يقرّب بين الإثنين .

(ثانياً) : إبرازه لهذه الآراء الأفلاطونية المحدثة في ثوب إسلامي خالص .

(ثالثاً) : ما أتى به خصوصاً في ـ مشكاة الأنوار ـ التي أعدها أعظم كتبه من الناحية الفلسفية ، من تفصيلات وتحليلات ربطها بالقرآن والسنة أوثق ارتباط ، واستنباط لنتائج وأفكار كانت كامنة في الأفلاطونية المحدثة ، واستطاع هو إبرازها وتوفيتها حقها من التحليل » .

(1) منهاج البحث عند الغزالي ٩٤ ـ عادل زعبوب وهو من المغالين في تأييد الغزالي كوصفه إياه بأنه الخبير بخفيات الضمائر ومكنونات القلوب . أنظر كتابه المنهاج صفحة ٨ . ومع ذلك فإنه يضطر إلى ذكر حقيقة دور الغزالي في مزج المنطق بالعلوم الشرعية .

(2) الغزالي ومصادره اليونانية ٢٠٦ د. عبد الرحمن بدوي (ضمن كتاب دور العرب في تكوين الفكر الأوربي) .

ثم يقول :

« وهكذا نرى الغزالي قد تأثر في هذه الموضوعات الثلاثة على الأقل بالفلسفة اليونانية تأثراً ظاهراً قوياً في المرحلة الأخيرة من حياته ، تلك المرحلة التي بدأت سنة ٤٨٨ هـ ، وفيها أظهر انصرافه عن الفلسفة وكفره بالفلاسفة .

والواقع أنه رغم كل ما بذله بقي في بطون الفلاسفة ، ولم يقدر أن يخرج منها كما قال أبو بكر بن العربي : وما تظاهر به من طعنٍ في الفلاسفة لم يكن يقصد به الطعن إلا في الظاهر ابتغاء التقريب بينها وبين الدين حتى يستطيع أن يجعل الفلسفة مقبولة في رحاب الدين السني ».

« وما نراه من تغييره للمصطلحات إنما قصد منه أيضاً إلى هذا التقريب . ولم يكن قصده أبداً إلى صرف أهل الدين عن الفلسفة ، بل العكس . رمى إلى جعلها مقبولة لديهم . ومن هنا التناقض الظاهر في موقفه »[1].

نماذج عن التأثر الفلسفي عند الغزالي :

ومما نراه بوضوح في الإحياء وغيره من كتبه كثرة استعمال للإصطلاحات الفلسفية ، وعلى وجه الخصوص اصطلاحات الأفلاطونية المحدثة وألفاظها مثل :

علوم المعاملة ، وعلوم المكاشفة[2].

والإنسان عالم أصغر[3].

(١) نفس المصدر ٢٠٤. وهذا تعسف ظهر فإن للغزالي أثره في تنفير الناس من الفلسفة بعد أن كانت حائزة على إعجابهم ولا ينبغي أن ينكر له هذا الفضل.

(٢) الإحياء ١٩/١ .

(٣) روضة الطالبين ٥٨ (مجموعة القصور العوالي) .

والنفس الكلية[1] واللوح المحفوظ الذي يريد به نفوس الملائكة[2].

فلهذا يذكر ابن تيمية رحمه الله بأن الغزالي يطلق في الإحياء وغيره من الكتب المضنون بها على غير أهلها ألفاظ الملك والملكوت والجبروت ومقصوده الجسم والعقل الذي أثبتته الفلاسفة ، ويذكر اللوح المحفوظ ، ومراده به النفس الفلكية . وهو إنما أخذها عن الفلاسفة كابن سينا وغيره ممن سمعوا كلام الأنبياء وأرادوا الجمع بينه وبين أقوالهم ، فصاروا يأخذون ألفاظ الأنبياء فيضعونها على معانيهم ، ويسمون تلك المعاني بتلك الألفاظ المنقولة عن الأنبياء .

ثم يتكلمون ويصفون الكتب بتلك الألفاظ المأخوذة عن الأنبياء ، فيظن من لم يعرف مراد الأنبياء ومرادهم أنهم عنوا بها ما عنته الأنبياء ، وضل بذلك طوائف[3].

وكذلك يعول الغزالي على تقسيمات ابن سينا للنفس الإنسانية، حيث يقسمها الغزالي إلى ثلاثة أقسام : النفس النباتية ، والنفس الحيوانية ، والنفس الإنسانية[4].

وحتى في تعريفه للنفس النباتية فإنه لا يكاد يختلف مع ابن سينا في شيء إذ يقول بأنها : « الكمال الأول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يتغذى وينمو ويولد المثل »[5].

وبالمقارنة بين ما قاله الغزالي وبين ما قاله ابن سيناء وأرسطونجد أنه

(١) معراج السالكين ١١٩. الرسالة اللدنية ١١٣ (القصور العوالي) والمعارف العقلية ٤٧ .

(٢) مشكاة الأنوار ٣١ ، ميزان العمل ٣٣ .

(٣) أنظر النبوات لابن تيمية ١٦٨ ـ ١٦٩ ط. دار الفكر - بيروت .

(٤) معارج القدس ١٩ ط. دار الآفاق الجديدة .

(٥) معارج القدس ١٩ ـ ٢١ ، معراج السالكين ١١٧ . (القصور العوالي) .

لا اختلاف بين قول الغزالي وأقوال هذين الآخرين إلا بالعبارة[١]. بل إن الفارق بين عبارة أرسطو وبين عبارة الغزالي في ذلك معدوم .

وقد أشار الدكتور عبد الكريم عثمان - في دراساته النفسية - إلى أوجه التشابه والتماثل بين كلام الغزالي في النفس وكلام الفلاسفة[٢] ، فظهرت بهذه الدراسات مطابقة آراء الغزالي للفلاسفة ، وبينت مصادر فلسفية في كلامه لم يشر إليها الأمر الذي أعاد إحسان الظن عند العامة بهذا الكلام من غير أن يعرفوا أنه كلام فلسفي المصدر والجوهر ، صوفي القالب والمظهر .

وكذلك فإن اعتماد الغزالي على عاملي «الشهوة والغضب» ، واستعماله لمصطلح «الطباع السبعية» أو «البهيمية» في تحليل النفس وتقسيمها ، هو منهج فلسفي ذو اصطلاحات فلسفية بحتة[٣].

ويورد الغزالي أيضاً مصطلح : « النفس الناطقة معرّفاً إياها بأنها الجوهر الحي الفعال المدرك[٤] - برهان الاستمرار - : وكذلك فإنا لا نكاد نلمس أي فرق بين كلام الغزالي وبين كلام ابن سينا فيما يتعلق بمغايرة النفس للبدن بالنسبة إلى ثباتها وعدم تعرضها للتغير والتبدّل بخلاف البدن . يقول الغزالي : « فإنك تعلم أن نفسك مذ كنت لم تتبدل ، ومعلوم أن البدن وصفات البدن كلها تتبدّل .. فإذن ، نفسك ليست من البدن وصفاته في شيء »[٥].

وقد قال ابن سينا بهذا البرهان قبل الغزالي : «.. فأنت إذن

(١) أرسطو : للدكتور مصطفى غالب ٨٣ ، وأنظر النجاة لابن سينا ٢٨٢ .
(٢) الدراسات النفسية عند المسلمين ، والغزالي بوجه خاص ٤٧ - ١١٢ ط مكتبة وهبة - القاهرة .
(٣) أنظر الإحياء ٣/١٠ - ١١ ، وميزان العمل ٧٩ - ٧٨ . هذا ولا يكاد يخلو كتاب من كتبه من استخدام مصطلح الشهوة والغضب .
(٤) الرسالة اللدنيّة ١٠٢ .
(٥) معارج القدس ٣٣ ، وأنظر أرسطو وكتاب النفس ٩٣ (ضمن ترجمة أرسطو) .

ثابت مستمر ولا شك في ذلك ، وبدنك وأجزاؤه ليس ثابتاً مستمراً .. فذاتك مغايرة لهذا البدن وأجزائه الظاهرة والباطنة »[١].

وكذلك فإن الغزالي يقترب في موضوع الإدراك عامة - والإدراك الحسي خاصة - من الفلاسفة في كثير من الأمور .. فإنه يقول بنظرية القوى المدركة ويصنفها على نحو مشابه لتصنيف ابن سينا لها ، وتعريف الإدراك عند الغزالي هو نفس التعريف الذي اصطلح عليه الفلاسفة فهو عنده : تصور النفس الناطقة حقائق الأشياء وصورها المجردة عن المواد بأعيانها وكيفياتها ، وجواهر ذواتها[٢].

ويعتمد في هذا التعريف على تحديد أرسطو للإدراك بأنه قبول الصور كما يقبل الشمع طابع الخاتم لا من حيث معدنه بل من حيث أنه صفة معينة ومن حيث صورتها[٣].

الآثار الفلسفية في كتابه « مشكاة الأنوار »

أما كتاب «مشكاة الأنوار» للغزالي، فقد حكى الكثير من العلماء بأنه يتميز عن سائر مصنفاته الأخرى بأنه موضوع على قواعد المتفلسفة. إذ فيه الكثير مما يوافق به كلامهم. وقد ذكر ابن تيمية أن ابن رشد يمتدح كلام الغزالي في هذا الكتاب[٤].

(١) رسالة في القوى النفسانية - نقلاً عن الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالي بوجه خاص ٧٦ . وانظر مذاهب فلاسفة المشرق ١٨٦ للدكتور محمد عاطف العراقي .
(٢) معارج القدس ٦١ .
(٣) النفس الناطقة عند أرسطو (ضمن ترجمة أرسطو للدكتور مصطفى غالب ١٢١) . وانظر الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالي بوجه خاص ٢٧٧ - ٢٧٨ ، والافلاطونية المحدثة عند العرب ٥٦ للدكتور بدوي .
(٤) درء تعارض العقل والنقل ١٠/٢٨٢ - ٢٨٣ تحقيق د. محمد رشاد سالم .

وحق لابن رشد أن يمتدح مشكاة الأنوار وأن يسعد لما يرى فيه من الآثار الفلسفية البادية على من يدعي أنه من ألد أعدائها وأشد خصومها.

وكذلك فإن الغزالي قد استخدم الآية الكريمة: ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره **كمشكاة فيها مصباح**﴾ الآية.. لتقرير أن العقل على أربع مراتب. كما استعمل غيرها من الآيات والأحاديث النبوية في محاولة منه للتوفيق بينها وبين نظرية الفيض الإسكندرانية.

ومما أُخذ على الغزالي أنه ذكر في «مشكاة الأنوار» مراتب العارفين بالله فقال: «إن سائرهم محجوبون إلا الذين اعتقدوا أن الله سبحانه غير محرك السماء الأولى، وهو الذي صدر عنه هذا المحرك[1].

قال ابن رشد: «وهذا تصريح منه باعتقاد مذهب الحكماء في العلوم الإلٓهية»[2].

وفي المشكاة غرائب وعجائب من الثناء على بعض من اشتهروا بالحلول والتمثل بأقوالهم ووصف أحوالهم - وما آلت اليه من هذه التصريحات الكفرية - بأنها نهاية الواصلين كقول القائل منهم: سبحاني ما أعظم شاني، وما في الجبة إلا الله، وأنا الحق وهل في الدارين غيري ثم قال الغزالي: «وكلام العشاق يُطوى ولا يُحكى»[3].

ويقول ابن تيمية: «... وأما التي يسميها علوم المكاشفة ويرمز إليها في الإحياء، ففيها يستمد من كلام المتفلسفة، وغيرهم كما في

(1) وهذه الجملة قد نقلت من المشكاة بالمعنى لا باللفظ وإلا فإني لم أجد هذا النص صريحاً لكنني وجدت ما يشبهه. أنظر المشكاة ٤٨ (القصور العوالي).
(2) مناهج الأدلة ٨٩، ودرء تعارض العقل والنقل ٦/٢٢٣.
(3) مشكاة الأنوار ١٩ (القصور العوالي).

«مشكاة الأنوار»، والمضنون به على غير أهله، وغير ذلك بسبب خلطه التصوف بالفلسفة كما خلط الأصول بالفلسفة»[1].

والغزالي يلبس الأمر على الناس باستعماله لفظ «الملائكة المحركين للسموات»[2] إذ الملائكة عند الفلاسفة معناها «الكواكب» المحركة للسموات والتي تستمد منها العلوم. وقد قال في المشكاة:

«إن كان في عالم الملكوت جواهر نورانية شريفة عالية يُعبر عنها بالملائكة، منها تفيض الأنوار على الأرواح البشرية ولأجلها قد تسمى «أرباباً»! فيكون الله رب الأرباب لذلك، ويكون لها مراتب في نورانيتها متفاوتة. فبالحري أن يكون مثالها من عالم الشهادة الشمس والقمر والكواكب.. الخ..»[3]. وهذا تصريح منه بنظرية المثل الأفلاطونية القائلة بأنه ما من شيء في عالم الملك والشهادة إلا وهو مثال الأمر روحاني من عالم الملكوت[4]. وعوداً على استخدام الغزالي للآية ﴿الله نور **السموات والأرض**﴾ وتصنيفه المشكاة من أجل تأييد النظرية الفلسفية القائلة بتقسيم العقل إلى أربع مراتب بشيء من الآيات والأحاديث بغية تقريبها بهدوء إلى أذهان الناس.

فإن الغزالي قد اتُهم بنقله معظم نظرياته التي في الكتاب عن التساع الرابع لأفلوطين وبالتحديد من الفصل الخامس منه.

يقول د. عبد الرحمن بدوي بأن الغزالي قد تأثر بأفلوطين في نظرية النور التي عرضها في «مشكاة الأنوار» خصوصاً في الفصل الأول منها، وهو «في بيان أن النور الحق هو الله تعالى، وان اسم النور لغيره مجاز

(1) شرح العقيدة الأصفهانية ١٣٥.
(2) إحياء ٤/٩٨.
(3) مشكاة الأنوار ٢٨
(4) ولقد صرح الغزالي بهذه العبارة في جواهر القرآن ٢٨.

محض لاحقيقة»(١). . ثم أضاف بأن من ذهب مثله إلى هذا الرأي من بعض الباحثين أمثال فنسنك في مقال له بيّن فيه أن هذا الفصل ليس إلا عرضاً فضفاضاً [FARAPHRASE] للفصل الخامس من التساع الرابع من « تساعات » أفلوطين (جـ ٤ ص ١٥٤ - ١٦٧) من نشرة وترجمة بريه باريس سنة ١٩٢٧.

وأضاف فنسنك : «إنه لا بد أن يكون الغزالي قد قرأ ترجمة هذا الفصل الخامس من التساع الرابع ومنه استمد كلامه في الفصل الأول من «مشكاة الأنوار» ا. هـ.

وقد تعقب البدوي هذه الترجمة وأثبت وجود مخطوطتها الكتابية رقم (٥٣٩ في مكتبة بودلي بـاكسفورد) ثم قال: وبهذا ثبت بالدليل القاطع ان الفصل الخامس من التساع الرابع لأفلوطين قد ترجم ملخصاً إلى العربية وشطر كبير منه مترجم حرفياً كما في أصل أفلوطين. .(٢).

ومع أن الغزالي يتهجم على طريقة القياس التي ينتهجها الفلاسفة - كما ذكر ذلك في التهافت - إلاّ أنه يكتب كتاباً خاصاً عن القياس وهو كتاب «معيار العلم» معتبراً القياس بأنه الطريق الصحيح للاستدلال(٣).

ولذلك قال الباحث فنسنك : «إذا نظرنا إلى الغزالي كمتكلم وجدناه مسلماً ، وإذا إعتبرناه كمفكر ظهر لنا أفلاطونياً محدثاً ، وإذا بحثنا عنه كصوفي ألفيناه مسيحياً »(٤).

هذا مع اتهام الكثيرين له بأنه كان مجرد ناقل عمن سبقه وأنه اتبع

---

(١) مشكاة الأنوار ص ٥ (القصور العوالي) .
(٢) أشار فنسنك إلى هذا الرأي في كتابه ص ١٤ : LA PENSEE D'AL - GHAZZALI
نقلاً عن فصل : الغزالي ومصادره اليونانية ١٩٨ - ١٩٩ للدكتور بدوي .
(٣) أنظر معيار العلم ١١٤ - ١١٥ ط دار الأندلس .
(٤) نفس كتاب فنسنك الذي ذكرناه آنفاً .

آراء أفلاطون في آرائه وعرضها دون ذكر مواضعها(١).

وكذلك فإنه مما يؤخذ على الغزالي قوله : «بأن العلم منقوش في النفس الفلكية ثم تسميته ذلك « باللوح المحفوظ » وهو تبع في ذلك لابن سينا(٢) وكذلك لفظ الملكوت والجبروت وعالم الشهادة .

ويتابع ابن تيمية هذه المسألة بقوله : « وقد بيّنا أن اللوح المحفوظ الذي ذكره الله ورسوله ليس هو النفس الفلكية . وابن سينا ومن تبعه أخذوا أسماء جاء بها الشرع فوضعوا لها مسميات مخالفةً لمسمّيات صاحب الشرع ، ثم صاروا يتكلمون بتلك الأسماء فيظن الجاهل أنهم يقصدون بها ما قصده صاحب الشرع .

وهؤلاء أخذوا مخّ الفلسفة وكسوه لحاء الشريعة(٣).

ولذلك فقد وصف ابن تيمية الغزالي بأنه يمزج الأقوال النبوية بالأقوال الفلسفية ويتأولها عليها(٤).

القسطاس المستقيم والموازين الفلسفية

ولو أننا وقفنا عند هذا الوصف من ابن تيمية وبحثنا عما يؤيده من كتب الغزالي لوجدنا من ذلك الشيء الكثير .

فقد صنف كتابه المسمى بـ « القسطاس المستقيم » وأراد به استخراج أصول الأقيسة المنطقية الخمسة من القرآن جاعلاً من آياته دليلاً على

---

(١) الدراسات النفسانية عند المسلمين والغزالي بوجه خاص ٣٧٣ .
(٢) مشكاة الأنوار ٣١ ، وانظر كلام ابن تيمية في ذلك (فتاوى ٤٠٢/١٠) .
(٣) فتاوى ابن تيمية ٤٠٢/١٠ .
(٤) دره تعارض العقل والنقل ١٣١/١ - ١٣٢ .

صحتها ، ليستطيع القول بعد ذلك بأنه تعلم هذه الموازين الخمسة من القرآن ، ثم وزن بها جميع المعارف الإلهية فوجدها جميعاً موافقة لما في القرآن ، وقد اضطر لأجل ذلك إلى تغيير أسمائها الفلسفية حتى لا تكون مرفوضة لدى الناس وهذه الأصول هي :

القياس الحملي : وسماه الغزالي بـ « ميزان التعادل » وجعله الميزان الأكبر .

ـ وقد سمى الشكل الثاني بـ « الميزان الأوسط » .

ـ واما الثالث فسماه بـ «الميزان الأصغر» .

ـ والرابع وهو (القياس الشرطي المتصل) سماه بـ «ميزان التلازم» .

ـ والخامس وهو (القياس الشرطي المنفصل) وسماه بـ « ميزان التعاند »[1].

وهو لم يأت على تغيير أو تبديل شيء من مضمونها المنطقي وإنما غيّر الأسماء فقط والسؤال يطرح نفسه : كيف يزعم بأن علوم المنطق والفلسفة في الإلهيات كلها تخمينات وتخييلات لا يجوز الأخذ بشيء منها مع أنه يضع أصولها ومبادئها ضمن قوالب إسلامية؟ وكيف يجوز له القول حينما سئل عن هذه الموازين : هذه الأسامي أنت ابتدعتها؟ وهذه الموازين أنت انفردت باستخراجها أم سُبقت إليها؟.

أجاب: أما هذه الأسامي فإني ابتدعتها ، وأما الموازين فأنا استخرجتها من القرآن ، وما عندي أني سُبقت إلى استخراجها من القرآن » . ولذلك استشهد بقوله تعالى : ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط** ﴾ [الحديد ٢٥] وقوله : ﴿ **وزنوا بالقسطاس المستقيم** ﴾ [الشعراء ١٨٠] .

(١) القسطاس المستقيم ٤٢ (مجموعة القصور العوالي) .

لكنه غالط نفسه بأن أضاف إلى كلامه الأول قوله : « ولها عند مستخرجيها من المتأخرين أسماء أخر سوى ما ذكرته وعند الأمم السابقة على بعثة محمد وعيسى صلى الله عليهما وسلم أسامي أخر كانوا قد تعلموها من صحف إبراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام »[1].

وهذا دال على أنه غيّر الأسماء المنطقية بأسماء أكثر اعتماداً عند الناس بهدف تقريبها منهم ، وهذا مطابق لقول ابن تيمية عن الغزالي وابن سينا وغيرهما من الفلاسفة بأنهم أخذوا مخ الفلسفة وكسوه لحاء الشريعة .

وثمة أمر خطير وهو أن كلامه يفيد أن ملة إبراهيم عليه السلام هي أصل الفلسفة الوثنية اليونانية حيث يقول بحجة مشهورة قال بها فيلون اليهودي والقديس أوغسطين من قبل وهي : أن الفلسفة اليونانية مأخوذة من صحف إبراهيم وموسى ، تعلمها حكماء اليونان من صحف إبراهيم وموسى وأعطوها أسماء أخرى ، ويقول في ذلك البدوي :

«ولأول مرة نجد لدى مفكر مسلم هذا الرأي الذي كان يُظن أنه لم يقل به إلا فيلون اليهودي ثم القديس أوغسطين »[2].

ومع أن هذه الموازين الخمسة قد يبدو فيها المنطق الجدلي واضحاً ومتجلياً بحيث يستبعد أن يستعمل الأنبياء أسلوباً معقداً كهذا في دعوتهم ، إلا أن الغزالي يؤكد بأنها تعليم الأنبياء . وهذا ما حدا بالمحقق جميل صليبا أن يقر بأن هذه الموازين لا تختلف عن المنطق اليوناني إلا بالعبارة[3].

والغزالي لا يرى بأن بعض علوم الفلسفة مأخوذة بطريق الأنبياء

(١) القسطاس المستقيم ٤١ ـ ٤٢ .

(٢) الغزالي ومصادره اليونانية ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .

(٣) مقالة لجميل صليبا في مجلة العربي (العدد ١٣) ، ومقدمته لكتاب جواهر القرآن ٣٥ بعنوان ـ فلسفة الغزالي .

فحسب ؛ بل إنه يرى أيضاً أن كلامهم في الأخلاقيات مأخوذ من كلام الصوفية القدماء ، ولذا فإنه يمكن اعطاء فكرة واضحة بذلك عن سبب تقدير الغزالي للفلسفة واضطرابه بين الأخذ منها وبين تركها ، ثم اعتماده بعد ذلك عليها في الاحياء وميزان العمل ومشكاة الأنوار ومعارج القدس ومعراج السالكين وغيرها من تصانيفه .

وحينما أتى على ذكر علوم الفلاسفة الخلقية قال بأن:

«كلامهم في الأخلاقيات يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها وذكر أجناسها وأنواعها ، وكيفية معالجتها ومجاهدتها ، وإنما أخذوها من كلام الصوفية[1] . وهم المتألهون المثابرون على ذكر الله تعالى وعلى مخالفة الهوى وسلوك الطريق إلى الله تعالى بالإعراض عن ملاذ الدنيا . وقد انكشف لهم في مجاهداتهم من أخلاق النفس وعيوبها وآفات أعمالها ما صرحوا بها . فأخذها الفلاسفة ومزجوها بكلامهم ، توسلاً بالتجمل إلى ترويج باطلهم ، ولقد كان في عصرهم - بل في كل عصر - جماعة من المتألهين ، لا يُخلي الله سبحانه العالم عنهم ، فإنهم أوتاد الأرض . وببركاتهم تنزل الرحمة إلى أهل الأرض كما ورد في الخبر حيث قال عليه السلام : « بهم تمطرون وبهم ترزقون » ومنهم كان أصحاب الكهف »[2] .

وهذا يوضح علة نقله عن الفلاسفة في الأخلاقيات نقل حاطب ليل ، إذ كان يرى بأن جميع كلامهم في هذا الجانب مأخوذ عن الصوفية ، في حين يرى أيضاً بأن بعض علومهم مأخوذ من تعليم الأنبياء - ومنها

---

(١) قال محمد محمد جابر (محقق المنقذ) : « ولم لا يكون التصوف والمتصوفة قد قلدوا الفلاسفة الأقدمين. فإن المذاهب والثقافات لا تزال من بدء الخليقة يأخذ بعضها من بعض فالتصوف من نوع الفلسفة والفلسفة نوع منه » .

(٢) المنقذ من الضلال ٢٩ .

الموازين الخمسة - ولهذا لم ينج الغزالي من محاكاة الفلاسفة وتقليدهم في الأخلاقيات ويكفي أن يطلع المرء على تقسيمه للفضائل وطرائق كسبها وتنويع الرذائل ووسائل الخلاص منها ليرى بأم عينه مبلغ محاكاته للذين كتبوا عن الأخلاق منهم .

ولقد أشار الكثيرون ممن كتبوا عن الغزالي - بين مؤيد ومعارض - بأنه كان مقلداً لمسكويه صاحب كتاب - تهذيب الأخلاق - والذي كان ينقل نقلاً مباشراً وصريحاً عن اليونان . وأنه عرف أفلاطون وأرسطو عن طريقه[1] وأن لمسكويه (هذا) الأثر الكبير في تكوين الغزالي من الوجهة العقلية .

وأشاروا في نفس الأمر إلى أنه كان مقلداً لابن سينا ، وقد ذكرنا من قبل أنه كان عكوفاً على كتابه « الشفا » مما جعل الناس يقولون : أمرضه الشفا - أي شفاء ابن سينا - .

وكمثال على ذلك : يقول الغزالي : « وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال ، لأنهم كُلفوا أن يكلموا الناس بما يفهمون »[2].

ولا نجد الاختلاف بين الغزالي وابن سينا في كلاميهما إلّا بالعبارة ، إذ يقول ابن سينا : « إن الشرائع واردة لخطاب الجمهور بما يفهمون مقربة ما لا يفهمون إلى إفهامهم بالتشبيه والتمثيل ، ولو كان غير ذلك لما أغنت الشرائع البتة »[3].

وهذه الدعوى من أخطر ما بنى عليه الفلاسفة والقرامطة منهجهم في هدم الإسلام والاعراض عن القرآن والسنة ، والاستغناء عنهما بالفلسفة وتعاليم الأئمة المعصومين .

---

(١) الأخلاق عند الغزالي ٧٩ د. زكي مبارك . والدراسات النفسانية ٣٧٤ .

(٢) الإحياء ٤/٢٣ ، وانظر إلجام العوام عن علم الكلام ١٠٧ (مجموعة القصور العوالي) .

(٣) رسالة أضحوية في أمر المعاد ٣٩ - ٥٠ تحقيق سليمان دنيا .

«توبيخ النفس» في الإحياء مأخوذ عن «معاذلة النفس» لهرمس اليوناني

ويأخذ الغزالي عن هرمس اليوناني أسلوبه في توبيخ النفس وعتابها والطريقة الخطابية في ذلك ، وإذا أردت بيان ذلك فعليك بقراءة هذا الفصل من الإحياء : «باب توبيخ النفس ومعاتبتها» وهذا الفصل مطابق لكتاب «معاذلة النفس» الذي نشره د. عبد الرحمن بدوي مع رسائل أخرى ضمن كتاب «الأفلاطونية المحدثة عند العرب» والذي قال عنه بأنه كان ينسب إلى هرمس ، وأحياناً قليلة إلى أفلاطون[1].

يقول الغزالي في هذا الفصل على سبيل المثال :

«يا نفس ما أعظم جهلك ! لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك ومقتك له؟. . ويحك يا نفس! كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب وتظنين أنك إذا متِّ انفلتِّ وتخلصت! هيهات . . فإن كنت يا نفس قد عرفتِ جميع ذلك وآمنت به فما لك تسوِّفين العمل ، والموت لك بالمرصاد؟!. أما تتأملين مذ كم تعدين نفسك وتقولين : غداً غداً ؛ فقد جاء الغد وصار يوماً فكيف وجدته؟ أما علمت أن الغد الذي جاء وصار يوماً كان له حكم الأمس لا بل الذي تعجزين عنه اليوم فأنت غداً أعجز وأعجز ؛ لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التي تعبد العبد بقلعها. . . ويحك يا نفس أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ويأنس بها مع أن الموت من ورائه فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة وإنما يتزود من السم المهلك . وهو لا يدري . . أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك والقبر بيتك والتراب فراشك والدود أنيسك والفزع الأكبر بين يديك؟ أما علمت يا نفس أن عسكر الموتى عندك على باب البلد

(1) الأفلاطونية المحدثة عند العرب ٥٤ ـ ١١٦ ط وكالة المطبوعات ـ الكويت ـ.

ينتظرونك . . . » الخ .[1]. ومع ما في هذه العبارات من الأسلوب الجمالي المرقق فإن المصدر ليس إسلامياً وإنما هو يوناني المصدر، ولسنا نعيب على الغزالي استغلاله لهذه النصوص اليونانية اللطيفة لترقيق قلوب المسلمين وإنما نعيب عليه كثرة النقول عن اولئك القوم واعطائها الصبغة الإسلامية من غير إحالة منه على تلك المصادر.

ويقول هرمس :

«يا نفس! حتى متى! وإلى متى أنا سائق لك إلى طريق المنفعة والنجاة لي ولك ، فلا تنساقين . . . يا نفس إني لأتأمل حالك فيطول تعجبي منه ، وتُظهرين القول أنك زاهدة في الشقاء والأحزان . . . يا نفس كل مكروه أصابكِ وأنتِ في عالم الكون فيبقى أن سببه وأصله هو من قِبَلك ومن حيث خطؤك وزللك!.

يا نفس!. إنه ما من أحد يسكن في موضع إلا وهو يشتهي أن ينتقل منه إلى ما هو أشرف من الأول وأوسع وأبهى ، فما لك يا نفس تؤثرين أن تسكني في المساكن المظلمة الخربة الوحشية؟ وتتركين المساكن النيرة المضيئة الآنسة؟.

يا نفس إن كرهت العقاب فاتقي الزلل واحذريه وتجنبي الخطأ واطرحيه!.

يا نفس! ما أعظم حسرة الواقع في المكروه بعلم وبصيرة وما أشد عذابه .

يا نفس! إن من عفَّ عن شهوات الدنيا عفت مصائب الدنيا عنه ، وخرج من الدنيا سليماً رابحاً ، وربحه قربه من الله . ومن أسرع إلى

(1) الإحياء ٤/٤١٦ ـ ٤٢٢ باب توبيخ النفس ومعاتبتها.

شهوات الدنيا أسرعت مصائب الدنيا إليه وخرج من الدنيا سقيماً خاسراً، وخسرانه بُعدُه من الله . . . الخ »(١).

قال البدوي بعد هذا العرض الذي يظهر مدى تقليد الغزالي وتقل عمن حكم بتكفيرهم :

« ولهذا نستطيع أن نقرر بكل اطمئنان أن الغزالي لم يهجر الفلسفة إلا ليتحول إلى فلسفة أخرى، لقد هجر فلسفة أرسطو وأتباعه اليونانيين والمسلمين، ليتحول إلى فلسفة أفلوطين - والأفلاطونية المحدثة بعامة - وظل لهذه الأخيرة مخلصاً حتى آخر عمره »(٢).

أما سبب نقده للفلاسفة - مع حرصه على الأخذ من معينها - فيقول الدكتور عبد الكريم عثمان في ذلك :

« وإننا لنتساءل بمناسبة حديثنا عن براهين الغزالي على روحانية النفس(٣) : لماذا ينتقد الغزالي آراء الفلاسفة وبراهينهم حول هذا الموضوع أو غيره، بينما يقول بهذه الآراء والبراهين في كتب أخرى؟ ».

يجيب على ذلك بقوله : « إننا ننظر إلى نقد الغزالي - في التهافت خاصة - على أنه أقاويل جدلية أراد فيها أن يظهر قوته أمام الفلاسفة - لا سيما وأنه كان مغرماً في أول حياته بعرض حججه والتباهي بها »(٤).

ووقفة ثانية في هذا الباب نقفها مع الغزالي، وفي هذه الوقفة مقارنة بينه وبين ابن سينا في تقسيمهما للناس إلى ثلاث طبقات وهي :

---

(١) الأفلاطونية المحدثة عند العرب ٥٣ - ١١٦ (وكالة المطبوعات - الكويت).
(٢) الغزالي ومصادره اليونانية ٢٠٥.
(٣) وهو مقلد بذلك لابن سينا والفارابي - وفيثاغورث - من قبلهم جميعاً، وهي مأخوذة عنه.
(٤) الدراسات النفسانية عند المسلمين والغزالي بوجه خاص ١٢٨ - ١٢٩.

١ - عوام : وهم أهل السلامة البله، وهم أهل الجنة.

٢ - خواص : وهم أهل الذكاء والبصيرة.

٣ - ويتولد بينهم طائفة هم أهل الجدل والشغب فيتبعون ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله(١).

وهو نفس ما ذهب إليه ابن سينا في تقسيم الناس إلى الطبقات الثلاث.

ولا مانع عند الغزالي أن يضفي على هذا التقسيم الأفلاطوني صبغة إسلامية فيجعل قوله تعالى : **﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾** [النحل ١٢٠]، دليلاً على هذا التقسيم.

فالخواص هم المدعوون بالحكمة، والعوام بالموعظة الحسنة وبالمجادلة التي هي أحسن لطائفة الشغب المجادلة.

« فإن الحكمة إن غذى بها أهل الموعظة أضرت بهم كما تضر بالطفل الرضيع التغذية بلحم الطير، وإن المجادلة إن استعملت مع أهل الحكمة اشمأزوا منها كما يشمئز طبع الرجل القوي من الارتضاع بلبن الآدمي، وان من استعمل الجدال مع أهل الجدال لا بالطريق الأحسن كما تعلم من القرآن كان كمن غذى البدوي بخبز البرّ وهو لم يألف إلا التمر، أو البلدي بالتمر وهو لم يألف إلاّ البر »(٢).

وأخيراً فإن الدكتور عبد الرحمن بدوي يذكر بأن الغزالي «إنما اعتمد في تأليفه لكتاب «تهافت الفلاسفة» على كتاب لفيلسوف يوناني أفلاطوني محدث هو «برقس» الأفلاطوني، وردِّ يحيى النحوي عليه. واسم الكتاب

---

(١) القسطاس المستقيم ٦٢.
(٢) نفس المصدر ١٢.

«حجج برقلس في قدم العالم» . «ولئن كان الغزالي لم يذكر اسم برقلس ولا اسم يحيى النحوي في كتابه «تهافت الفلاسفة» فإن هذا لا يدل على شيء ، لأن الغزالي لا يذكر مصادره ، وهو خصوصاً هنا يعنيه أن يخفي مصدره لأنه «يحيى النحوي» ويحيى النحوي «فيلسوف» . «على أنه يكفي المرء أن يقرأ كتاب يحيى النحوي في رده على برقلس في قوله بقدم العالم ليكتشف في الحال أن الغزالي ينقل خلاصة ما قاله يحيى النحوي في رده ، ولا يكاد يضيف شيئاً جوهرياً إليه ، إنما الخلاف في العبارات والاصطلاحات ، وطريقة صياغة الحِجَاج .

فالحجة الأولى التي يوردها الغزالي (ص ٢٣ من نشرة بويج بيروت سنة ١٩٣٧) وهي قول القائلين بقدم العالم : «إنه يستحيل صدور حادث من قديم مطلقاً» . هذه الحجة هي الحجة الثالثة من حجج برقلس ، وقد رد عليها يحيى النحوي بمثل ما أورده الغزالي باعتراضاته والتزاماته ، والردود على الاعتراضات والالزامات» .

«والحجة الثانية (ص ٥١ - ٥٢) من حجج القائلين بقدم الدهر ، وهي الخاصة باستحالة التقدم بالزمان - هي بعينها الحجة الخامسة من حجج برقلس ، وقد رد عليها النحوي . بما سيقوله الغزالي أيضاً .

والدليل الثالث عند الغزالي (ص ٦٦ - ٦٧) يناظر الحجة الثانية من حجج برقلس . . .» .

«وبالمثل يقال على الأدلة التي أوردها الغزالي للفلاسفة على أبدية العالم والزمان والحركة فلها كلها نظائرها في حجج برقلس ، خصوصاً السابعة والثامنة والتاسعة ، وما أورده يحيى النحوي من ردودٍ عليها» .

«ومن هذا نرى بوضوح أن الغزالي في «التهافت» إنما رد على آراء بعض الفلاسفة بآراء البعض الآخر . وبعبارة أدق ، نراه رد على المشائين ومن شايعهم مثل برقلس ، بكلام استعاره من فيلسوف تأثر بأفلاطون أكثر

مما تأثر أرسطو في الإلهيات . . ونعني به يحيى النحوي الذي كتب رده هذا سنة ٥٢٤ ميلادية كما يظهر من نص كلامه في المقالة ١٦ف ٤ (ص ٥٧٩ و١٤ من نشرة RAABE[1] .

---

(1) Joannes Philoponus : de Aeternit te mundi Contra Proclum. Edsitit: Hugo Rabe. Lipsiac , B. I Tenbner, 1899 (نقلاً عن ـ الغزالي ومصادره اليونانية ـ للدكتور بدوي ـ ضمن كتاب دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي ـ ص ١٩٠ ـ ١٩٣ ط وكالة المطبوعات ـ الكويت) .

الباب الرابع

عقيدة الغزالي بين
الأشعرية والفلسفة

ذكر المنام الذي رآه الإمام الساوي
وفيه ثناء النبي ﷺ على عقيدة الغزالي

وهذا منام من المنامات التي يحكونها في الغزالي والمراد به إقناع الناس بصحة عقيدته وصرف الناس عن أي اعتراض أو شك بها بإبراز هذا المنام كتزكية وشهادة نبوية على صحتها، ومنع أي كان من إبداء رأيه في عقيدة الغزالي.

قال ابن عساكر[١] رحمه الله تعالى في كتابه «التبيين»: «سمعت الشيخ الفقيه الإمام أبا القاسم سعد بن علي بن أبي القاسم أبي هريرة الأسفرايني الصوفي الشافعي بدمشق قال سمعت الشيخ الإمام الأوحد زين القراء جمال الحرم أبا الفتح عامر بن نحام بن عامر العربي الساوي بمكة حرسها الله يقول: دخلت المسجد الحرام يوم الأحد فيما بين الظهر والعصر

(١) هو أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر ولد سنة ٤٩٩ هـ في دمشق وتوفي بها سنة ٥٧١ هـ رحمه الله.

الرابع عشر من شوال سنة خمس وأربعين وخمسماية وكان بي نوع تكـ... ودوران رأس...»

والقصة طويلة بعض الشيء وتتخللها بعض التفاصيل التي لا ... لسردها ههنا فنتجاوز ذلك قليلاً: «..ومع هذا التفكر كنت أطرد النوم عن نفسي كيلا يأخذني فتفسد طهارتي فبينا أنا كذلك إذ طرأ عليَّ النعا... وغلبني فكأني بين اليقظة والمنام فرأيت عرصة واسعة فيها ناس كثيرون واقفين وفي يد كل واحد منهم كتاب مجلد قد تحلقوا كلهم على شخص... فسألت الناس عن حالهم وعمن في الحلقة قالوا هو رسول الله ﷺ وهؤلاء أصحاب المذاهب يريدون أن يقرأوا مذاهبهم واعتقادهم من كتبهم على رسول الله ﷺ ويصححوه عليه. قال: فبينا أنا كذلك أنظر إلى القوم إذ جاء واحد من أهل الحلقة وبيده كتاب قيل إن هذا الشافعي رضي الله عنه، فدخل في وسط الحلقة وسلم على رسول الله ﷺ. قال: فرأيت رسول الله ﷺ في جماله وكماله متلبساً بالثياب البيض المغسولة النظيفة من العمامة والقميص وسائر الثياب على زي أهل التصوف[1] فرد عليه الجواب ورحب به وقعد الشافعي بين يديه وقرأ من الكتاب مذهبه واعتقاده عليه. وبعد ذلك جاء شخص آخر قيل هو أبو حنيفة رضي الله عنه. وبيده كتاب فسلم وقعد بجانب الشافعي وقرأ من الكتاب مذهبه واعتقاده، ثم أتى بعده كل صاحب مذهب إلى أن لم يبق إلا القليل وكل من يقرأ يقعد بجنب الآخر فلما فرغوا إذا واحد من المبتدعة الملقبة بالرافضة قد جاء وفي يده كراريس غير مجلدة فيها ذكر عقائدهم الباطلة وهمّ أن يدخل الحلقة ويقرأها على رسول الله ﷺ فخرج واحد ممن كان مع رسول الله ﷺ إليه وزجره وأخذ الكراريس من يده ورماها إلى خارج الحلقة وطرده وأهانه. قال: فلما رأيت أن القوم قد فرغوا وما بقي أحد يقرأ عليه شيئاً تقدمت قليلاً وكان في يدي كتاب مجلد فناديت وقلت يا رسول الله هذا الكتاب معتقدي ومعتقد أهل السنة لو أذنت

(١) إذا قرأت هذه العبارة فعليك بالمبادرة إلى الشك بهذه الرواية الكاذ...

لي حتى أقرأه عليك فقال ﷺ: وايش ذاك؟ قلت يا رسول الله هو قواعد العقائد الذي صنفه الغزالي، فأذن لي في القراءة فقعدت وابتدأت»[1]. وقرأ عليه الكتاب.

وهذه القصة عجيبة متضمنة لبعض الغرائب مثل قوله بأن رسول الله ﷺ كان لابساً ثياباً على زي أهل التصوف. يريد بذلك الدعاية للصوفية وخرقتهم البالية فمتى كان الرسول ﷺ يتخذ من بعض أنواع الثياب شعاراً له؟ وهل اختص منها بنوع معين؟ نعوذ بالله ـ كما قيل ـ من فكر فلسفي وخيال صوفي!!!.

ثم متى كان رسول الله ﷺ يتلفظ بألفاظ العوام المتأخرة كقوله: «وايش ذاك»؟!!!.

أما قوله ـ أي صاحب المنام ـ لرسول الله ﷺ: هذا الكتاب معتقدي ومعتقد أهل السنة. فغير مسلم به إذ أن كتاب قواعد العقائد بني على المذهب الأشعري، وهو شرح لصفات المعاني السبعة وهي: الحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام.

والمذهب الأشعري بدوره هو مذهب كلامي يعتمد أسلوب علم الكلام في الإثبات والتنزيه ومن ذلك قول الغزالي في قواعد عقائده: «وأنه ليس بجوهر ولا تحله الجواهر، ولا بعرض ولا تحله الأعراض» وقوله: «يرى من غير حدقة وأجفان، ويسمع من غير أصمخة وآذان، كما يعلم بغير قلب ويبطش بغير جارحة ويخلق بغير آلة».. والمعنى وإن كان صحيحاً لكن الطريقة كلامية أودت بالمتكلمين إلى تعطيل الصفات ثم انتقل إلى ذكر صفة الكلام لله تعالى قائلاً. بأنه كلام قائم بذاته لا يشبه كلام الخلق فليس بصوت

(١) تبيين كذب المفتري ٢٩٧ ـ ٢٩٩، وطبقات السبكي ١١٦، وانظر فصل قواعد العقائد ضمن الإحياء ١/٨٩.

يحدث من انسلال هواء أو اصطكاك أجرام. وأن الأبرار يرون ذات الله تعالى في الآخرة من غير جوهر ولا عرض»[1]. فهذه الطريقة أشعرية كلامية، ومعلوم لدى العالم والجاهل أن علم الكلام علم مذموم ذمه السلف وأول من تبناه عمرو بن عبيد وواصل وحفص الفرد، وكان أبو حنيفة رحمه الله يلعن عمرو بن عبيد قائلاً بأنه «أول من أفشى علم الكلام وفتن الناس به»[2]. ولما سئل عما أحدثه الناس من الكلام في الأعراض والأجسام قال: «مقالات الفلاسفة، عليك بالأثر وطريقة السلف وإياك وكل محدثة، فإنها بدعة»[3].

أما الشافعي فقد نقل الغزالي من كلامه ما يدل على ذمه الشديد للكلام وذلك في الصفحة التي تلي فصل قواعد العقائد. كذا نقل عن مالك واحمد.

فالجوهر والعرض والجسم الحادث واصطكاك الأجرام كلها عبارات كلامية لم يرض بها أحد من هؤلاء الأئمة الأعلام فكيف يرضى بها نبيهم صلوات الله وسلامه عليه.

وكيف يسكت عن الجوهر والعرض وغير ذلك لا سيما وأنه لم ينقله إلى الناس إلا دعاة الكفر وأهل التعطيل والزندقة كبشر وجهم وعمرو بن عبيد وأبو دؤاد وغيرهم؟

وما أصدق ما قاله ابن عقيل رحمه الله: «أنا أقطع أن الصحابة ماتوا ولم يعرفوا الجوهر والعرض، فإن رضيت أن تكون مثلهم فكن؛ وإن رأيت أن طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبي بكر وعمر فبئس ما رأيت»[4].

الأمر الآخر وهو المهم: أن الغزالي ذم علم الكلام في كتابه المنقذ

---

(١) الإحياء ١/٨٩ـ ٩٣ .
(٢) صون المنطق والكلام للسيوطي - ٦٠ دار الكتب العلمية - بيروت .
(٣) صون المنطق ٣٢ .
(٤) تلبيس إبليس ٨٥ .

من الضلال[1] والمتكلمة وقال بأنه لم يكن من كلامهم إلا كلمات معقدة ظاهرة التناقض والفساد، وأنه لم يحصل له من كلامهم ما يمحو ظلمات الحيرة معترفاً بأن عمدة بحثهم وخوضهم «الجوهر والعرض وأحكامهما»[2]. ومن ثم أحال الناس - في كتابه إلجام العوام عن علم الكلام - على مذهب السلف قائلاً بالحرف الواحد: «إن الحق هو مذهب السلف وإن من خالفهم فهو مبتدع»[3].

ومعلوم «أن قواعد العقائد» الذي زعموا أنه قُرِئ على النبي ﷺ مشتمل على الجوهر والعرض. ومبني على طريقة أهل الكلام فكيف يعقل أن يقبله النبي ﷺ ويقرره. والغزالي معترف في عبارته الأخيرة بأنه تخلى عن طريقة أهل الكلام لأنها بدعة مخالفة لما كان عليه السلف؟!!!

ثم إن هذه المنامات التي يزعمون رؤيتها عن الغزالي قد كثرت. وأبو الحسن الشاذلي يزعم أيضاً بأنه:

رأى النبي ﷺ في النوم وقد باهى موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام بالإمام الغزالي وقال: أفي أمتكما حبر كهذا؟ فقالا: لا»[4].

وإني لأرى بأن القوم قد غلوا في الغزالي لسبب واحد وهو أنه قرر مذهبهم في التصوف وأقامه لهم على أنقاض المذاهب الأخرى التي كانت سائدةً في عصره.

فقد حارب الفلسفة والباطنية وذم المتكلمين ثم بنى على أنقاضهم صرح التصوف منادياً بالكشف والعلم اللّدنيّ والخلوات والتمدح بالأقطاب

---

(١) والمنقذ كتبه الغزالي بعد كتابته لفصل قواعد العقائد والاقتصاد في الاعتقاد اللذين ساير بهما الأشاعرة .
(٢) المنقذ من الضلال ١٥ - ١٦ .
(٣) إلجام العوام ٦٢ .
(٤) تعريف الأحياء بفضائل الإحياء (ملحق بكتاب الإحياء) ٩/٥ .

والابدال والنجباء، والتغزل بحكايات وكلام سادات ومشايخ المتصوفة أمثال الجنيد وسهل وأبي يزيد وابي سليمان وإبراهيم بن أدهم وغيرهم.

والصوفية مشتهرون بكثرة الرؤى والأحلام والخيالات والمشاهدات الفاسدة ولو رمنا تطبيق كل ما تأمر به أحلامهم لفسدت من جراء ذلك السموات والأرض .

وأما قول أبي الحسن الشاذلي ما رآه في منامه من أن النبي ﷺ قال لموسى : « هل عندكم صبر في أمتكم كهذا » ، فهو كلام باطل ، وهو من كذب المتصوفة .

وهذا الإدعاء لم يكن مخصوصاً بالغزالي وحده وإنما ذكروا مثل ذلك لأحد مشايخ الصوفية وهو أبو الوفا .

قال صاحب قلادة الجواهر : « قال الشيخ أحمد الرفاعي : . . . » وأما السيد أبو الوفا قدس الله سره فإنه كان له جاه عظيم ولا يحى مثله . وغداً يأخذ النبي ﷺ بيده ويباهي به الأنبياء ويقول لهم : هل في أممكم مثل هذا »[1] .

(1) قلادة الجواهر في ذكر الرفاعي وأتباعه الأكابر ١٩٨ .

الفصل الثاني

الغزالي بين تبني المذهب الأشعري ورده

على أن الغزالي وإن بدا في قواعد العقائد أشعرياً إلا أنه قد سارع إلى نقض طريقة الأشاعرة في الاستدلال على قدم الخالق وأزليته بقاعدة: ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، والاستدلال بالجوهر والعرض على حدوث المحدثات ـ في حين أن كلامه في قواعد العقائد وما يليه من فصول الإعتقاد ودرجاته في الاحياء مبني على هذه الطريقة. التي زعموا أن رسول الله ﷺ أقرها.

وقد أبدى هذا النقض في كتابه «فيصل التفرقة» حين وقعت بينه وبين الأشاعرة بعض الاختلافات فقد بعث إليه أحدهم رسالة يشكو له فيها ما يسمعه من بعضهم من التعرض له والطعن في بعض كتبه التي خالف بها مذهب الأشعري فأجاب قائلاً:

«وبعد. . . فإني رأيتك أيها الأخ المشفق، والصديق المتعصب، موغر الصدر، منقسم الفكر، لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحسدة،

على بعض كتبنا المصنفة في أسرار معاملات الدين، وزعمهم أن فيها ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين، والمشايخ المتكلمين، وأن العدول عن مذهب الأشعري - ولو في قيد شبر - كفر».

ثم بين إسراف بعض طوائف المتكلمين وغلوهم في التعصب للكلام وتكفير من لا يعرف الأدلة الشرعية بأدلتهم التي حرروها منكراً عليهم بذلك، مشيراً إلى أن الإسلام بريء من هذا التكلف وأن معرفة الإسلام في عهد النبي ﷺ لم تكن لتتطلب هذه التقسيمات الجدلية والطرق الكلامية: «فقد جاء أعرابي إلى النبي ﷺ جاحداً به، منكراً فلما وقع بصره على طلعته البهية - زادها الله شرفاً وكرامة - فرآها تتلألأ منها أنوار النبوة قال: والله ما هذا بوجه كاذب وسأله عليه الصلاة والسلام أن يعرض عليه الإسلام فأسلم.

وجاء آخر إليه عليه الصلاة والسلام وقال: أنشدك الله، آلله بعثك نبياً؟

فقال عليه الصلاة والسلام: أي والله، بعثني نبياً، فصدقه بيمينه وأسلم».

ثم قال الغزالي:

«فليت شعري!! متى نقل عن رسول الله ﷺ، أو عن الصحابة رضي الله عنهم، إحضار أعرابي أسلم وقوله له: الدليل على أن العالم حادث: أنه لا يخلو عن الأعراض، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث!

وأن الله تعالى عالم بعلم وقادر بقدرة زائدة على الذات، لا هي هو، ولا هي غيره، إلى غير ذلك من رسوم المتكلمين»(1).

والغزالي ينسف بذلك استدلالاتهم في الجوهر والعرض التي هي أس

(1) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ١٢٧ و٢٠٢ - ٢٠٣ تحقيق د. سليمان دنيا.

مذهبهم وعمدته. مع أن مصنفاته مليئة بطرق استدلالاتهم هذه، مما يدل على أنه كان مسايراً للأشاعرة الذين كانوا هم المحيط الذي نشأ فيه(1)، وأنه كان غير مقتنع بطريقتهم فلما تعرضوا له واتهموه بمخالفتهم صرح لهم بما كان قد أخفاه عليهم ووافقهم فيه من قبل.

وهو، وإن كتب قواعد العقائد على طريقة الأشاعرة فإنه لم يكتبه إلا للعوام الذين يشملهم علماء الكلام عنده، وقد يذهب إلى مخالفة ما كتبه لهم إذا خاطب أهل المعرفة الذين تختلف درجتهم عن درجة العوام، لذا فإن الحقيقة عند الغزالي تختلف باختلاف درجات المخاطبين والآراء متنوعة بحسبهم وهي ثلاثة:

١ - رأي يشارك فيه الجمهور فيما هم عليه. (وهم العوام).

٢ - ورأي يكون بحسب ما يخاطب به كل سائل ومسترشد. (وهذا الرأي للمتكلمة وهم عوام عنده).

٣ - ورأي يكون بين الإنسان وبين نفسه لا يطلع عليه إلا من هو شريكه في اعتقاده. (وهذا الرأي مضنون به عن أصحاب الدرجتين الأوليين لا يطلع عليه إلا أرباب المعرفة).

وهذه الآراء موزعة على المراتب التي يقسمها الغزالي ويخاطب الناس بحسبها وهي ثلاث:

١ - إيمان العوام: وهو إيمان التقليد المحض.

٢ - إيمان المتكلمين: وهو ممزوج بنوع استدلال «ودرجته قريبة من درجة إيمان العوام»(2).

(1) ويرى الأستاذ سليمان دنيا أن الغزالي لم يصنف كتاب «الاقتصاد في الاعتقاد» إلا ليناصر الأشاعرة. (انظر الحقيقة في نظر الغزالي ٥٤).

(2) يقول الدكتور سليمان دنيا بأن: «معتقد المتكلم هو عين معتقد العامي - عند الغزالي - غاية الأمر أن المتكلم يعرف الأدلة دون العامي، وهذا يفيد أن القدر =

٣ ـ إيمان العارفين: وهو المشاهد بنور اليقين.

مراتب الحقيقة عنده

وهو يرى بأن الحقيقة التي تعطى للعارف مخالفة للحقيقة التي تعطى للعامي وبالعكس. يقول: «إن المعلم ينبغي أن يتنزل إلى مستوى من يعلم ويرشد، فلو صادفه مسترشد تركي أو هندي بليد الطبع ولم يطق فهمه أن يدرك «أن الله تعالى ليس في مكان وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا متصلاً بالعالم ولا منفصلاً عنه لم يلبث أن ينكر وجود الله تعالى ويكذب به فينبغي أن يقرِّر عنده أن الله تعالى على العرش وأنه يرضيه عبادة خلقه ويفرح بها فيثيبهم ويدخلهم الجنة عوضاً وجزاءً، وإن احتمل أن يذكر له ما هو الحق المبين يُكشف له؛ فالمذهب بهذا الاعتبار يتغير ويختلف ويكون مع كل واحد على حسب ما يحتمله فهمه»[1]. مع أنه قال في «الاقتصاد في الاعتقاد» ـ والذيساير به الأشاعرة المتكلمين ـ بأن القول بموجود لا متصلاً ولا منفصلاً محال.. وإن وجوده مع خلو الجهات الستّ عنه محال»[2]. ثم أتى بعد ذلك بما يناقض قوله هذا.

أما من حيث عدم مفارقة المتكلمين للعوام عنده ومساواته بينهما فإنه يقول: «ومعرفة أدلة هذه العقيدة قد أودعناها الرسالة القدسية في قدر عشرين ورقة، وهي أحد فصول كتاب «قواعد العقائد» من كتاب الإحياء، وأما أدلتها مع زيادة تحقيق.. فقد أودعناها في كتاب «الإقتصاد في الإعتقاد» في مقدار مائة ورقة، فهو كتاب مفرد برأسه يحوي لباب علم المتكلمين، ولكنه أبلغ في التحقيق، وأقرب إلى قرع أبواب المعرفة من

الذي حجبه الغزالي عن العامي من الحقيقة، حجبه أيضاً عن المتكلمين لأنه لا يرى بينهما فرق في هذه الناحية (الحقيقة في نظر الغزالي ٩٤).

(١) ميزان العمل ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٢) الاقتصاد في الاعتقاد ٥٠ ط. الجندي ـ القاهرة.

الكلام الرسمي الذي يُصادف في كتب المتكلمين، وكل ذلك يرجع إلى الإعتقاد لا المعرفة، فإن المتكلم لا يفارق العامي إلا في كونه عارفاً، وكون العامي معتقداً. بل هو أيضاً معتقد عرف مع اعتقاده أدلة الإعتقاد.. ولا تنحل عقيدة الاعتقاد إلى انشراح المعرفة. فإن أردت أن تستنشق شيئاً من روائح المعرفة صادفت منها مقداراً يسيراً مثبوتاً من كتاب «الصبر والشكر» وكتاب المحبة... وإن أردت صريح المعرفة بحقائق هذه العقيدة من غير مجمجة ولا «مراقبة»، فلا تصادفه إلا في بعض كتبنا المضنون بها على غير أهلها»[1].

وهو بذلك يصرح بأنه صنف كتباً في حقائق الإعتقاد مخالفة لكتب العقائد غير المضنون بها على عوام الناس إذ يقول:

«وهذه العلوم الأربعة ـ أعني علم الذات والصفات والأفعال وعلم المعاد أودعنا من أوائله ومجامعه القدر الذي رزقنا منه بعض التصانيف لكنا لم نظهره فإنه يكلّ عنه أكثر الأفهام ويستضربه الضعفاء ـ وهم أكثر المترسمين بالعلم ـ بل لا يصلح إظهاره إلا على من أتقن علم الظاهر وسلك في قمع الصفات المذمومة من النفس وطرق المجاهدة حتى ارتاضت نفسه واستقامت على سواء السبيل فلم يبق له حظ في الدنيا...» إلى أن قال: «وحرام على من يقع ذلك الكتاب بيده أن يظهره إلا على من استجمع هذه الصفات»[2].

إذن فالكتب المضنون بها على غير أهلها تتضمن عقائد ومبادىء في الصفات الإلهية مخالفة لكتبه المقيدة بالمذهب الأشعري كالإقتصاد في الإعتقاد والرسالة القدسية، لذا كان الغزالي يخاطب البليد بما لا يخاطب به الذكي البصير، فيُفهم الأول أن الله على عرشه كما قال ويُفهم الآخر أن الله

---

(١) الأربعين ٢١.

(٢) جواهر القرآن ٢٥.

ليس متصلاً بالعالم ولا منفصلاً عنه ولا داخل العالم ولا خارجه، إن قواعد العقائد والإقتصاد في الإعتقاد لم تكن تمثل حقيقة معتقد الغزالي وإنما أراد لها أن تمثل عقائد العوام.

فإذا سمعت الغزالي يقول في قواعد عقائده: «وأنه مستوٍ على العرش على الوجه الذي قاله وبالمعنى الذي أراده» فاقطع أن الغزالي يضن على الناس برأي خاص مخالف لهذا النص الذي ذكره. ولذلك كانت آراء الغزالي تنقسم في كل مسألة إلى اثنين:

١ - رأي ينشره بين الناس ويحثهم عليه، لكنه لا يعتقده هو في نفسه.

٢ - ورأي يضِنّ به عليهم ويستبقيه لنفسه وللبعض ممن نالوا درجات المعرفة وسلكوا علم الباطن.

فعلى الرأي الأول يقرر الغزالي مثلاً أن الله على عرشه كما قال وكما أخبر.

وعلى الرأي الثاني يقرر أن الله ليس داخل العالم ولا خارجه ولا متصلاً به ولا منفصلاً عنه.

وعلى الرأي الأول يقرر توحيد العوام وهو: «لا إله إلا هو».
وعلى الرأي الثاني يقرر توحيد الخواص وهو: «لا هو إلا هو».
ومعناه: ليس في الوجود إلا الله وأفعاله.

وعلى الرأي الأول يقرر للعوام فوائد التعلم ويحثهم عليه.
وعلى الرأي الثاني يذم العلم فيقرر للخواص أن الصوفية يميلون عن التعليمية إلى الإلهية والتزام الخلوات مما تحصل به المكاشفات والمشاهدات الربانية وتلقي العلوم اللدنية والفيوضات الربانية من غير كلفة ولا مشقة.

ولعل هذا سر المتناقضات التي حيرت المطالعين لكتب الغزالي

وجعلتهم يشنعون عليه مخالفته لما قرره وإقراره ما خالف به الآخرين.

حتى قال ابن طفيل بأنه: «يربط في موضوع ويحل في آخر - بحسب مخاطبته للجمهور ويكفِّر بأشياء ثم ينتحلها»[1].

وقول ابن رشد عنه بأنه «لم يلزم مذهباً من المذاهب في كتبه، بل هو مع الأشعري أشعري، ومع الصوفية صوفي ومع الفلاسفة فيلسوف»[2].

لكن ابن رشد عندي أعجب من الغزالي فإنه يحمل آراء هي غاية في التناقض والسخف، كقوله بأن تأويل العامة لآيات وأحاديث الصفات كفر، وأن إثبات أهل البرهان لها كفر صريح[3] فأحل لقوم الإثبات وحرم عليهم التأويل، وحرم على آخرين الإثبات وافترض عليهم التأويل!!! فكفَّر هؤلاء إن فعلوه، وكفَّر أولئك إن لم يفعلوه!.

ويقول الدكتور سليمان دنيا: - وهو الأكثر خبرة بالغزالي من غيره -:

«ونزولاً على مبدأ اعتبار الناس طبقات، نرى الغزالي يروج لكل فريق المستوى الذين يراه لائقاً به، ولذلك كان إذا تحدث مع علماء الكلام من أهل السنة[4] قال: الحمدلله الذي اجتبى من صفوة عباده عصابة الحق وأهل السنة وخصهم بين سائر الفرق بمزايا اللطف والمنة، وأفاض عليهم نور هدايته ما كشف به حقائق الدين، وأنطق ألسنتهم بحجته التي قمع بها ضلال الملحدين».

وإذا تكلم مع العامة قال:

---

(١) حي بن يقظان ١١٣ - ١١٤ تحقيق فاروق سعد ط دار الآفاق . بيروت .
(٢) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الإتصال ٥٢ تحقيق محمد عمارة .
(٣) نفس المصدر ٤٨ .
(٤) ليس الكلام من السنة في شيء وإنما هو مراء وجدل عابه أكابر أئمة أهل السنة كالشافعي وأحمد ومالك وأبو حنيفة وتبرؤ وامنه ورموا المنتسبين إليه بالبدعة حتى قال أحمد : علماء الكلام زنادقة .

«فتمس عقيدة أهل الصلاح والتقى من العوام بعقيدة المتكلمين المجادلين، فترى اعتقاد العامي في الثبات كالطود الشامخ لا تحركه الدّواهي والصواعق، وعقيدة المتكلم الحارس اعتقاده بتقسيمات الجدل، كخيط مرسل في الهواء تفيئه الرياح مرة هكذا، ومرة هكذا».

وإذا تكلم مع الفقهاء والأصوليين قال:

«وأشرف العلوم ما ازدوج فيه العقل والسمع، واصطحب فيه الرأي والشرع، وعلم الفقه وأصوله من هذا القبيل، فإنه يأخذ من صفو الشرع والعقل سواء السبيل، فلا هو تصرف بمحض العقول بحيث لا يتلقاه الشرع بالقبول ولا هو مبني على محض التقليد والذي لا يشهد له العقل بالتسديد والتأييد».

وإذا تكلم مع الصوفية بيّن أهمية ما يعانونه وعرّض بالفقهاء فقال:

«وأغمض أنواع علوم المعاملة: الوقوف على خدع النفس ومكايد الشيطان وذلك فرض عين على كل عبد، وقد أهمله الخلق، واشتغلوا بأمور تستجر إليهم الوساوس وتسلط عليهم الشيطان، وتنسيهم عداوته وطريق الإحتراز منه»...

وإذا تكلم مع المتصوفة فضلهم على علماء الكلام فقال:

«المرتبة الأولى: إيمان العوام وهو إيمان التقليد المحض.
المرتبة الثانية: إيمان المتكلمين. وهو ممزوج بنوع استدلال، ودرجته قريبة من درجة إيمان العوام.
المرتبة الثالثة: إيمان العارفين. وهو المشاهد بنور اليقين»(١).

ثم إنه أخذ من الفلسفة بحظ كبير. وقد اختص بهذه الفلسفة أناساً

(١) ومن ثم يسترسل الغزالي في مدح درجتهم وعلوها.

ذوي استعداد خاص. فإذا تكلم عن الفلسفة مع غير أربابها عابها وشنع عليها.

وهذا يفسر لنا السر في أن الغزالي عاب على علوم وهو مؤلف فيها(١).

ولذلك أقول: إن كتب الغزالي الموجهة للعوام لا يستفاد منها معرفة صريح آرائه ولا الوقوف على غاياته. وإنما كانت الكتب المضنونة أقرب إلى معرفة ذلك من الكتب الأولى، وإن كانت هذه الأخيرة مشتملة على العجائب والغرائب.

ولهذا كانت كتب «قواعد العقائد والإقتصاد في الإعتقاد» وغيرها من الكتب الأشعرية الإتجاه لا تمثل فكر الغزالي وإنما تمثل الفهم الذي يجب قصر العوام عليه.

وحملهم على اعتقاد لم يعتقده لنفسه أصلاً.

وإنما كان ما يعتقده في نفسه مخالفاً لما سطره في هذه الكتب المخصصة للعوام. ولما وضع في الإحياء من هذه الآراء المضنونة على هيئة إشارات ورموز بل وتصريحات في بعض الأحيان أقام بذلك الدنيا وأقعدها عليه وصار الناس يرمونه بتبني الأمور المخالفة للشرع، حتى إن منهم من أمر بإحراق هذا الكتاب. والعجيب، أن هذه التي يراها الناس مخالفات شرعية ـ ومنهم فقهاء وأرباب علم ـ هي عند الغزالي دقائق وإشارات وأسرار ورموز اعتاصت عليهم واعتورت لا لخطأ فيها، بل لقصورهم وعيّهم وكلهم في فهمها، وإنما كانت غاية في الصحة واسمع ما يقوله في الإملاء في إشكالات الإحياء:

(١) الحقيقة في نظر الغزالي ٩٤ ـ ٩٥.

«فاعلم أن ما رأيت في الإحياء صحيح، ولكن بقي في كشفه أمر لا يخفى على المستبصرين»[1]!

وأيضاً ما قاله في كتابه منهاج العابدين:

«وصنفنا في قطع هذه الطريق وسلوكها كتباً كإحياء علوم الدين والقربة إلى الله تعالى وغير ذلك، واحتوت على دقائق من العلوم واعتاصت على أفهام «العامة»[2]، فقدحوا فيها وخاضوا فيما لم يحسنوه منها، فأي كلام أفصح من كلام رب العالمين وقد قالوا فيه إنه أساطير الأولين! ألم تسمع إلى قول زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين:[3]

إنّي لأكْتُمُ مِنْ علمي جَواهِرَهُ
كَيْلا يَرَى ذاكَ ذو جهلٍ فيَفْتَتِنَا
وقد تقدَّم في هذا أبو حسنٍ
إلى الحُسَيْنِ وَوَصَّى قبله الحسنا
يا رُبَّ جوهرِ علمٍ لو أبُوحُ به[4]
لقيل أنت مِمَّن يَعبُدُ الوثنا
ولاستحلَّ رِجَالٌ مسلمون دمي
يَرون أقبحَ ما يأتونَه حسنا

---

(١) الإملاء ٥/٢٩ (ملحق بالإحياء).

(٢) لقد ترعم حملة الإنكار ثلة من أكابر العلماء كابن الجوزي والمازري والطرطوشي وابن الصلاح. وهؤلاء ليسوا بعامة بل فقهاء، لكن الفقه مدرج عند الغزالي تحت مرتبة العوام. والفقهاء من العامة ما تمسكوا بظواهر الشرع فإذا انسلخوا من ذلك ودخلوا في علم الباطن فهم أهل بصائر !!!!

(٣) منهاج العابدين ٣ ط الحلبي بمصر.

(٤) في الأصل «بحت».

الفصل الثالث

مقارنة بين الغزالي «الأشعري» والغزالي «الفيلسوف»

الغزالي مضطرب بين فكر أشعري وبين فكر فلسفي، فتارة يقرر مذهب الأشاعرة في الصفات وتارة يقرر الرأي الفلسفي الذي يعول في غالبه على ابن سينا.

- فالغزالي الأشعري يقول في صفات المعاني السبعة بأنها «ليست هي الذات، بل هي زائدة على الذات»[1].

أما الغزالي الفيلسوف فإنه يقرر في كتابه معارج القدس بأن: «صفات الله تعالى هي كلها اعتبارات وإضافات وسلوب، وليست زائدة على الذات ولا توجب كثرة في الذات»[2]. وقال:

«وإذا ثبت أن واجب الوجود ليس في ذاته كثرة بوجه من الوجوه، ولا

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد ١١٤.

(٢) معارج القدس ٦٩. (وانظر المعارف العقلية ٥٠ تحقيق عبد الكريم العثمان ط دار الفكر دمشق.

بد من وصف واجب الوجود بأوصاف، فلا بد أن نثبت الأوصاف على وجه لا يؤدي إلى الكثرة...». «ولا نثبت الصفات على وجه يكون عرضاً كاللون القائم بالمحل، وكعلمنا العارض على الذات؛ لأن هذا يؤدي إلى تقدم وتأخر وتكثر، بل نثبت الصفات على وجه الإضافة الى الأفعال أو على سبيل العلل والأسباب».

وهو لا يرى بأن الماهية زائدة على الوجود بل إن وجوده ماهيته، يقول:

«لا يكون وجوده غير ماهيته لأن الماهية غير الأنية»[1].

وهو بذلك يعول على ابن سينا الذي يقول:

«فواجب الوجود ليست إرادته مغايرة الذات لعلمه، ولا مغايرة المفهوم لعلمه؛ فقد بيّنا أن العلم الذي له، هو بعينه الارادة التي له...».

«ثم الصفات الأخرى يكون بعضها المتعين فيه هذا الوجود مع إضافة، وبعضها هذا الوجود مع السلب، وليس واحد منها موجباً في ذاته كثرة البتة»[2].

أما عن منافاة مغايرة الماهية للوجود فإنه يقول:

«إن وجوب الوجود للواجب هو ماهيته، فليس له ماهية ينضاف إليها الوجود»[3].

وقد أثبت الغزالي الأشعري «الميزان» الذي توزن به أفعال العباد على وجه الحقيقة لا المجاز، فقال من جملة ما قاله فيما يجب الايمان به:

«.. وأن يؤمن بالميزان ذي الكفتين واللسان وصفته في العِظم أنه

(1) نفس المصدر ١٦٤
(2) النجاة ـ أ. ٢٥٠ ـ ٢٥١ ط الحلبي. القاهرة.
(3) نفس المصدر ـ أ ٢٣٠ ـ ٢٣٢.

مثل طبقات السموات والأرض، توزن الأعمال بقدرة الله تعالى»[1].

وهو يقول في كتابه «الاقتصاد في الاعتقاد» الذي كتبه على طريقة الأشاعرة:

«فإن قيل: كيف توزن الأعمال وهي أعراض، وقد انعدمت، والمعدوم لا يوزن، وإن قدرت إعادتها وخلقها في جسم الميزان كان محالاً لاستحالة إعادة الأعراض؟

ثم كيف تخلق حركة يد الانسان وهي طاعته في جسم الميزان؟ إيتحرك بها الميزان فيكون ذلك حركة الميزان لا حركة يد الانسان، أم لا يتحرك فتكون الحركة قد فاتت بجسم ليس هو متحركاً بها وهو محال ثم إن تحرك فيتفاوت ميل الميزان بقدر طول الحركات وكثرتها لا بعدد مراتب الأجور فرب حركة من البدن يزيد إثمها على حركة جميع البدن فراسخ، فهذا محال؟؟

فأجاب الغزالي على ذلك بقوله:

«فنقول: قد سئل النبي ﷺ عن هذا فقال: توزن صحائف الأعمال، فإن الكرام الكاتبين يكتبون الأعمال في صحائف هي أجسام، فإذا وفي الميزان خلق الله تعالى في كفتها ميلاً بقدر رتبة الطاعات وهو على ما يشاء قدير»[2].

أما الغزالي الفيلسوف فإنه يؤول الميزان على أنه «ميزان روحي»، يقول: «وأشد الموازين روحانية ميزان يوم القيامة، إذ به توزن أعمال العباد وعقائدهم ومعارفهم. والمعرفة والإيمان لا تعلق لهما بالأجسام، ولذلك كان ميزانهما روحانياً صرفاً»[3].

(1) قواعد العقائد ٩٢/١ (ضمن الاحياء).
(2) الاقتصاد في الإعتقاد ١٨٢
(3) القسطاس المستقيم ١٩ ـ ٢٠

والغزالي «الأشعري» يحمل على المعتزلة إنكارهم عذاب القبر ويلخّص حجتهم في ذلك إذ يقولون: «إنا نرى شخص الميت مشاهدة وهو غير معذب، وإن الميت ربما تفترسه السباع وتأكله» فقال الغزالي: «وهذا هوس!».

قالها منكراً، وضرب لهم مثلاً وأراد به رد شبهتهم، لكن مثاله كان شبه تقرير لما يذهبون إليه، فإنه قال:

«أما مشاهدة الشخص فهو مشاهدة لظاهر الجسم، والمدرك للعقاب جزء من القلب أو من الباطن كيف كان.

وليس من ضرورة العذاب ظهور حركة في ظاهر البدن، بل الناظر إلى ظاهر النائم لا يشاهد ما يدركه النائم من **اللذة عند الاحتلام ومن الألم عند تخيل الضرب** وغيره، ولو انتبه النائم وأخبر عن مشاهداته وآلامه ولذاته - ومن لم يجر له عهد بالنوم - لبادر إلى الانكار اغتراراً بسكون ظاهر جسمه»[1].

فكأن الغزالي يقرر قول الفلاسفة ومن قال من المعتزلة بأن العذاب هو كناية عن آلام ولذائذ عقلية تحصل للميت، كحصول المنام والحلم عند النائم.

ومثاله لا يصح، لأن كل المخلوقات في السماء وفي الأرض يسمعون صيحة الميت عند تعذيبه إلا الثقلين - الانس والجن - وما دامت المخلوقات تسمع صياحه فإنه دليل على صحة التعذيب الجسماني، وإن كان الجن والانس لا يسمعونه فإن الله صرفهم عن ذلك والله على ما يشاء قدير، وقدرته لا تحدها قوانين أهل المنطق والجدل ولا تبطلها قياساتهم الفاسدة.

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد ١٨٠.

أما الغزالي الفيلسوف فإنه يقترب كثيراً من القائلين بالعذاب المعنوي الذي هو عبارة عن آلام نفسية، وسنورد جملته بطولها.

يقول الغزالي:

«أما قولك: إن المشهور من عذاب القبر التألم بالنيران والعقارب والحيات، فهذا صحيح. وهو كذلك. ولكني أراك عاجزاً عن فهمه ودرك سره وحقيقته إلا أني أنبهك على أنموذج منه تشويقاً لك إلى معرفة الحقائق.. فقد قال عليه الصلاة والسلام: «المؤمن في قبره، في روضة خضراء قد فُرّج له قبره سبعين ذراعاً، ويضيء وجهه حتى يكون كالقمر ليلة البدر، هل تدرون في ماذا أنزلت ﴿**فإن له معيشة ضنكا**﴾؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: عذاب الكافر في قبره، يسلط عليه تسعة وتسعون تنيناً، هل تدرون ما التنين؟ تسع وتسعون حية، لكل حية تسعة رؤوس ينهشونه ويلحسونه وينفخون في جسمه إلى يوم يبعثون»[1].

قال الغزالي: «فانظر إلى هذا الحديث، واعلم أن هذا **حق على الوجه الذي شاهده أرباب البصائر ببصيرة أوضح من البصر الظاهر**»[2].

والجاهل ينكره إذ يقول: إني أنظر في قبره فلا أرى ذلك أصلاً، فليعلم الجاهل أن هذا التنين ليس خارجاً عن ذات الميت، أعني ذات روحه لا ذات جسده، فإن الروح هي التي تتألم وتتنعم، بل كان معه قبل موته متمكناً من باطنه، لكنه لم يكن يحس بلدغه لخدرٍ كان فيه لغلبة الشهوات، فأحس بلدغه بعد الموت.

---

(١) حديث ضعيف. ذكره ابن كثير في تفسيره وقال: رفعه منكر جداً: ١٦٩/٣.

(٢) سنورد بعد قليل اعتراف الغزالي بمخالفته وخرقه بهذا القول الاجماع على عدم رؤية الانس للعذاب الحاصل في القبر. وفي الحقيقة هو مخالف لكلام رسول الله ﷺ في هذا الباب وسيأتيك بيانه.

وليتحقق أن هذا التنين مركب من صفاته وعدد رؤوسه بقدر عدد أخلاقه الذميمة، وشهواته لمتاع الدنيا.

وأصل هذا التنين: حب الدنيا.

وتتشعب عنه رؤوس بعدد ما يتشعب عن حب الدنيا من الحسد والحقد والرياء والكبر والثروة والمكر والخداع وحب الجاه والمال والعداوة والبغضاء، وأصل ذلك معلوم بالبصيرة. وكذلك كثرة رؤوسه اللذّاعة. أما انحصار عددها في تسعة وتسعين، إنما يوقف عليه بنور النبوة فقط(١). فهذا التنين متمكن في صميم فؤاد الكافر، لا بمجرد جهله بالكفر بل لما يدعو إليه الكفر...

وهذا التنين لو كان كما تظنه خارجاً من ذات الميت لكان أهون، إذ ربما يتصورْ أن ينحرف عنه التنين أو ينحرف هو عنه، لا بل هو متمكن من صميم فؤاده، تلدغه التنين لدغاً أعظم مما تفهمه من لدغ التنين، وهو بعينه صفاته التي كانت معه في حياته.

كما أن التنين التي تلدغ قلب العاشق إذا باع جاريته، هو بعينه العشق الذي كان مستكناً في قلبه استكنان النار في الحجر وهو غافل عنه. فقد انقلب ما كان سبب لذته سبب ألمه».

فصل

«فإن قلت: فهل يتمثل هذا التنين تمثلاً تشاهده مشاهدة تضاهي

(١) أي الكشف، إذ هو نور النبوة الذي يدعي المتصوفة رؤيته وتحصيله كما أشار إلى ذلك الغزالي في المنقذ حيث قال بأن حركاتهم وسكناتهم مقتبسة من نور النبوة ويدركون به الجائزات والمستحيلات ويبصرون به الغيب وماسيكون في المستقبل (٥١ - ٥٣) وسيأتي تفصيل ذلك.

إدراك البصر، أم هو تألم محض في ذاته كتألم العاشق إذا حيل بينه وبين معشوقه؟

فأقول: لا، بل يتمثل لك حتى تشاهده، ولكن تمثلاً روحانياً لا على وجه يدركه من هو بعدُ في عالم الشهادة إذا نظر في قبره فإن ذلك من عالم الملكوت».

«نعم، العاشق أيضاً قد ينام فيتمثل له حاله في المنام، فربما يرى حية تلدغ صميم فؤاده، لأنه بعُد بالنوم من عالم الشهادة قليلاً، فيتمثل له حقائق الأشياء تمثلاً محاكياً للحقيقة، منكمشاً له من عالم الملكوت».

«والموت أغلب في الكشف من النوم لأنه أقمع لنوازع الحس والخيال، وأبلغ في تجريد الروح عن غشاوة هذا العالم. فلذلك يكون ذلك التمثل تاماً متحققاً دائماً لا يزول. فإنه نوم لا ينتبه منه إلا إلى يوم القيامة»(١).

إذن، فالعذاب الحاصل للميت من التنين كان حاصلاً في حياته وإنما كانت غلبة الشهوات خدراً له من الاحساس بلدغاته، فلما مات أحس بها. وهذه اللدغات والألم الذي يعقبها إنما في روح الميت لا جسده، لذا كان العذاب أبلغ وأشد إيلاماً من حصوله في الجسد. وهذا ما دعا الغزالي إلى تمثيل تعذيب الميت بالنائم الذي يرى في نومه أحلاماً مؤلمة ولا تنال هذه الآلام من جسده شيئاً!.

وقد أحس الغزالي بمفارقته إجماع أهل العلم حين قال:

«واعلم أن هذا(٢) حق على الوجه الذي شاهده أرباب البصائر ببصيرة أوضح من البصر الظاهر» أي مشاهدة أهل المعرفة للطريقة التي يُعذب فيها الأموات فقال:

(١) الأربعين ٢١٢ - ٢١٥ .
(٢) أي الحديث الذي سبق ذكره .

فصل

«لعلك تقول: قد أبدعت قولاً مخالفاً للمشهور، منكراً عنـ الجمهور، إذ زعمت أن أنواع عذاب الآخرة يدرك بنور البصيرة والمشاهـ إدراكاً مجاوزاً حد تقليد[3] الشرائع»؟.

يجيب الغزالي على هذا الاستفهام الذي افترضه بقوله:

«فاعلم أن مخالفتي للجمهور لا أنكره، وكيف تنكر مخالفة المسا للجمهور، فإن الجمهور يستقرون في البلد الذي هو مسقط رؤوسهم ومحل ولادتهم، وهو المنزل الأول من منازل وجودهم، «**وإنما يسافر منهم الآحاد**»[1].

وسفر الآحاد هذا ليس بمدعاة إلى مفخرة وليس مما يُمدح به المرء، وإنما هو الشذوذ عن الجماعة الذي حذر منه نبينا ﷺ أيما تحذير ومنذراً كل شاذ عنهم بأنه شاذ في النار، وإذا كان المسافر براحلته نهي عن السفر وحده حيث أن الشيطان أقرب إليه من الاثنين، فما بالك بمسافر ضرب برجله الأرض وحده، وترك الجماعة وسافر وحده بعقائد وأفكار شذ بها عن جماعته، أفلا يكون الشيطان أقرب إليه!!

والغزالي لم يفارق بقوله هذا الجماعة وإنما خالف بذلك نبي الجماعة محمد ﷺ الذي أخبر بأن المعذب في قبره يصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين.

والغزالي من جملة هذين الثقلين.

---

(٣) هذا يصدق ما قلته سابقاً بأن الغزالي يرى اتباع الشرائع تقليداً وهو لا يحب التقيد بها . لأن رياح الألطاف تهب على قلبه فتفيض عليه علوماً ربانية هي أرفع مقاماً من تلك التي يتقيد بها العوام والمترسمون بالعلم من الفقهاء العميان عن درك حقائق الأمور وأسرارها .

(١) الأربعين ٢١٥ .

واعود إلى الوراء قليلاً ـ حيث المنام الذي ذكره الساوي وزعم فيه إقرار النبي ﷺ عقيدة الغزالي الممثلة في قواعد عقائده ـ أعود إلى هذه المسألة لأقول:

لقد ذكر الساوي بأنه رأى في نفس المنام أحد المبتدعة الرافضة وقد همّ بقراءة عقيدته فطرده واحد ممن كانوا مع رسول الله ﷺ قبل عرضها عليه. وهذا دال ـ حسب ما صورته الحكاية ـ بأن الذي طرده علم منه فساد ما همّ بعرضه فلماذا قبل كتاب قواعد العقائد وهو المصنف الذي كتبه للعوام وفيه ما فيه من البدع كالقول بالجوهر والعرض الذي تبناه أهل المنطق والجدل.

ولئن كان معلوماً ما تتضمنه كراريس الرافضي قبل عرضه، أفلا يكون من باب أولى معرفة أن الغزالي كتب قواعد للعوام وضنّ عليهم وعلى المتكلمين بكتب خالف فيها الكثير من قواعد العقائد.

لقد وقفت على الكثير والكثير جداً من المسائل في الصفات والالهيات عموماً وفي النفس والعقل ومراتبه وغير ذلك من الأمور التي حاكى بها الفلاسفة مخالفاً ما كتبه في الاقتصاد والرسالة القدسية وقواعد العقائد التي تمثل شخصيته الأشعرية ـ من جانب ـ لتكون هذه الكتب المضنون بها على غير أهلها ممثلة لشخصيته الفلسفية من جانب آخر[1].

ولعل السبب في هذا الأمر هو أن الغزالي كان يجد نفسه مؤهلاً لتقسيم كتبه إلى ثلاث درجات بحسب درجات المخاطبين فيكتب للعامة ما

---

(١) لقد قام الدكتور سليمان دنيا بجمع شامل لهذه المسائل التي قلد الغزالي بها الفلاسفة وعلى وجه الخصوص ابن سينا مع دعواه الخروج عن التقليد ـ فبلغت هذه المسائل في مائتين وخمسين ورقة إلى جانب أمور مهمة وفق في تبيانها وقام بها على أحسن وجه وكتابه هذا هو: الحقيقة في نظر الغزالي ، وفيه تظهر بوضوح مطابقة كلام الغزالي لابن سينا ومحاكاته له ولولا خوف الإطالة لنقلنا أشياء من هذه المقارنة . لكن . يكفي أن أحيل القارىء إلى هذا المرجع المهم .

يخالف المكتوب للخاصة، وينهى عوام الناس عما يحث عليه خواصهم.

ومخاطبته للعوام مبينة للمدى الذي يراهم عليه والمرتبة المتدنية التي يعتبرهم عليها. وانظر إليه وهو يخاطب أحدهم بقوله:

ولعلك لا تسمو إلى هذا الكلام بهمتك، بل تقصر دون ذروة همتك، فخذ إليك كلاماً أقرب إلى فهمك وأقرب لضعفك»(1).

وقوله أيضاً للذي سأله عن معنى قوله تعالى: ﴿الله نور السموات والأرض﴾ [النور ٣٥] «لقد ارتقيت بسؤالك مرتقىً صعباً تنخفض دون أعاليه مرامي الناظرين. وقرعت باباً مغلقاً لا يفتح إلا للعلماء الراسخين»(2).

وكلما تعمقت في تخيل هذه المرتبة التي وضعها الغزالي للعوام «البله» كلما أعطاك ذلك التخيل صورة عن المرتبة التي جعلها لنفسه، فكل ما اتهمه به الناس من المخالفات هي في نظر الغزالي أكبر دليل على قصر أفهامهم وبلادة وعي مداركهم وضيق آفاقهم.

بل كانت الاتهامات والاعتراضات لا تزيده بما كتبه إلا يقيناً، ومثال ذلك ذكرته قبل ذلك وهو إجابته عما أنكروه عليه في الإحياء:

«فاعلم أن ما رأيت في الاحياء صحيح، ولكن بقي في كشفه أمر لا يخفى على المستبصرين ولا يغيب عن الشاذين إذا كانوا منصفين»(3).

وحتى لما أُخبر الغزالي بإحراق كتبه التي وصلت إلى المغرب على أيدي المرابطين غضب لذلك غضباً شديداً، وتنبأ بذهاب ملك علي بن يوسف بن تومرت بسبب ذلك(4). ولا عجب فقلب الغزالي: مرآة معكوسة على اللوح المحفوظ يرى فيه ما سيكون في المستقبل!!!

(1) مشكاة الأنوار ٢٣ .
(2) مشكاة الأنوار ٤ .
(3) ملحق الاحياء ٢٩/٥ .
(4) أنظر تاريخ المغرب في العصر الاسلامي ٦٨٤ للأستاذ عبد العزيز سالم .

الباب الخامس

الغـزالي والباطنيّة

الفصل الأول

مواقف مع «التعليمية» الباطنية:

قال الغزالي:

«ثم إني لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهيمه وتزييف ما يزيف منه، علمت أن ذلك أيضاً غير واف بكمال الغرض، وأن العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات»(1).

أراد الغزالي أن الفلاسفة يعتمدون على العقل ومقاييسه في كل الأمور حتى في الإلهيات، ولكن هيهات؛ فالعقل لا يحيط علماً بكل شاردة وواردة، ولذلك كان العقل عندهم من الشرع بمنزلة السيد من خادمه، لكن هذا الذي أرادوه خادماً لهم فقدوه.

يضيف الغزالي:

---

(1) المنقذ من الضلال ٣٤.

«وكان قد نبغت نابغة التعليمية، وشاع بين الخلق تحدثهم بمعرفة معنى الأمور من جهة الإمام المعصوم القائم بالحق، عنّ لي أن أبحث عن مقالاتهم لأطلع على ما في كتبهم... وكان قد بلغني بعض كلماتهم المستحدثة التي ولدتها خواطر أهل العصر لا على المنهاج المعهود من سلفهم، فجمعت تلك الكلمات، ورتبتها ترتيباً محكماً مقارناً التحقيق، واستوفيت الجواب عنها»[1].

ودعوى هؤلاء التعليمية - وهم الباطنية - أن كل امرىء لا بد له من إمام معصوم، يوافقها لهم الغزالي، لكنه يعترض قائلاً:

«إنه لا بد وأن يكون المعلم معصوماً، ولكن معلمنا المعصوم هو محمد عليه السلام.

فإذا قالوا: «هو ميت» فنقول: «ومعلمكم غائب».

فإذا قالوا: «معلمنا قد علّم الدعاة وبثهم في البلاد، وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا أو أشكل عليهم مشكل».

فنقول: «ومعلمنا قد علم الدعاة وبثهم في البلاد وأكمل التعليم، إذ قال الله تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي**﴾ [المائدة ٣].

«وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم كما لا يضر غيبته»[2].

ثم يبطل دعواهم واحتجاجهم من أنه لا بد من الذهاب إلى الامام المعصوم في كل مسألة أو فتوى قائلاً بأنه:

«لا يمكنهم الرجوع في كل واقعة إلى بلدة الإمام، وإلى أن يقطع المسافة ويرجع فيكون المستفتي قد مات وفات الانتفاع بالرجوع.

(١) نفس المصدر والصفحة.
(٢) نفس المصدر ٣٦

فمن أشكلت عليه القبلة ليس له طريق إلا أن يصلي بالاجتهاد، إذ لو سافر إلى بلدة الإمام لمعرفة القبلة لفات وقت الصلاة»[1].

ويبدو أن الغزالي قد نجح في تفنيد أقوالهم فاقتحم باباً لم يجرؤ أحد على مجرد تخطيه ولذلك كان يشعر دائماً بملاحقتهم له ومحاولتهم قتله حتى قيل بأن خروجه من بغداد كان بسبب ذلك، لا سيما وأنهم قتلوا المقتدي بالله والمستظهر.

وهؤلاء الباطنية يزعمون أنهم يأخذون علمهم من الإمام المعصوم القائم بالحق. وقد راموا تأويل آيات الأحكام وغيرها على سجيتهم ووفق ما تشتهيه أنفسهم فصارت الصلاة عندهم هي الدعاء إلى الإمام المعصوم، والزكاة: بث العلوم لمن يتزكى لها ويستحقها. والصوم: كتمان العلم عن أهل الظاهر وكتمان مذهبهم. والحج: الذهاب إلى الإمام المعصوم... الخ.

وسبب هذا التأويل الفاسد هو اعتقادهم بأن لظواهر القرآن والأحاديث بواطن تجري من الظواهر مجرى اللب من القشر.. ولها عند العقلاء العارفين رموز وأسرار وحقائق خفية.

وقالوا: إن للشرائع بواطن لا يعرفها إلا الامام المعصوم، ففسروها بطرق شيطانية باطنية استحلوا عن طريقها الشرائع والمحرمات، واستراحوا بها من أعباء التكاليف - من الأوامر والنواهي - وزعموا أن الله قال فيهم: ﴿**ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم**﴾ [الأعراف ١٥٧].

وهؤلاء جرب الغزالي مذهبهم لكنه لم يجد عندهم ما يشفي الغليل ولا يرتجى عندهم طلب الحق. قال الغزالي:

«... فهؤلاء أيضاً جربناهم وسبرنا ظاهرهم وباطنهم فرجع حاصلهم

(١) نفس المصدر ٣٧.

إلى استدراج العوام، وضعفاء العقول ببيان الحاجة إلى المعلم... إذا ساعدهم على الحاجة المعلم مساعد وقال: هات علمه وأفدنا ... فقط. إذ علم أنه لو زاد على ذلك لافتضح ولعجز عن حل أدنى الإشكالات» وفي ختام هذه الجولة يقول الغزالي:

«فهذه حقيقة حالهم فأخبِرْهم تقلهم، فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم أيضاً»(١).

ولكن هل برأ الغزالي من أمراض الباطنية التي عرّفها لنا ههنا؟

كلا، لم يسلم الغزالي من ذلك. فإن القرآن مشتمل عنده على خمسة علوم وهي متشعبة عنه. «وهي أن له أسراراً وجواهر وأصدافاً، والصدف أول ما يظهر، ثم يقف بعض الواصلين إلى الصدف، وبعضهم يفتق الصدف ويطالع الدر... فهذه علوم الصدف والقشر، ولكن ليست على مرتبة واحدة، بل للصدف وجه إلى الباطن ملاقٍ للدرّ، قريب الشبه به».

«فصاحب علم الحروف هو عالم للقشر البراني البعيد عن باطن الصدف، فضلاً عن نفس الدرة. وصاحب علم النحو أرفع قدراً ممن لا يعرف إلا علم القراءات.

وكلهم يدورون على الصدف والقشر.

ويليه علم التفسير الظاهر. وهو الطبقة الأخيرة من الصدفة القريبة من ممارسة الدرّ، ولذلك يشتد به [أي بالدرّ] شبهه، حتى يظن الظانون أنه الدرّ وليس وراءه أنفس منه. وبه قنع أكثر الخلق، وما أعظم غبنهم وحرمانهم، إذ ظنوا أنه لا رتبة وراء رتبتهم»(٢).

---

(١) نفس المصدر ٤٢ ـ ٤٣.

(٢) جواهر القرآن ١٨ ـ ٢٠ وحتى تقسيمه للتوحيد على مراتب، فإنه يقسمه إلى أربعة: إلى لب، ولبّ اللب، وإلى قشر وقشر القشر، وذلك كالجوز في قشرته العليا، فإن

وقد قسم العلوم إلى: «الترياق الأكبر» و«المسك الأذفر» و«الكبريت الأحمر» وقال عنها بأنها استعارات رسمية تحتها رموز وإشارات خفية.

وقال بعد هذا:

«فما كلمة طمس إلا وتحتها رموز وإشارات إلى معنى خفي يدركها من يدرك الموازنة والمناسبة بين عالم الملك وعالم الشهادة وبين عالم الغيب والملكوت»(١).

ثم إن التصوف ـ الذي وقع اختيار الغزالي عليه أخيراً ـ مبنيٌّ على تقسيم العلوم الى قسمين:

١ ـ العلم الظاهر.

٢ ـ العلم الباطن.

وقد ذكر الغزالي هذا التقسيم ثم استشهد بحديث موضوع على رسول الله ﷺ وهو: «العلم علمان، فعلم باطن في القلب فذلك هو العلم النافع»(٢). وهو شبيه بالتقسيم الباطني للعلوم الذي شجع الباطنية على الاسراف في التأويلات. وقد قسم الغزالي العلوم الى علمين:

١ ـ العلم الظاهر: أي علم المعاملة وسمى الفقهاء بـ «علماء الظاهر».

٢ ـ العلم الباطن: أي علم المكاشفة. وجعله غاية العلوم وأشرفها(٣).

له قشرتين، وله لب، وللّب دهن هو لب اللب. وأعظمها وهو ـ لب اللب ـ من يرى كل ما في الوجود بأنه الواحد الحق!! أليس يقول الغزالي: وليس في الوجود إلا الله وأفعاله! (انظر الأحياء ٤/٢٤٥ ـ ٢٤٦).

(١) جواهر القرآن ٢٨.

(٢) الاحياء ٣/٢٤. وقد ذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية في الأحاديث الواهية ١/٧٣ ورمز له بالوضع.

(٣) الإحياء ١/١٩، ٢١.

ثم وصف علماء الظاهر [الفقهاء] بأنهم زينة الأرض، لكنه وصف علماء الباطن بأنهم زينة السماء والملكوت (١). وأن علومهم تأتي من داخل القلب من الباب المنفتح إلى عالم الملكوت»(٢).

ووصف هذا العلم الباطن بأنه «العلم المكتوم»(٣).

وجعل من قوله تعالى: **﴿فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم﴾** [النساء ٦] أن من بلغ رشده في العلم ينبغي أن يُبَثّ إليه حقائق العلوم ويُرقَّى من الجليّ الظاهر إلى الدقيق الخفي الباطن(٤).

وهذا الاستدلال لا يستغرب صدوره عن الغزالي فقد صرح بما يشبه هذا ما يدل على هذا الاتجاه الذي حذر المسلمين منه بكتبه فضائح وقواصم الباطنية. والرد على الباطنية. ألم يقل الغزالي فيما ينقله عن علي رضي الله عنه: «إن ههنا لعلوماً جمة لو وجدت لها حملة؟»(٥) ألم يستشهد بكلام منسوب إلى المسيح عليه السلام: «لا تعلقوا الدر في أعناق الخنازير؟» زاعماً أن مراده بذلك النهي عن تعليم الحكمة لغير أهلها؟».

وأن ابن سيرين فهم من المنام الذي رآه أحدهم - وفيه أنه كان في يده خاتم يختم به فروج النساء - أن هذا الرجل مؤذن في رمضان قبل الصبح؟!!

وأن رجلاً قال بأنه رأى في منامه كأنه يصب الزيت في الزيتون، فقال له ابن سيرين: إن كان تحتك جارية فهي أمك قد سُبيَتْ وبيعت

---

(١) الإحياء ١/٢٢.
(٢) الإحياء ١/ ٢١ - ٢٢.
(٣) ميزان العمل ١١١.
(٤) نفس المصدر والصفحة.
(٥) نفس المصدر والصفحة.

واشتريتها وأنت لا تعرف؟!!(١) ألم يستشهد بذلك كله ليقرر لك حكماً باطنياً، وهو أن القرآن يشتمل على جنس هذه التي ذكرها. وانظره حين يقول:

«واعلم أن القرآن والأخبار تشتمل على كثير من هذا الجنس» ويقول:

«واعلم أن التأويل يجري مجرى التعبير، فلذلك قلنا: يدور المفسر على القشر، إذ ليس من يترجم معنى الخاتم والفروج والأفواه كمن يدرك له أذان قبل الصبح»(٢). إذن فالغزالي من أولئك الذين يطالعون الدر واللب متجاوزين القشر!. وقد وصفهم بأنهم قلة، والغالبية محرومون من مطالعة هذا اللب! أليس هذا الرأي هو الذي أودى بالتعليمية إلى تأويلاتهم الباطنية المنحرفة؟ أليسوا يزعمون بأن الغالبية من الناس لا يطلعون على بواطن الآيات المستخرجة من قبل إمامهم المعصوم؟

ألم يقل الغزالي بأن الحق:

ويتغير ويختلف، ويكون مع كل واحد على حسب ما يحتمله فهمه، ولا يكون على وجه واحد بل يختلف بحسب المسترشد.

«فإن وقع له مسترشد تركي أو هندي أو رجل بليد جلف الطبع وعلم أنه لو ذكر له أن الله تعالى ليس ذاته في مكان وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه. ولا متصلاً بالعالم ولا منفصلاً عنه. لم يلبث أن ينكر وجود الله تعالى ويكذب به(٣).

---

(١) جواهر القرآن ٢٩.
(٢) جواهر القرآن ٣٠ - ٣١.
(٣) أنه لا بد وأن ينكر وجود الله تعالى - إذا اقتنع بهذه الفكرة التي روجها جهم وأصحابه الذين عبدوا العدم - أو بعبارة أخرى - الذين أضاعوا ربهم، وهم الجهمية ومن وافقهم في هذا الباب من المعطلة.

فينبغي أن يقرّر عنده أن الله تعالى على العرش، وأنه يرضيه
خلقه ويفرح بها، فيثيبهم ويدخلهم الجنة عوضاً وجزاءً.

وإن احتمل أن يذكر له ما هو الحق المبين يُكشَفُ له.

فالمذهب بهذا الاعتبار يتغير ويختلف ويكون مع كل واحد حسبما يحتمله فهمه»[1].

أسرار لا يجوز كشفها:

وحيث أن الغزالي يقسم العلوم الى علوم معاملة وعلوم مكاشفة. فإنه يخفي على العوام حقائق هذا العلم الثاني ولا يطلعه إلا على المؤهلين لتلقيه ومطالعته من أهل المعرفة، إذ لو أظهره عليهم لكان في ذلك الضرر لهم.

وأشار إلى أنه قد أودع بعض التصانيف لكنه لم يظهرها كلها لأنه: «يكلّ عنها أكثر الأفهام، ويستضرّ بها الضعفاء. وهم أكثر المترسمين بالعلم، ولا يصلح إظهارها إلا على من أتقن علم الظاهر، وسلك في قمع الصفات المذمومة من النفس. . .» وأضاف:

«وحرام على من يقع ذلك الكتاب بيده أن يظهره إلا على من استجمع هذه الصفات»[2].

وفي معرض بيانه لخصائص علوم المكاشفة (العلم الباطن) وميزاتها عبر عنها بأنها: «العلوم التي لا تُسطر في الكتب ولا يتحدث بها إلا من أنعم الله عليه بشيء منها إلا مع أهله، وهو المشارك فيه على سبيل المذاكرة وبطريق الأسرار».

وأضاف بأن هذا العلم هو العلم الخفي الذي أراده النبي ﷺ بقوله:

---

(1) ميزان العمل ١٣٥ ـ ١٣٦ .
(2) جواهر القرآن ٢٥ .

«إن من العلم كهيئة المكنون، لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله تعالى»[1].

وهذه العلوم ـ علوم المكاشفة ـ هي علوم سرية لا يجوز الإفضاء بها، ولا تسطيرها في كتاب.

فقد أجاب عن سؤال مفترض الوقوع وهو:

«كيف يُتصور أن لا يشاهد إلا واحداً وهو يشاهد السماء والأرض. . . ؟»

فأجاب: فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات. وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تُسطر في كتاب»[2].

«. . . ثم ليس كل سر يُكشف ويُفشى، ولا كل حقيقة تُعرض وتُجلى. بل صدور الأحرار قبور الأسرار، ولقد قال بعض العارفين: إفشاء سر الربوبية كفر»[3].

إن الدين لا يعرف الأسرار، فقد أشهر الرسول ﷺ الناس بأنه قد بلّغ، فمن الذي شرع للمسلمين هذا التشريع، وحكم لهم بوجود الأسرار في الدين؟: الرسول ﷺ، أم الباطنية؟!!

---

(1) الإحياء ١ / ٢٠ قال الحافظ العراقي على هامش الإحياء : رواه أبو عبد الرحمن السلمي في الأربعين له في التصوف من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف . أ . هـ . قلت : والسلمي هذا معروف عند أهل الحديث بالوضع والكذب على رسول الله ﷺ . قال عنه الذهبي : « شيخ الصوفية كان يضع الأحاديث للصوفية » (ميزان الإعتدال ٣ / ٤٦) . (لسان الميزان ٥ / ١٤٠) كذا قال الخطيب (تاريخ بغداد ٢ / ٢٤٨ ـ ٢٤٩) وابن الجوزي (تلبيس إبليس ١٦٤) .
(2) الإحياء ٤/٢٤٦ ويقول . « ووراء هذه الحقائق أسرار لا يجوز الخوض فيها » . (مشكاة الأنوار ٢٠) .
(3) مشكاة الأنوار ١ .

الجواب: الباطنية بالطبع، فإن القول بالأسرار والخفايا والعلوم الباطنية كان دأبهم. والرسول ﷺ لم يكتم شيئاً من العلم وإنما بلغ على أحسن وجه.

للقرآن ظاهر وباطن!!

وليقرر الغزالي صحة دعواه بالتفسير الباطني للقرآن ـ الذي هو عنده بمنزلة اللب، من القشرة فإنه يحتج لذلك بحديث لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ ونسبته إليه وهو:

«أن للقرآن ظاهراً وباطناً وحداً ومطلعاً»(1).

ولا يكاد يخلو كتاب من كتبه من الاستشهاد بهذا الحديث، ويريد به تقرير صحة ما هو ذاهب إليه من أن هناك تفسيراً باطناً لآيات الله يختلف عن التفسير الظاهر الذي تعلق به الكثيرون من المحرومين المغبونين المحجوبين عن إدراك أسراره واكتشاف درره وجواهره المكنونة.

وقد ادعى لنفسه ـ ولمن يشابهه ويساويه في هذه المرتبة العالية، معرفة هذا التفسير الباطن الذي هو بمنزلة اللب والدُّرر المكنونة.

وادعت الباطنية مثله لأئمتها المعصومين!!

فصل

ومما يظهر أن الغزالي يصطبغ بكل علم يطالعه، سواء أكان ذلك من كتب الخصوم أو من الموافقين، لأنه لما عكف على مصنفات الفلاسفة، كالشفا وتهذيب الأخلاق، تأثر بها تأثيراً عظيماً وظهرت آثار ذلك في كتبه التي دونها بعد حملته على الفلاسفة. وظهرت فيه آثار الآراء والمعتقدات

(1) مشكاة الأنوار ٣٢ (القصور العوالي). وإسناده ضعيف (انظر تخريج الأرناؤوط له في شرح السنة للبغوي ١/٢٦٢ ـ ٢٦٣).

الباطنية ورسائل إخوان الصفا التي أجاد في نقدها وتفنيدها، وهذه علة ميله إلى القول بالعلم الباطن الخفي.

أما العلة الأخرى فهي أن كلام الصوفية مقتبس في هذا الباب من كلام الباطنية وعقيدتهم. فقد تقمصت الصوفية إخوان الصفا تارة، وكلام المتفلسفة تارة أخرى، واستقت لها تعاليم من رهبان النصارى وتعاليم الهندوكية والفارسية والبوذية.

وكلام الصوفية عن الحقائق والأسرار والاشارات والرموز هو عين كلام الباطنية عن حقائق العلوم وبواطنها التي يزعمون أنها لا تؤتى إلا من لدن إمامهم المعصوم.

وهذا التقارب بين الطائفتين واضح جداً، وقد أشار إليه ابن خلدون في مقدمته «بأن منهم من كان مخالطاً للاسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين بالحلول وإلهية الأئمة، فأُشرب كل من الصوفية والاسماعيلية مذهب الآخر، فقال الصوفية بمثل قولهم وذهبوا الى الحلول والاتحاد والفناء وامتلأت كتبهم بذلك كالهروي وابن عربي وابن الفارض والنجم الاسرائيلي وابن سبعين وغيرهم. فاختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب... وهو بعينه ما تقوله الرافضة ودانوا به»(1).

وأضاف قائلاً: «ثم قالوا بترتيب وجود الأبدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقباء، حتى إنهم لما أسندوا لباس خرقة التصوف ليجعلوه أصلاً لطريقتهم وتخليهم رفعوه الى علي رضي الله عنه. وهو لم يختص من بين الصحابة بتخلية ولا طريقة في لباس ولا حال. بل كان الصحابة كلهم أسوة في الدين والزهد والمجاهدة».

(1) مقدمة ابن خلدون ٤٧٣.

ثم أوضح بأن مصادرهم في كل ما ذهبوا إليه من هذه الأقوال من شيعية باطنية، حيث قال بأن كلامهم هذا :

«... مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم في كتبهم»[1].

والحقيقة أن التيار المنجرف للتصوف قد تشجع وغلا ـ بفضل آراء الغزالي التي نسقها على هيئة دستور لطريق التصوف، وبعد أن فتح عليهم باب الكشف على مصراعيه وسد عليهم باب أخذ العلوم من مصادرها الكتاب والسنة.

فأدخل فلاسفة التصوف وأرباب التجلي وأصحاب الحضرات في الفكر الاسلامي سموم الاصطلاحات الفلسفية والرموز الباطنية، أي أنهم عادوا الى نفس الوسائل التي تبناها أصحاب رسائل إخوان الصفا ـ وهم من الاسماعيلية الباطنية ـ الذين كان الغزالي خصمهم العنيد وعدوهم اللدود.

«وقد حكي عنه من القول بمذاهب الباطنية ما يوجد تصديق ذلك في كتبه ورد عليه العلماء من قبل كابن الصلاح والمازري وغيرهما»[2].

صور من التفسير الباطني للغزالي

ونورد هنا جملة من التفاسير الباطنية التي فسر بها الغزالي بعض الآيات الكريمة.

(وأولها): ما أنكره عليه ابن الجوزي رحمه الله وهو قوله: «بأن المراد بالكواكب والشمس والقمر اللواتي رآهن إبراهيم صلوات الله عليه، أنوار هي حجب الله عز وجل، ولم يرد هذه المعروفات» فقال ابن الجوزي: «وهذا من جنس كلام الباطنية»[3].

(1) نفس المصدر والصفحة.
(2) الفتاوى لابن تيمية ١٦٤/٤ ، درء تعارض العقل والنقل ٥/١ .
(3) تلبيس إبليس ١٦٦ ـ وانظر سير أعلام النبلاء ٣٤٢/١٩ للذهبي

وقال الغزالي: «بل أقول: موسى فهم من الأمر بخلع النعلين: إطرح الكونين. فامتثل الأمر ظاهراً بخلع النعلين وباطناً بخلع العالمين»[1].

وقد حكى ابن تيمية عن هذا النوع من التأويل بأنه دأب المتأولة المتفلسفة الذين يجعلون «خلع النعلين» إشارة إلى ترك العالمَيْن، «والطور» عبارة عن العقل الفعال ونحو ذلك من تأويلات الفلاسفة الصابئة ومن حذا حذوهم من القرامطة والباطنية وأصحاب رسائل إخوان الصفا ونحوهم[2].

وقد جعل الغزالي خلع النعلين إشارة إلى أن من خلع الدنيا والآخرة فقد حصل له الخطاب الإلهي.. ولما جعل خلع النعلين إشارة الى ذلك، أخذ ابن قسي هذا الكلام ووضع له كتاباً سماه بـ «خلع النعلين واقتباس النور من موضع القدمين»، ومن هنا دخل أهل الإلحاد من أهل الحلول والوحدة والاتحاد حتى آل بهم الأمر إلى أن جعلوا وجود المخلوقات عين وجود الخالق سبحانه وتعالى»[3].

قال الغزالي: «واستعاذ إبراهيم ﷺ فقال: **﴿واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام﴾** وعني بها: هذين الحجرين الذهب والفضة»[4].

وقد أتى على تفسير هذه الآيات التالية على النحو الآتي:

﴿فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم﴾ نبّه على أن من بلغ رشده من العلم ينبغي أن يُبثّ إليه حقائق العلوم ويُرقى من الجليّ الظاهر إلى الدقيق الخفي الباطن. **﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم﴾** نبّه على أن حفظ العلم وإمساكه عمن يفسده العلم أولى»[5]. **﴿فإن اتبعتني**

(1) مشكاة الأنوار ٣٠ و٣٢ .
(2) فتاوى ابن تيمية ١٨٠/٦ ـ ١٨١ .
(3) درء تعارض العقل والنقل ٣١٨/١ . تحقيق محمد رشاد سالم.
(4) إحياء ٢٣٥/٣ ، ميزان العمل ١١٥ .
(5) ميزان العمل ١١١ .

فلا تسألني عن شيء﴾ [الكهف ٧٠] أراد به: من صفات الربوبية،
العلوم التي لا يحل السؤال عنها حتى يبتدىء بها العارف في
الاستحقاق»[1] .

لذا فقد بقيت آثار الباطنية بادية بوضوح في كتب الغزالي التي
بعد إعراضه عن اتباع مذهبهم.

وقد ساعد على هذا البقاء التزامه مذهب الصوفية الذي يعتمد
تقسيم العلوم إلى الظاهر الجليّ والباطن الخفي، وهم ملتقون معهم
هذا الباب خاصة، وعلى ظاهرة الغلو في سائر المبادىء والغايات عامة.

---

(١) الإحياء ٢٩٢/١ .

الباب السادس
الغزالي والتصوف

الفصل الأول

التصوّف: اشتقاقه ـ مصادره:

التصوف كلمة مجهولة الإشتقاق، ولا يعرف لها مصدر محدد حتى من أكثر الناس خبرة بهذا المذهب. كالقشيري والكلابادي وغيرهما.

واحتملوا اشتقاق كلمة التصوف من أحد هذه المصادر المفترضة وهي:

الأول : أن تكون منسوبة إلى الصفاء، وقد رد القشيري هذا الاحتمال، وعلة ذلك عنده أن رجوع الصوفية إلى الصفاء بعيد من جهة الاشتقاق اللغوي وحيث أن ذلك يقتضي تسميتهم بالصفائيين. وأنكره ابن خلدون أيضاً[1].

وقال الكلابادي بأنه لصفاء أسرارهم وشرح صدورهم، وضياء قلوبهم

---

(١) الرسالة القشيرية ٢٦

سموا بذلك، غير أنه اعترف بأنه وإن كان اللفظ لا يتفق ظاهراً إلا أنه يتفق في المعنى (١).

وعبّر زكي مبارك عن نسبة التصوف إلى الصفاء بأن ذلك ليس إلا حذلقةً من بعض الصوفية (٢).

الثاني : أن تكون منسوبة إلى الصفة، أي أهل الصفة الفقراء الذين كانوا يأوون إلى مؤخرة مسجد رسول الله ﷺ . وهذه النسبة باطلة لأربعة وجوه:

١ ـ أن نسبة الصوفية إلى أهل الصفة خطأ، لأنه لو كان كذلك لقيل: صفيّ.

٢ ـ أن أهل الصفة كانوا يكثرون مرة ويقلون مرة، ومنهم من يرزق مالاً ومأوىً فيترك هذا المكان. ولم يكونوا ناساً بأعيانهم، بل كانوا من جنس سائر المسلمين.

٣ ـ أنه لم يكن لهم مزية خاصة أو منهج معين يتبعونه فيما بينهم، بل إن منهم من ارتد عن الإسلام وقتله النبي ﷺ كالعرينيين الذين استدرجوا الراعي ـ المأمور من قبل رسول الله ﷺ أن يسقيهم من إبل لها لبن ـ فقتلوه واستاقوا الذود، فأمر عليه الصلاة والسلام بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وسمرت أعينهم، وتركهم في الحرة يستسقون فلا يُسقَوْن.

٤ ـ أن أبا بكر وعمر وعثمان وعلي وأبا عبيدة هم من أفاضل الصحابة ومن أكابرهم لم يكونوا من أهل الصفة، فلم لا يقتدى بهم من دون أهل الصفة، بل لم لا يُقتدى بمنهج رسول الله ﷺ وبهديه، لا سيما وأن أهل الصفة كانوا متبعين لهديه، ولم يستقلوا عن ذلك بمنهج خاص.

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف ٢٤ . ط. دار الكتب العلمية ـ بيروت .
(٢) التصوف الاسلامي ٥٤/١. د. زكي مبارك ط. المكتبة العصرية ـ لبنان .

الثالث : أن تكون نسبة ذلك إلى رجل يقال له: صوفة، واسمه الغوث بن مر. وإنما سُمي بـ«صوفة» لأن أمه نذرت لئن عاش لتعلقن برأسه صوفة، ولتجعلنه ربيط الكعبة.

فكان أول من انفرد بخدمة الله عند بيته الحرام، وانتسب إليه قوم في الجاهلية فسموا صوفة. وقد انقطعوا إلى الله عز وجل وقطنوا الكعبة، فمن تشبه بهم فهم الصوفية (١).

قلت: ومعنى هذا أن القوم ينتسبون إلى أناس من أهل الجاهلية لم يعرفوا الإسلام، وهو أمر خطير لو صح عنهم، لكن هذا الإشتقاق مستبعد.

الرابع : أن تكون نسبتها إلى «صوفانة» وهي بَقْلة زغْباء(٢) قصيرة، ونُسبوا إليها لاكتفائهم بنبات الصحراء. وهذا أيضاً لا يصح، لأنه لو نُسبوا إليها لقيل للواحد منهم «صوفاني».

الخامس: أن تكون نسبتها إلى «الصوف». وقد أنكر ذلك القشيري، والسبب في إنكاره لهذا الإشتقاق قوله: بأن القوم لم يختصوا بلباس معين(٣). وقيل بأن ذلك يبعد الصوفيين عن الحكمة الإلهية وينسبهم إلى الظاهر(٤).

هذا وتجدر الإشارة إلى أنه لم يقف على أي اشتقاق لغوي للفظ «التصوف» حيث قال: «وليس يشهد لهذا الإسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق»(٥).

(١) تلبيس إبليس ١٦١ ـ ١٦٢ .
(٢) زغباء : رعناء .
(٣) الرسالة القشيرية ١٢٦ .
(٤) منهاج البحث عند الغزالي ٥٣ .
(٥) الرسالة القشيرية ١٢٦ .

بينما يرى ابن خلدون، وابن تيمية إشتقاقها من الصوف[1]. أما ابن الجوزي فيرى أنها منسوبة إلى صوفة ـ الغوث بن مرة ـ الذي كان يتعبد في الجاهلية عند البيت الحرام[2].

أما من يرى من الصوفية وغيرهم نسبة هذه التسمية إلى الصوف، فإنهم احتجوا بأن الصوف لباس الأنبياء، وأن نبينا محمد ﷺ كان يلبسه، وكذلك عيسى عليه الصلاة والسلام. وهذا احتجاج باطل.

فقد كان سيدنا محمد ﷺ يلبس القطن والكتان والصوف، فماذا يكون موقفهم لو خرجت جماعة تسمي نفسها بالكتانيين أو القطنيين، وحجتهم في ذلك عين حجة الصوفيين، حيث أطلقوا على أنفسهم اسم القطنيين لأن الرسول ﷺ كان يلبس القطن أو الكتانيين. لأنه ﷺ كان يلبس الكتان. وذلك نظير احتجاج الصوفية للبنة الصوف!!!.

وهل الأصل في ذلك طلب الهدى بلباسه ﷺ أم بسنن الهدي التي حث عليها وحذر من خطورة تركها؟.

وأما قولهم بأن عيسى عليه الصلاة والسلام كان لا يلبس إلا الصوف والمراقع، فإنهم أخذوا هذا الخبر من مصادر لا يعرف صدقها من كذبها، ومن كلام الرهبان الذين تحكي كتب الصوفية اتصال أكابرهم بهم وأخذهم المعرفة عنهم.

وقد تلقف الصوفية هذه الأخبار المزعومة، وسطروها في كتبهم، زاعمين أنهم يقتدون بهذا الزهد الذي عرف عن المسيح عليه الصلاة والسلام. وقد كان حرياً بهم اتباع هدي نبينا محمد ﷺ وترك هذه الأخبار التي لا يعرف صحيحها من سقيمها، بل إن من يتتبع أحوال السلف في

(1) مقدمة ابن خلدون ٤٦٧ ، الصوفية والفقراء ١٢ تحقيق محمد جميل غازي . وانظر الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٤٢ .
(2) تلبيس إبليس ١٦٣ . ط. دار الكتب العلمية ـ بيروت .

هذا الجانب ـ وهم أكثر الناس حرصاً على الإقتداء بهديه ﷺ ـ يرى مخالفة الصوفية لهذا الهدي.

إذ إنهم لم يجعلوا من لبس المراقع والصوف آلة للزهد، وعلامة يمتازون بها عن غيرهم. «فقد كان المهاجرون والأنصار يلبسون لباساً مرتفعاً، وكان ابن مسعود من أجود الناس ثوباً وأطيبهم ريحاً، وكان مالك ابن أنس يلبس الثياب العدنية الجياد، وكان لتميم الداري حلة قد ابتاعها بألف. كان يقوم الليل بها».

وإنما أخذ الصوفية شعار الصوف من رهبان النصارى، لا سيما قد عرف عنهم أنهم كانوا يلبسون المسوح ـ الخشن من الثياب ـ ويعتزلون الناس في الصوامع والأديرة وعلى قمم الجبال. فالجاحظ يخبرنا أن النصراني إذا أراد التنسك يلبس الصوف[1].

ويروي ابن الجوزي أن رجلاً جاء إلى أبي العالية وعليه ثياب صوف فقال له أبو العالية: «إنما هذه ثياب الرهبان»[2].

وأن رجلاً ـ اسمه فرقد السنجي ـ جاء إلى حمّاد بن أبي سليمان رحمه الله وعليه ثوب صوف. فقال له حماد: «ضع عنك نصرانيتك هذه»[3].

وقد كان من السلف من يرى أن هذا اللباس بدعة، فقد أبصر سفيان الثوري رحمه الله رجلاً عليه صوف فقال: «لباسك هذا بدعة»[4].

وينكر ابن الجوزي أن يكون للمرقعة الصوفية أصل في السنة[5]

(1) الحيوان ١٠٣/١ (نقلاً عن التصوف الاسلامي للدكتور زكي مبارك ٥٢/١) .
(2) تلبيس إبليس ١٩٦ .
(3) تلبيس إبليس ١٩٥ .
(4) تلبيس إبليس ١٩٥ .
(5) تلبيس إبليس ١٩٤ .

مع أن القوم الصوفية يدعون أخذهم لبس المرقعة عن النبي ...
بطريق التواتر المادي. فيزعمون أن النبي ﷺ ألبس علياً الخرقة، وأن ...
رضي الله عنه ألبسها الحسن البصري، وأن الحسن ألبسها أبا ...
البسطامي، وانتقلت منه إلى سائر الصوفية.

لكن ابن خلدون يكذب هذا الزعم قائلاً بأن أبا بكر وعمر ...
وغيرهم لم يختصوا بلباس معين أو بشيء في الدين يؤثر عنهم ...
الخصوص[1]. وقد زعموا أن الصوف أخشن أنواع الثياب، وفيه علامة ...
الإعراض عن الدنيا والزهد فيها، وبه يستشعر الصوفي العزوف عنها والـ...
على طلب الآخرة.

لكن تلك العلامة ليست إلا تعريفاً للناس بحال الزاهد وتوقيره ...
قلوبهم. وهذا كله داخل في الرياء، ومبطل للعمل.

فقد نظر محمد بن محمد الكتاني إلى أصحاب المرقعات فقال ...
«إخواني، إن كان لباسكم موافقاً لسرائركم، لقد أحببتم أن يطلع الناس ...
عليها. وإن كانت مخالفة لسرائركم فقد هلكتم ورب الكعبة» [2].

وقال الجنيد: «إذا رأيت الصوفي يعني بظاهره فاعلم أن باطنه ...
خراب» [3].

وكان أبو عبد الله الدينوري يقول لبعض أصحابه: «لا يعجبنك ما ...
ترى من هذه اللبسة الظاهرة عليهم، فما زينوا الظواهر إلا بعدما خربوا ...
البواطن».

وذكر عند الحسن البصري الذين يلبسون الصوف فقال: «ما لهم

(1) مقدمة ابن خلدون ٤٧٣ ط دار القلم.
(2) تلبيس إبليس ١٩٠.
(3) الرسالة القشيرية ١٢٧ ط. دار الكتاب العربي.

تعاقدوا ثلاثاً: اكنوا الكبر في قلوبهم، وأظهروا التواضع في لباسهم. والله، لأحدهم أشد عجباً بكسائه من صاحب المطرف بمطرفه» ثم قال: «إن قوماً جعلوا كبرهم في صدورهم شنعوا دينهم بهذا الصوف» وقال: «إن رسول الله ﷺ كان يتعوذ من زي المنافقين» [1].

ومن كلام ابن الجوزي رحمه الله:

«كان الزهد في بواطن القلوب، فصار في ظواهر الثياب.
كان الزهد حرقة، فصار اليوم خرقة.
ويحك صوِّف قلبك لا جسمك، وأصلح نيتك لا مرقعتك» [2].

السادس: أن تكون نسبة هذه الكلمة (الصوفية) إلى (سوفيا) اليونانية. وهذا أقرب الاحتمالات، لا سيما وأن القشيري - وهو أكثر القوم خبرة بالتصوف ومعرفة به - يرى أن كلمة (صوفية) لا يشهد لها قياس لغوي عند العرب. الأمر الذي يجعلنا نؤيد الرأي القائل باشتقاق هذا اللفظ من الكلمة اليونانية (سوفيانوس).

وكلمة (سوفوس) اليونانية دالة على الحكمة. ومن ذلك كلمة (فيلاسوفيا) ومعناها: «إيثار الحكمة» [3].

وقد قال البيروني:

«... وهذا رأي «السوفية»، وهم الحكماء. فإن «سُوف» باليونانية الحكمة. وبها سُمي الفيلسوف «بيلاسوبا» أي محب الحكمة».

(1) تلبيس إبليس ١٩٥.
(2) المدهش ٤١٩ ط. دار الكتب العلمية. بيروت.
(3) دائرة معارف الدين والأخلاق لنيلكسون. مادة «الصوفية». نقلاً عن نشأة الفلسفة الصوفية للدكتور عرفان عبد الحميد ١٠٨ ط المكتب الاسلامي. وانظر تاريخ التصوف الاسلامي للدكتور عبد الرحمن بدوي ٩ - ١١.

«ولما ذهب في الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم سمُّوا بإسمهم، ولم يعرف اللقب بعضهم فنسبهم للتوكل إلى الصفة، وأنهم أصحابها في عهد النبي ﷺ، ثم صُحِّف بعد ذلك فصُيِّرَ من صوف التيوس»(١).

ويسخر أبو حيان ممن اتخذ من صوف التيوس شعاراً وملبساً قائلاً:(٢)

أَيـا غَـابِيـاً بِنْ جَـيْـدِ الصُّـوفِ نَـفْسَـهُ
وَيَـا عَـارِيـاً من كُـلِ فَضْـلٍ وَمـن كَيْسِ
أَتـزْهـى بِصُـوفٍ وَهُـو بِـالأَمْسِ مُصبِـحٌ
عَلى نَعْجَـةٍ واليَـوم أَمْسَى عـلى تَيْسٍ!!!

ثم إن التصوف قد نشأ تحت مؤثرات أجنبية عديدة أبرزها: الأفلاطونية المحدثة. والثقافة الهيلينيّة - وهذه مؤثرات يونانية - فأي شيء يجعل اشتقاق كلمة (صوفي) من (سوفيا) اليونانية أمراً مستبعداً مادامت اللغة العربية لا تشهد بأي قياس لهذه الكلمة الأعجمية المصدر؟ ومادام المنهج الصوفي متأثراً تأثيراً عميقاً بالفكر الأفلاطوني اليوناني؟!.

إلغاء كلمة التصوف:

وإذا كان المنهج الصوفي مليئاً بالمؤثرات الخارجية، وإذا كان اسمه مجهول المصدر، فما الداعي إلى الدفاع عنه ومعاداة المسلمين من أجله؟.

ألا يكون أبرأ للذمة وأحرص على السنة، وأدرأ للمفسدة، أن تبدع التصوف إسماً ورسماً؟. إذ لو كان يعتمد على السنة وحدها فما وجه استقلاليته بإسم معين لا يعرف حتى أكابر الصوفية من أين أتى مصدره؟.

---

(١) تحقيق ما للهند من مقولة ص ٢٤ و٥١ و٦٥ ط. عالم الكتب - بيروت.

(٢) نفح الطيب ١/٨٢٤.

لكن الحقيقة أن الصوفية ينفردون عن باقي المسلمين ببدع معينة خارجة عن السنة لأنه لو كانوا على سنة وعلى اتباع لا ابتداع معه لكانوا في ذلك هم والمسلمون سواء بسواء. وإنما انفردوا عنهم بإسم معين لأنهم استحدثوا بدعاً معينة عرفوا معها بهذه التسمية.

وهب أن التصوف بدعة لفظية فقط، وأن المنهج الصوفي مقتبس من مشكاة النبوة ومن هدي السنة. ألا يكون من باب أولى إلغاء هذا اللفظ، ما دام المضمون لا يخرج عن السنة بتاتاً فأي قيمة تبقى بعد ذلك للفظ؟!!!.

ثم ألا يكون تركه من باب درء المفسدة، لا سيما وأن الإنتماء لمجرد لفظة لا مدلول لها أمر يدعو إلى وقوع الفرقة بين المسلمين.

أم أن الصوفية يحملون في مذهبهم لواء عريضاً من المبتدعات والمستحدثات الخارجة عن السنة وهاكم نماذج عنها؟!!.

المآخذ على الصوفية:

أما المآخذ التي تؤخذ على الصوفية فهي كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال عدة أوجه أوردها ابن الجوزي في كتابه المشهور المسمى بـ«تلبيس إبليس» وأضفت إليها أوجهاً أخرى وهي:

١-إن الصوفية انصرفوا عن العلم وادعوا العمل لكن عملهم لم يوافق العلم الشرعي المطلوب.
٢-إنهم انصرفوا عن القرآن وعلومه، وعن الحديث إلى الخطرات والخلوات.
٣-إنهم ادّعوا الكشف والعلم اللدني وجعلوه منافساً للعلوم الشرعية.
٤-إنهم قالوا بالحلول إلا قليلاً منهم.
٥-إنهم تجاوزوا الحدود في أمور العبادات: في الطهارة والصلاة.

٦ - إنهم اتخذوا ملابس خاصة، مثل الصوف والخرق والمرقعات، وزعموا أنها سنة مأثورة.

٧ - إنهم اتخذوا أوضاعاً شاذة في المطعم والمشرب، كادعائهم الصبر على الطعام أربعين يوماً وعلى الشراب سنة.

٨ - إنهم اصطنعوا السماع واجتمعوا عليه، وكذلك الرقص والتمايل والتواجد.

٩ - استنادهم إلى الرؤيا في استخراج الأحكام الشرعية.

١٠ - إنهم أولعوا بصحبة الأحداث، والنظر إلى المردان.

١١ - إنهم دعوا إلى التواكل، وقطع الأسباب، وترك الإحتراز في الأموال وترك التداوي واعتباره منافياً للرضا.

١٢ - إنهم أخذوا مصطلحات إسلامية معينة وحرفوا مراد الإسلام منها. كالتوحيد والتوكل. فأرادوا بالأول الوحدة الكاملة والفناء المطلق، وبالثاني ترك التدبير، والإنخلاع من الحول والقوة، ورؤية فاعل واحد.

١٣ - إنهم آثروا الوحدة والإعتزال، والإنفراد عن الناس، وفضلوا عدم الزواج وترك طلب الأولاد حين الزواج، معتبرين أن الأولاد عقوبة شهوة الحلال!.

١٤ - إنهم دعوا إلى السياحة والخروج لا لطلب العلم ولا للجهاد في سبيل الله، ولكن خروج إلى البراري والقفار ولم يستصحبوا معهم زاداً ولا طعاماً، وسموه خروجاً على التوكل.

١٥ - الشطح والدعاوى، وادعاء الكرامات والمخاريق والشعبذة.

١٦ - إدعاؤهم رؤية الله والملائكة وأرواح الأنبياء والأولياء، والعروج إلى السموات.

فهذا يبين لك أن التصوف مرفوض إسماً ورسماً.

ولا عبرة بما يقوله بعضهم - ممن لا يوافق هذا المذهب - من أنه لا

مانع من إبقاء الإسم بحجة أنه لا مشاحة في الألفاظ. وأن محاربة الألفاظ والدعوة إلى إلغائها مشغلة ومضيعة للوقت. وإنما العبرة في محاربة المخالفات التي أتى بها الصوفية وحسب.

والجواب: إذا كان معلوماً أن التصوف لم يأت بنفع للمسلمين بل إنهم بما يضرهم في دينهم. فما المانع من نفي اسمه ورسمه، أليس معلوماً أن الأفعى لا تموت بقطع ذيلها وإنما بفصل رأسها عن جسدها؟.

ثم هب أن الشيوعيين أو الإشتراكيين أو البوذيين أو غيرهم من ملل الزندقة تسلل كل منهم إلى داخل الجسد الإسلامي بأسماء مختلفة، أيجوز القول لهم أيضاً: لا مشاحة في الألفاظ فاخرجوا أنتم ومذاهبكم، ولكن لا مانع من إبقاء مسماها عندنا!!!.

إذ العبرة في محاربة مضمون ما جئتمونا به لا بمحاربة ظاهر لفظه!!!.

ولو أنا فعلنا ذلك لدخل علينا من المسميات المستحدثة ما لا يحصيه إلا الله، ولأصبح الأمر مهزلة ومدعاة للسخرية أفكلما جاءنا عابث أو زنديق بمذهب جديد ألقينا بمذهبه خارجاً واستبقينا مسماه بيننا؟.

فلا تعود هناك مشاحة في لفظ «الجهمية»، ولا مانع من وجود جهميين، وإنما المانع هو اعتقاد مذهب جهم وأصحابه!!.

ولا مشاحة في لفظ «المعتزلة» وإنما العبرة في محاربة المذهب المعتزلي عينه! ولا مانع في بقاء لفظ «الجبرية» و«الرافضة» و«القدرية» و«الدهرية» وإنما العبرة في إلغاء مضمون ما تحتويه هذه المذاهب!!!.

ولئن كان شيخ الإسلام ابن تيمية يتمثل بقول أحد أعيان القضاة: «ليس للإسلام فلاسفة» حين قيل له بأن ابن سينا من فلاسفة الإسلام [1]

(١) مجموع الفتاوى ٩ / ١٨٦.

فلماذا لا يتخذ عين هذا الموقف نحو كلمة الصوفية فلا يقال (صوفية أهل الإسلام) قياساً على استحالة قول: (معتزلة أهل الإسلام) و(رافضة أهل الإسلام) و(جهمية أهل الإسلام) و(فلاسفة أهل الإسلام)؟!.

مصادر التصوف

والتصوف ليس امتداداً للسنة كما يقوله بعض المائلين إليه، وإنما هو مذهب له روافد متعددة، ومصادر مختلفة، إذ هو متأثر بالثقافات والديانات الأخرى كالهيلينية والغنوصية والأفلاطونية المحدثة عموماً، وبالمسيحية التي أخذت عن المصادر السالفة الذكر. وبالهندية والبوذية والفارسية.

المصدر المسيحي:

جاء الاسلام وأطاح بمجيئه نظريات الرهبنة والتبتل في الكهوف وقمم الجبال واعتزال المجتمعات. وبقي اسم الرهبنة في الاسلام، لكن صار له مفهوم آخر غير الذي دل عليه سابقاً. فقد صارت الرهبنة رمز الجهاد في سبيل الله. بعد أن كانت رمزاً للخلوات والتبتلات، وقطع العلائق.

ولما جاء رجل إلى النبي مستوصياً قال له النبي ﷺ: «وعليك بالجهاد، فإنه رهبانية الاسلام»(١).

لكن التصوف أعاد المفهوم السابق للرهبنة إلى الناس، وهو الخلوة واعتزال الناس وترك التزويج، وتطهير الروح عن طريق تعذيب الجسد، ولبس الصوف والخشن من الثياب عامة. وتجويع النفس لتطهيرها، والسياحة في البلاد.

ولهذا فإن الصوفية لم يجدوا حرجاً في الاستماع إلى مواعظ الرهبان،

---

(١) أخرجه أحمد ٣/٢٦٦ . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢/٨٧ .

وأخبار رياضاتهم الروحية والاستفادة منها، رغم أنها صادرة عن نصارى. ونحن نجد فعلاً كثيراً من أخبار رياضات الرهبان وأقوالهم في ثنايا كتب الصوفية وطبقاتهم. كطبقات الشعراني وجامع كرامات الأولياء للنبهاني وغيرها.

بل وفي الإحياء للغزالي ما يفيد حرص الصوفية على الاستفادة من رياضات رهبان النصارى. فقد نقل عن إبراهيم بن أدهم - وهو من سادات الصوفية - قوله:

«تعلمت المعرفة من راهب يقال له: سمعان. دخلت عليه في صومعته.

فقلت: يا سمعان! منذ كم أنت في صومعتك؟

قال: منذ سبعين سنة.

قلت: فما طعامك؟

قال: يا حنيفي وما دعاك إلى هذا؟

قلت: أحببت أن أعلم.

قال: في كل ليلة حمصة.

قلت: فما الذي يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة.

قال: ترى الدير الذي بحذائك؟

قلت: نعم.

قال: إنهم يأتوني كل سنة يوماً واحداً فيزينون صومعتي ويطوفون حولها ويعظموني. فكلما تثاقلت نفسي عن العبادة ذكرتها عزّ تلك الساعة. فأنا أحتمل جهد سنة لعزّ ساعة، فاحتمل يا حنيفي جهد الساعة لعزّ الأبد.

قال إبراهيم: «فوقر في قلبي المعرفة».

فقال: حسبك أو أزيدك؟

قلت: بلى.

قال: انزل عن الصومعة. فنزلت، فأدلى لي بركوة فيها عشرون حمصة...»(1).

وقال الغزالي أيضاً(2) بأنه لا وصول الى الله سبحانه وتعالى إلا بالترك عن الشهوات، والكف عن اللذات، والتجرد لله في الحركات والسكنات. ثم أثنى على انفراد رهابنة النصارى عن الخلق واعتزالهم في قمم الجبال توحشاً عن الخلق، وطلباً للأنس بالله عز وجل. وذكر أن الله أثنى عليهم لذلك بقوله: ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾ [المائدة ٨٢].

أضف الى ذلك أن الغزالي قد شحن كتابه بالروايات الكثيرة المنسوبة الى المسيح في التعبدات والأمثال والأحكام.

وأخيراً فكما أن المسيحية تشربت الحلول من مصادر أخرى، فإن التصوف عرف هذا الحلول عن طريق الحلاج وابن عربي وابن سبعين والتلمساني. لكن ليس حلول اللاهوت بناسوت المسيح كما قالته النصارى فحسب، وإنما حلول الله بكل الموجودات(3). يقول نيكلسون: «إن أثر المسيحية والفلسفة الأفلاطونية الحديثة والفلسفة البوذية عامل لا سبيل الى إنكاره في تكوين التصوف الاسلامي، وقد كانت هذه المذاهب والفلسفات متغلغلة في الأوساط التي عاش فيها الصوفية، فلم يكن بدّ من أن تترك طابعها في مذاهبهم؛ ولدينا أدلة كافية توضح أثرها في التصوف ومكانتها منه»(4).

---

(1) الإحياء ٣/٣٣٤.
(2) الاحياء ١/٢٦٦.
(3) وانظر ما يقوله الحلاج في هذا الحلول (تاريخ بغداد ٨/١٢٩):

سبحان من أظهر ناسوته ... سر سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا في خلقه ظاهراً ... في صورة الآكل والشارب

(4) تاريخ التصوف الاسلامي ٤٥ د. عبد الرحمن بدوي ط. وكالة المطبوعات - الكويت.

المصدر اليوناني:

وقد أخذ التصوف عن الفكر اليوناني بشتى مذاهبه وطرائقه المتعددة وكان أبرزها الفكر الغنوصي، والأفلاطوني المحدث.

أ- أما الغنوصية gnosis فإنها كلمة يونانية معناها: المعرفة. ولكنها تطورت حتى أخذت معنى اصطلاحياً هو: التوصل بطريقة الكشف الى المعارف العليا، أو تذوق المعرفة تذوقاً لا يستند الى برهنة عقلية. وهذا موجود عند الصوفية.

وقد ذهب بعض الباحثين من الأوروبيين الى انه ما دامت كلمة (صوفية) مستمدة من كلمة (سوفيا) اليونانية، فهذا يدل على أثر الفلسفة اليونانية في رجال الصوفية، وأن هؤلاء إنما كانوا تلامذة للأفلاطونية المحدثة - وبخاصة - غنوصها العنيف الذي استتر فيه حين نقل الى العالم الاسلامي في كل الغنوصات الشرقية(1)... فدخل الغنوص دوائر النظريات الفلسفية في الاسلام وشاع في النظريات الصوفية، وكان الغنوص سبباً في ظهور علم الكلام والمتكلمين وخاصة المعتزلة(2). بل وفي التفسير والحديث حسبما يرى الدكتور علي النشار(3).

وقد تلقى الصوفية الجوانب الباقية من الفكر الغنوصي عن طريق المثل والتعاليم المسيحية، حيث أن هذه التعاليم مشبعة تماماً بهذا الفكر.

ب- (الأفلاطونية المحدثة):

وإذا نظرنا في مذاهب الفيض الأفلوطيني نجد أن الله والعقل الأول

---

(1) نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ٣/٤٥ د. علي سامي النشار. دار المعارف. القاهرة ١٩٧٨.
(2) أنظر الفلسفة الصوفية في الاسلام للدكتور عبد القادر محمود ص ٥ ط دار الفكر العربي. القاهرة.
(3) نشأة الفكر الفلسفي ٣/٤٥.

والنفس الكلية والهيولي والنفوس الجزئية هي من مراتب الوجود في الأفلوطينية، وهذا ما نجده في مدرسة ابن عربي في الحقيقة المحمدية وعند ابن الفارض في وحدته الشهودية، وعند الاشراقية السهروردية والشيرازية التي تجعل الله نور الأنوار فياضاً بالأنوار القاهرة، وهي النفوس والعقول، والقول بالجواهر الناشئة عن الأنوار. وحتى المصطلحات التي يستعملها الصوفية في المثل أو المعاني الأزلية، كالحقيقة، وحقيقة الحقائق، والعلة والمعلول، والوحدة في الكثرة، والاتحاد. كل هذه تعود في أصلها الى الأفلاطونية المحدثة والتي تعود بدورها هي الأخرى الى الغنوص الشرقي والغربي.

لقد أخذ الصوفية نظرياتهم وفلسفاتهم من الجوهر الأفلوطيني وخاصة في المعرفة الاشراقية، التي تُلقى إلقاءً في النفس عند تحررها وتطهرها من الكدورات.

والتاسوع الخامس من تساعات أفلوطين - والذي أخذ عنه الغزالي في مشكاة الأنوار - يكفي دليلاً على ذلك. فإنه يقول فيه: (النفس التي لا تضاء بنوره تظل بغير رؤية) (فإذا استنارت فإنها تحتوي على كل ما تنشده. فترى الأسمى بالأسمى. ترى الأسمى الذي هو في الوقت نفسه وسيلة الرؤية لأن ما يضيء النفس هو نفسه الذي تريد رؤيته. كما أننا نرى الشمس بنور الشمس(1).

ويحكي لنا أفلوطين نفسه تجربته في حصول الاتحاد بينه وبين هذا الأسمى بقوله: «وقد حدث مرات عديدة أن ارتفعت خارج جسدي بحيث دخلت نفسي، كنت حينئذ أحيا، وأظفر باتحاد مع الله».

«يجب عليّ أن أدخل في نفسي، ومن هنا استيقظ. وبهذه اليقظة أتحد بالله».

---

(١) الفلسفة الصوفية في الاسلام ٣٢ - ٣٣.

«يجب عليّ أن أحجب نفسي عن النور الخارجي لكي أحيا وحدي في النور الباطن»(1).

ولذلك فإن أفلوطين والمتصوفة متفقون على أن «رياضة النفس» هي الشرط لحصول الاتصال بالله والاتحاد به واتفقوا في نظرهم الى الفيض والاشراق والمعرفة. ولكن مصدر أفلوطين كان هندياً بحتاً. حيث أن الهنود هم أول من قال بنظرية الفناء واتحاد العاشق في معشوقه.

يقول نيكلسون:

«إننا إذا نظرنا الى الظروف التاريخية التي أحاطت بنشأة التصوف بمعناه الدقيق، استحال علينا أن نرد أصله إلى عامل هندي أو فارسي، ولزم أن نعتبره وليداً لاتحاد الفكر اليوناني والديانات الشرقية، أو بمعنى أدق: وليد اتحاد الفلسفة الأفلاطونية الحديثة والديانة المسيحية، والمذهب الغنوصي»(2).

وإذا كان نيكلسون يرى استحالة كون العامل الهندي أو الفارسي مصدران من مصادر التصوف، فإنه يخالف هذا الرأي في موضع آخر من مقالاته، فقد صرح باحتمال رد بعض مصادر التصوف الى «الفيدانتا» الهندية. وذلك في مقاله بـ «دائرة معارف الدين والأخلاق»(3).

وإنه لمن الأكيد والثابت أن المذهب الهندي والفارسي كانا من جملة المصادر التي بنت التصوف.

المصدر الهندي:

لقد كان أبو الريحان البيروني أول من عقد مقارنات في المذاهب

---

(١) التاسوع الرابع. ترجمة Mckenna (نقلاً عن الفلسفة الصوفية في الإسلام ٣٣).
(٢) تاريخ التصوف الاسلامي ٤٥. بدوي.
(٣) مجلد ١٢ ص ١٠ - ١٧.

وكشف عن هذا التشابه بين مذاهب الهنود كا«لفيدانتا»، وبين مذاهب الصوفية، وكذلك بين «بيتنجل» وبين أقوال أبي يزيد البسطامي والحلاج والشبلي.

قال البيروني في كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة»:

«وإلى طريق بيتنجل ذهبت الصوفية في الاشتغال «بالحق»[1]، فقالوا: ما دمت تشير فلست بموحد حتى يستولي «الحق» على إشارتك بإفنائها عنك. فلا يبقى مشيرٌ ولا إشارة. ويوجد في كلامهم ما يدل على القول بالاتحاد، كجواب أحدهم عن «الحق»: «وكيف لا أتحقق مَنْ هو أنا بالأنية، ولا أنا بالأنية؟! إن عدتُ فبالعودة فُرِّقتُ، وإن أهملت فبالإهمال خففت وبالاتحاد ألفت». وكقول أبي بكر الشبلي: «إخلع الكل تصل إلينا بالكلية، فتكون ولا تكون أخبارك عنا وفعلك فعلنا». وكجواب أبي يزيد البسطامي - وقد سئل: بم نِلْتَ ما نلت؟ - فقال: «إني انسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها، ثم نظرت إلى ذاتي فإذا أنا «هو». وقالوا في قول الله تعالى: ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾: أن الأمر بقتل الميت لإحياء الميت إخبارٌ أن القلب لا يحيا بأنوار المعرفة إلا بإماتة البدن بالاجتهاد حتى يبقى رسماً لا حقيقة له. وقالوا: «إن بين العبد وبين الله ألف مقام من النور والظلمة. وإنما اجتهاد القوم في قطع الظلمة إلى النور. فلما وصلوا إلى مقامات النور لم يكن لهم رجوع»[2].

ويقارن البيروني بين ما في كتاب (GITA) من الاستغراق في الفكر، وبين ما تقوله الصوفية في تعريفهم للعشق الإلهي بأنه «اشتغال بالحق عن الخلق»[3].

---

(١) أي الله.

(٢) أبو الريحان البيروني: «تحقيق ما للهند من مقولة» ص ٤٣.

(٣) ص ٣٧. وتجدر الإشارة إلى أن أبا بكر الشبلي أُدخل «المارستان» مرتين بسبب جذبات التصوف (أنظر الاستقامة لابن تيمية ٢/١٦و٢٧).

ويقارن أيضاً بين ما ذهب إليه صاحب كتاب «بيتنجل» من أن «إفراد الفكرة في وحدانية الله يشغل المرء بالشعور بشيء غير ما اشتغل به... ومن بلغ هذه الغاية غلبت قوته النفسية على قوته البدنية، فمُنِحَ الاقتدار على ثمانية أشياء بحصولها يقع الاستغناء... وهذه الثمانية هي:

١- التمكن من تلطيف البدن حتى يخفى عن الأعين[1].
٢- التمكن من تخفيفه حتى يستوي عنده وطء الشوك والوحل والتراب.
٣- التمكن من تعظيمه حتى يريه في صورة هائلة عجيبة[2].
٤- انطواء المسافات بينه وبين المقاصد الشاسعة[3].
٥- التمكن من الارادات.
٦- التمكن من علم ما يروم.
٧- التمكن من الترأس على أي فرقة طلب.
٨- خضوع المرؤوسين وطاعتهم[4].

ثم يقول البيروني معلقاً:

«وإلى مثل هذا إشارات الصوفية في العارف إذا وصل إلى مقام المعرفة، فإنهم يزعمون أنه يحصل له روحان: قديمة لا يجري عليها تغيّر واختلاف، بها يعلم الغيب ويفعل المعجز. وأخرى بشرية للتغير والتكوين»[5].

---

(١) وهذا تقوله الصوفية في مشايخها، فيروون عن أحدهم أنه يظهر تارة في أدنى الأرض وتارة في أقصاها، وتارة يرى في مكانين مختلفين في وقت واحد.

(٢) وهذا ما تدعيه الصوفية أيضاً، فإن أحدهم ليكبر حجمه حتى يملأ غرفة بكاملها. وفي أخبار الصوفية وطبقاتهم من ذلك الشيء الكثير.

(٣) وهذا الاعتقاد منتشر بين الصوفية، فإنهم يروون أخباراً عن مشايخهم عجيبة مفادها أن الواحد منهم يصلي الفجر في المدينة والظهر في مكة والعصر في بيت المقدس ويتنقل بين أقصى الأرض وأدناها في لحيظات يسيرة.

(٤) وهذا قريب أيضاً من سلطة الشيخ الولي ومكانته عند المريد، وطاعة هذا الأخير له حتى ولو على معصيته.

(٥) تحقيق ما للهند من مقولة ٣٤.

قلت وهذا من تقسيمات الغزالي أيضاً. فإنه يقسم الروح الى بهيمية، وهي ما توجد في الانسان وفي سائر المخلوقات كالحيوانات ونحو ذلك. وأمرية، وهي التي تتعلق بعالم الأمر والملكوت.

هذا ويظهر أن الهنود شديدو التأثر بالايحاء الشخصي (تأثير الشخص في نفسه) حتى لقد زادوا على ما يتطلبه التصوف، لذا فإنهم قد وافقوا التصوف في كل أشكاله. حتى إن فلاسفة اليونان قد أخذوا عنهم الكثير من الآراء والتعاليم وبالأخص عن الفيدانتا.

على أن التصوف مبني عند الهنود على فكرة «التناسخ» وهي انتقال الروح من جسد الى آخر.

فالهندوكي يعتقد أن تقلب «النفس العاقلة» من جسد إلى آخر أمر مزعج لها. وأنه حال من أحوال الشقاء. لذا فإنك تراه يحاول أن يتخلص من استعباد الجسد لهذه النفس فيعرضه لشتى أنواع العذاب حتى تكمل إرادة النفس على الجسد، ليتمكن من توصيلها بعد ذلك إلى الفناء.

وإذا انتقلنا الى مذهب البراهمة - وهم حكماء الهنود - رأينا أن الكهنة البرهميين يطلبون - عن طريق التأمل والاعتبار - «كمالاً روحياً يعتقدون أنهم يستطيعون به التقرب من الله. بل إن الله بذاته يحضر في قلوبهم وفي ضمائرهم، ولذلك تتوق النفس الى الاتحاد به»(1).

وكثيراً ما ينطق أصحاب هذا المذهب بالجملة: «ذلك الذي أنت» هذه الجملة التي تفضح الحقيقة الأساسية للوجود: الوحدة التي لا تتجزأ حتى ليقول أحدهم: أنا براهما (الله). كما روي عن الحلاج قوله: أنا الحق (الله)(2).

---

(1) التصوف في الاسلام ٣٨ - ٣٩ للدكتور عمر فروخ ط دار الكتاب العربي.

(2) ص ٣٩ .

ويشبه هذا ما يقوله البوذية: (النرفانا) فإنهم يرون أيضاً أن هذا الوجود إنما هو عذاب وشقاء فيتجه نحو الانعدام والانمحاء بالأمدي.

ولذلك فإن بعض التعابير الصوفية عند النرفانا البوذية مستعارة من البراهمة الهنود. غير أن النرفانا الكبرى، وهي آخر مرحلة عند البوذي - وبها يدخل في الفناء الأبدي ولا يعود الى الحياة -. فإنها تخالف المذهب البراهمي من حيث عودة الروح إلى أجساد أخرى عند البرهمية بخلاف البوذي الذي يدخل بعد موته الى النيرفانا الكبرى ولا يعود إلى الحياة بعدها أبداً.

وعلى هذا «نرى أن التصوف الإسلامي قد تأثر بالاتجاه الهندي عموماً - والبرهمي منه خصوصاً - ولكن لم يتأثر بفلسفة الحياة البوذية وإن كان قد أشبهها في بعض مراحلها - في الفناء مثلاً، وفي الرياضة، وفي أن بوذا يحض على تأكيد العنصر الشخصي في طلب الحقيقة، ويعتقد أن الذي يتطلّب الحقائق بالتقليد - بالتعلم أو التلقن - لا يستطيع أن يعرفها»(1).

إذن فالقول بالفناء الذي يدين به الصوفية هندي بحت، وحتى الطريقة الممهدة لحصول هذا الفناء - وهي طريقة الرياضة، ومخالفة ما يتطلبه الجسد عن طريق تعذيبه وحرمانه - هي طريقة هندية أخذها الصوفية عنهم، وجعلوها عمدتهم في مدافعة الجسد في التكاسل عن طلب التعبد. وهذا ليس بسر فالصوفية يصرحون بذلك ويشيرون إلى عبادة الهنود، ورياضاتهم ويتمثلون بها مما يؤكد أخذهم عن هذا المصدر.

ولقد صرح الغزالي بذلك قائلاً:

«وعبّاد الهند يعالجون الكسل عن العبادة بالقيام طول الليل على رجل واحدة لا ينتقل عنها». «وبعض الشيوخ في ابتداء إرادته كان يكسل عن

---

(1) التصوف الاسلامي ٤١ .

القيام فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل ليسمح بالقيام على الرجل عن طوع. . . فهذه الأمثلة تعرّفك طريق معالجة القلوب»!.

وفي الميزان: «فهذا طريق جملي في تهذيب الأخلاق»[1].

المصدر اليهودي:

من الملاحظ أن جولدتسيهر اليهودي هو حامل راية تأثر التصوف الاسلامي باليهودية لكن من المؤكد أن بعض اليهود - سواء من دخل الاسلام منهم بنية المكر ومن لم يدخل فيه - هم الذين تسببوا في الغلو الشيعي منذ عهد السبئية، وهم الذين راموا وضع الأحاديث المكذوبة ودسها في كتب المسلمين.

وإنك لتجد آثارهم جلية في نظرية تناسخ الجزء الإلهي في الإمام علي، وتسلسل النور المحمدي من لدن محمد إلى آدم الى الأنبياء والمرسلين. ذلك التسلسل الذي مضى مع الأئمة المعصومين، والذي وضع هالة من التقديس والغلو عرفت طريقها إلى الأقطاب الصوفية، ووقع المتصوفة بسببها إلى ما يشبه غلو الشيعة في أئمتهم.

ويذكر ابن خلدون بأن هذا الغلو في مشايخ الصوفية عرفه المتصوفة عن طريق الغلو الشيعي في الأئمة[2]، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإننا:

«إذا تفحصنا «فيلون» الفيلسوف الصوفي اليهودي السكندري الذي ولد بالاسكندرية نحو عام ٢٠ أو ٣٠ قبل الميلاد، وتوفي بعد عام ٥٤ من الميلاد في عصر الحواريين، وكان يلقب «بأفلاطون» اليهود. فإننا ندرك مدى تأثر الدوائر الصوفية في الاسلام بالمصدر اليهودي الشرقي، الذي كان

(١) ميزان العمل ٥٣ ، إحياء علوم الدين ٦٢/٣ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ٤٧٣ .

...الأثر في الأفلوطينية المحدثة والدوائر المسيحية، وبالتالي في الدائرة الاسلامية والفكر الاسلامي»[1].

«وإن فيلون يؤكد في نظريته المتقاربة من الهيلينية[2]: ان اللامتناهي الذي لا يمكن حصر صفاته عكس المتناهي المحصور الصفات (والله هو اللامتناهي، فإنه يشمل كل الصفات الكمالية من جهة، ومن حيث كان هو اللامتناهي فإنه يشمل كل هذه الصفات اللامتناهية بدرجة لامتناهية. وعلى جهة أخرى فإنه يشمل... هذا والعقل الانساني غير قادر على إدراك اللامتناهي في صفاته الكمالية اللامتناهية بدرجة لامتناهية)[3].

ومن هنا نجد المدخل الدقيق للحدس أو الذوق الصوفي، الذي يتوق لما فوق العقل، وهو ما نلمسه قوياً في الأفق الصوفي الاسلامي بعد المسيحي والأفلوطيني عن المصدر الشرقي اليهودي. وقد فلسف «فيلون» نظرية اللوغوس التي عبرت النظرية المسيحية الى الدوائر الاسلامية عبر الأفلوطينية في نظرية الوسائط التي أخذها هو - فيلون - عن نظرية أفلاطون في الصور، النماذج الأفلاطونية، أو عن القوى العنصرية السائدة في الطبيعة، كما في النظرية الرّواقية، وهي الملائكة في النظرية اليهودية، أو الجن كما في النظرية اليونانية الشعبية»[4].

«أما كيف تأثر فيلون بالرواقية وطور فيها لدى نظرية اللوغوس، فقد نقل عنهم أن الكلمة كأساس هي الله، وهي القوة الحافظة لجميع الأشياء، والقوة التي تسود الموجودات جميعاً كموجدة وحافظة في وقت واحد، ثم طور هذا بأن قال بأنها «حالّة» في كل مكان وباطنة في جميع الموجودات أما القوة التي تربط بين هذه الانفصالات وتجعل الموجودات في «وحدة»

(١) أنظر الفلسفة الصوفية في الاسلام ٢١ - ٢٤ .
(٢) وفي هذه النقطة يخالف الرأي الهيليني بأن اللامتناهي أحط درجة من المتناهي .
(٣) الفلسفة الصوفية في الاسلام ٢٤ .
(٤) ص ٢٥ .

فهي «اللوغوس»، وهذا المذهب في الكلمة هو مذهب «وحدة الوجود» في الأفق الاسلامي الصوفي »(١).

وهذا التصوف «الفيلوني» مستمد - حسبما يقوله بريهييه - من الأوساط المصرية القديمة - قبل الميلاد - التي جمع منها بلوتارك أفكاره الواردة في رسالة «إيزيس». فقد عرفت نظرية مصرية يرجع عهدها الى القرن الثامن قبل الميلاد أن اللوغوس «فتاح» بعد أن نظم العالم عاد الى الله الأسمى بحكم أنه مشترك معه في الجوهر والعنصر. وهذا يؤكد قيمة المصدر المصري وأثره في الفلسفة الرواقية واليهودية والمسيحية ثم الإسلامية في الدوائر الصوفية الفلسفية»(٢).

هذا ما ذكره الدكتور عبد القادر محمود، لكنه لا يستفاد من كلامه هذا ما يؤكد تأثر التصوف الاسلامي بفيلون اليهودي، لأنه استقى نظريته من الرّواقية والهيلينية ولم يأت بجديد، وهما مصدران تأثرت بهما المسيحية بواسطة عوامل أخرى غير فيلون.

ثم إن نيكلسون قد اعترف بتأثر التصوف في الاسلام بالمصدر الهيليني المتأخر، في الوقت الذي يستبعد فيه هو وماسينيون حصول اي تأثر صوفي من مصدر ما يهودي(٣).

لكن ما يستثنى من هذا النفي ما ذكرناه في أول الكلام عن المصدر اليهودي. وهو أن الغلو الشيعي وكثرة وضع الأحاديث الملفقة الداعية الى تقديس الأئمة، والقول بتناسخ الجزء الالهي في علي رضي الله عنه وتقديس أبنائه - الأئمة - من بعده، كان وراء ذلك كله أصابع يهودية لعبت الدور الأكبر في وقوع هذا الغلو الذي أخذه المتصوفة وغلوا به في أقطابهم وأبدالهم وأوتادهم.

---

(١) ن. م. ص.
(٢) الفلسفة الصوفية في الاسلام ٢٦ - ٢٨.
(٣) أنظر التصوف في الإسلام ٣٧ د. عمر فروخ.

الفصل الثاني

التصوف

هل هو منقذ من الضلال؟

قال الغزالي:

«ثم إني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس. والتنزه عن أخلاقها المذمومة، وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى، وتحليته بذكر الله.

وكان العلم أيسر عليّ من العمل، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم، مثل قوت القلوب لأبي طالب المكي رحمه الله، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي، وأبي يزيد البسطامي قدس الله أرواحهم. وغير ذلك من كلام مشايخهم، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية. وحصلت ما لا يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع، فظهر لي أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم. بل بالذوق والحال وتبدل الصفات». وأضاف: «فعلمت يقيناً أنهم

أرباب الأحوال، لا أصحاب الأقوال، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم، بل بالذوق والسلوك»[1].

بعد هذه الجولة التي خاضها الغزالي مع الأصناف الأربعة، وجد أن ثلاثة منها باطلة أما الصنف الرابع منها ـ وهو التصوف ـ فإنه هو الحق الذي كان ينشده والذي سماه بـ«المنقذ من الضلال».

ولكن هل كان الأمر كذلك؟ وهل الصوفيون هم أصحاب الفرقة الناجية المستثناة من بين ثلاث وسبعين فرقة؟ إن مراجعة كتب الغزالي ـ وأبرزها الأحياء ـ التي كتبها بعد سلوكه التصوف تفيد عكس ما ذهب إليه.

وما عليك إلا مقارنة دعواه هذه، بالعجائب التي نقلتها من إحيائه ـ وغيره من مصنفاته ـ لتجد حقيقة هذه الطريقة ومدى تأثيرها فيه.

ومعلوم أن الصوفية ليسوا من أرباب الحديث، ولا طالبي العلم.

وقد أكد الغزالي على ذلك حين قال عن الصوفية بأنهم لا يتعلمون ولا يحرصون على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون، وإنما علومهم مختصرة من طريق النبوة، وسع في قلوبهم بواسطة ملك.

فحالة القوم تتنافى تماماً مع مبدأ طلب العلم والحديث الذي تميز به أهله كالشافعي وأحمد ومالك وغيرهم من أهل الآثار والسنن النبوية والذين أنقذهم الله من الضلال بواسطة هذه الطريق. ومن العجب أن لا يذكرها الغزالي مطلقاً ولا يضع مجرد احتمال أن تكون هي المنقذة من الضلال، ولا يعتقد مجرد احتمال كونها طريقاً منقذاً من الضلال.

يقول في ذلك ابن تيمية رحمه الله:

---

(1) المنقذ من الضلال ٤٣ ـ ٤٤.

«وقد اعترف الغزالي بأن طريق الصوفية هو الغاية، لأنهم يطهرون قلوبهم مما سوى الله، ويملأونه بذكر الله. وهذا مبدأ دعوة الرسل.

لكن الصوفي الذي ليس معه الآثار النبوية مفصلة يستفيد بها إيماناً مجملاً، بخلاف أصحاب الاثارة النبوية، فإن المعرفة عنده مفصّلة».

«ولكن هو [أي الغزالي] لم يعرف طريقة أهل السنة والحديث من العارفين، فلهذا لم يذكرها، وهي الطريقة المحمدية المحضة، الشاهدة على جميع الطرق»[1].

«ولم يتنازع أهل العلم والايمان فيما استفاض عن النبي ﷺ من قوله:

«خير القرون القرن الذين بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم»[2]. قال ابن تيمية:

«وكل من له لسان صدق من مشهور بعلم أو دين معترف بأن خير هذه الأمة هم الصحابة. وأن المتبع لهم أفضل من غير المتبع لهم، ولو لم يكن في زمنهم أحد من هذه الأصناف الأربعة. ولا تجد إماماً في العلم والدين كمالك والأوزاعي والثوري وأبي حنيفة والشافعي.. وأمثالهم إلا وهم مصرحون بأن أفضل علمهم ما كانوا فيه مقتدين بعلم الصحابة وأفضل عملهم ما كانوا فيه مقتدين بعمل الصحابة».

«وهم يرون أن الصحابة فوقهم في جميع أبواب الفضائل والمناقب، والذين اتبعوهم من أهل الآثار النبوية، وهم أهل الحديث والسنة العالمون بطريقهم، المتبعون لها. وهم أهل العلم بالكتاب والسنة في كل عصر ومصر».

---

(1) مجموع الفتاوى ٢/٥٦ ـ ٥٧.

(2) أخرجه مسلم ح (٢٥٣٥).

«فهؤلاء الذين هم أفضل الخلق من الأولين والآخرين لم يذكرهم أبو حامد، وذلك لأن هؤلاء لا يعرف طريقهم إلا من كان خبيراً بمعاني القرآن خبيراً بسنة رسول الله ﷺ خبيراً بآثار الصحابة، فقيهاً في ذلك، عاملاً بذلك.

«وهؤلاء هم أفضل من المتسببين إلى العلم والعبادة. وأبو حامد لم ينشأ بين من كان يعرف طريقة هؤلاء، ولا تلقى عن هذه الطبقة، ولا كان خبيراً بطريقة الصحابة والتابعين. بل كان يقول عن نفسه: «أنا مزجي البضاعة في الحديث».

«ولهذا يوجد في كتبه من الأحاديث الموضوعة والحكايات الموضوعة ما لا يعتمد عليه من له علم بالآثار»(١).

والغزالي قد حصر الحق في أربع فرق استقت علومها من مشكاة الفلاسفة اليونانيين وغيرهم. فالفلاسفة والمتكلمون أخذوا عن أرسطاطاليس وأفلاطون وفيثاغورس وغيرهم. والصوفية أخذوا عن الأفلاطونية المحدثة، والرواقيين، والفكر الغنوصي وفلاسفة الاشراق. فضلاً عن علوم الهند وفارس وبوذا. والباطنية مما ذكرناه من المصادر عامة.

ومن ينظر الى المراحل التي خاضها الغزالي في البحث عن الحق، والمصاعب والعقبات التي اعترضته في سبيل ذلك، يتوهم صعوبة إدراك الحق والوصول إليه. بينما الأمر عكس ذلك تماماً فإن الأمر بيّن، والحجة ظاهرة، وقد تركنا رسول الله ﷺ على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، وإن ادعى الاستقصاء والتحري لطلب الحق. فالحق ليس على مثل هذا الخفاء! ولا يرتجى تحصيله بين أصناف المبتدعة. وإن بضع كلمات فقط من كلام النبي ﷺ لتظهر السهولة في تحصيل هذا الحق.

---

(١) شرح العقيدة الأصفهانية ١٢٨.

قال: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة نبيه»(١).

ولعلك تعجب حين تراه وهو يثني عليهم ثناء يتخيل معه أنهم هم الطائفة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة كقوله:

«إني علمت يقيناً أن الصوفية هم السابقون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق. بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً. فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به»(٢).

بينما هو يعترف بأن في التصوف ميل عن أكثر ظواهر الشرع(٣)!

وما أن بدأ بالتكلم عن بداية سلوك التصوف وأحوال الصوفية حتى كان ذلك بداية عجائبه وميله عن كثير من الأمور الشرعية.

فبدا يتكلم بالكشف وحصول العلم الرباني ورؤية الملائكة والملكوت، ورؤية ما يضيق نطاق النطق عن التصريح به، ولعلك تفطن إلى ما يلمح إليه.

بداية طريق الصوفية:

يقول الغزالي:

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ ٨٩٩ وقال فيه الألباني وهو معضل كما ترى لكن له شاهد من حديث ابن عباس بسند أخرجه الحاكم.

(٢) المنقذ من الضلال ٤٩ - ٥٠.

(٣) ميزان العمل ١٠١.

«ومن أول الطريقة تبتدىء المكاشفات والمشاهدات، حتى انهم [الصوفية] في يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد. ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال الى درجات يضيق عنها نطاق النطق. فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه»(١).

ولذلك فإن أبا بكر ابن العربي قد صرح - وهو ممن يعرفون الغزالي جيداً - بأن أبا حامد: «كان تاجاً في همة الليالي وعقداً في لبة المعالي، حتى أوغل في التصوف، وأكثر معهم التصرف، فخرج على الحقيقة، وخرج في أكثر أحواله عن الطريقة.

وجاء بألفاظ لا تطاق، ومعانٍ ليس لها مع الشريعة انتظام ولا اتساق. فكان علماء بغداد يقولون: لقد أصابت الاسلام فيه عين»(٢).

أما ابن الجوزي فإنه ذكر أشياء من عجائب الصوفية وتلبيساتهم وخروجهم عن جادة الشرع ثم قال:

«وجاء أبو حامد فصنف لهم كتاب الاحياء على طريقة القوم(٣) وملأه بالأحاديث الباطلة، وهو لا يعلم بطلانها.

وتكلم في علم المكاشفة، وخرج عن قانون الفقه، وقال إن المراد بالكوكب والشمس والقمر اللواتي رآهن إبراهيم صلوات الله عليه، أنوار هي حجب الله عز وجل، ولم يرد هذه المعروفات. وهذا من جنس كلام الباطنية، وقال في كتابه المفصح بالأحوال(٤): إن الصوفية في يقظتهم

---

(١) المنقذ ٥٠ .

(٢) العواصم من القواصم ٨١ - ٨٢ (نقلاً عن كتاب : ابن تيمية والتصوف ٢٨١ للدكتور مصطفى حلمي) .

(٣) أي الصوفية .

(٤) هو نفس كتاب المنقذ من الضلال .

يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتاً، ويقتبسون منهم فوائد. ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق»(١).

وهذا ما يحصل في بداية الطريق كما قال الغزالي.

أما الخطوة التي تلي ذلك فهي أخذ العلوم وكشف الحقائق من المشكاة التي أخذ منها الأنبياء، وذلك يحصل بالخلوة والعزلة.

يقول الغزالي:

«ومما بان لي بالضرورة من ممارسة طريقتهم «حقيقة النبوة وخاصيتها»، ولا بد من التنبيه على أصلها لشدة الحاجة إليها»(٢).

هل يعني ذلك أن حقيقة النبوة وخاصيتها تنال من طريق التصوف؟

هل حقاً ما قيل عن الغزالي بأن كلامه مفضٍ الى الانتقاص من رتبة النبوة؟

هل حقاً ما قيل عنه بأنه جعلها مكتسبة للخلق كلهم وليست مقصورة على الأنبياء - كما اتهمه المازري وغيره بذلك؟

لمعرفة هذه المسألة، لا بد من متابعة آراء الغزالي في باب «حقيقة النبوة» - ضمن كتابه: المنقذ من الضلال - وفي مواضع أخرى كالاحياء وغير ذلك.

وسنناقش ذلك في فصول لاحقة.

---

(١) تلبيس إبليس ١٦٦ .

(٢) المنقذ ٥١ .

الفصل الثالث

حَقيقة النّبوّة عند الغزالي وَالصّوفيّة

انتقاص التصوف من مرتبة النبوّة

ذكرت في الفصل السابق قول الغزالي أنه: عند بداية سلوك طريق التصوف تبتدىء المشاهدات والمكاشفات حتى إن السالك ليتمكن من رؤية الملائكة - في يقظته - وأرواح الأنبياء، ويسمع منهم أصواتاً ويقتبس منهم فوائد.

ثم يترقى الحال عنده من مشاهدة الصور والأمثال الى درجات. ولم يذكر ما هي هذه الدرجات، وإنما اكتفى بالقول: بأنه «يضيق عن ذكرها نطاق النطق»[1].

وإذا كانت هذه الأمور تحصل في بداية سلوك طريق التصوف، فما الذي يحصل عند استمرار هذا السلوك؟ يذكر الغزالي أن الله يخلق في

---

(1) المنقذ من الضلال ٥٠ .

الانسان حواس اللمس والبصر والسمع والذوق، ثم يخلق له العقل، ومن هذا الأخير يقول الغزالي:

«ووراء العقل طور آخر تنفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل وأموراً أخر العقل معزول عنها كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات، وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز. وكما أن المميز لو عرضت عليه مدركات العقل لأباها واستبعدها، فكذلك بعض العقلاء أبى مدركات النبوة واستبعدها، وذلك عين الجهل. إذ لا مستند له إلا أنه طور لم يبلغه ولم يوجد في حقه، فيظن أنه غير موجود في نفسه»[1].

ويضيف قائلاً:

«وقد قرّب الله تعالى ذلك على خلقه بأن أعطاهم أنموذجاً من خاصية النبوة، وهو النوم، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب إما صريحاً، وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير».

«فكما أن العقل طور من أطوار الآدمي يحصل فيه عين يبصر بها أنواعاً من المعقولات والحواس معزولة عنها، فالنبوة أيضاً عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور، يظهر في نورها الغيب وأمور .لا يدركها العقل»[2].

إذن فالعقل لا يمكنه إدراك هذه الكشوفات ولذلك فقد ينكرها، أما عين النبوة - المبصرة للغيب فإنها ممكنة الادراك، وهذا الادراك يحصل من سلوك طريق التصوف. وهذا ما يقرره الغزالي مؤكداً بأن حقيقة النبوة لا تنال بالعقل، وأن من بحث عنها يعلم بالضرورة أنها: «لا تدرك إلا بإلهام إلهي، وتوفيق من جهة الله تعالى».

(١) المنقذ من الضلال ٥٣ .
(٢) المنقذ من الضلال ٥٣ - ٥٤ .

لكنه لم يجعل إدراك هذه الحقيقة النبوية مقصوراً على الأنبياء وحدهم، وإنما ذكر هذا كله ليبين أمراً مهماً وهو ان اي إنسان يملك انموذجاً من خاصية النبوة: وهو ما يدركه في نومه. ولنتابع كلام الغزالي في ذلك حيث يبيّن:

«أن في الإمكان وجود طريق لإدراك هذه الأمور التي لا يدركها العقل - وهو المراد بالنبوة - لا أن النبوة عبارة عنها فقط.

بل إدراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل إحدى خواص النبوة. ولها خواص كثيرة سواها. وما ذكرنا فقطرة من بحرها. وإنما ذكرناها لأن معك نموذجاً منها، وهو مدركاتك في النوم. . . ولا سبيل إليها ببضاعة العقل اصلاً».

«وأما ما عدا هذا من خواص النبوة فإنما يُدرك بالذوق من سلوك طريق التصوف»[1]. وأول من يدرك خاصية الأنبياء في تلقي الوحي، فإنهم الأولياء وأصحاب المعارف الذين يقرن اسمهم باسم الأنبياء دائماً فيما يتعلق بهذا الباب كقوله:

«بل قد تتمثل «للأنبياء والأولياء» في اليقظة والصحة صورة جميلة محاكية لجوهر الملائكة، وينتهي إليهم «الوحي والإلهام» فيتلقون من أمر الغيب في اليقظة ما يتلقاه غيرهم في النوم وذلك لشدة صفاء باطنهم»[2].

وعندما قسم الغزالي الهداية على ثلاث مراتب، قال في معرض تعريفه للمرتبة الثالثة بأنها: «النور الذي يشرق في عالم الولاية والنبوة، فيهتدى به إلى ما لا يهتدى إليه ببضاعة العقل الذي به يحصل التكليف وإمكان التعلم»[3].

(١) المنقذ من الضلال ٥٤ .
(٢) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ١٣٠ (ضمن سائل القصور العوالي) .
(٣) ميزان العمل ٧٥ .

وعن مراتب العلم الإلهامي يقول الغزالي:

«وفي هذا العلم تتباين منازل العلماء والحكماء ـ والأولياء والأنبياء وبحسب التفاوت تتفاوت مناصبهم. ودرجات الرّقي غير محدودة، ولا محصورة. وأقصى الرتب درجة النبي الذي ينكشف له كل الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلف، بل بكشف إلهي في أسرع وقت...».

«فلا يعرف عاقل ما انفتح لأولياء الله وأنبيائه من مزايا لطفه ورحمته (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها)[1].

ثم يذكر أمراً خطيراً، وهو أن هذا الالهام ليس مقصوراً على الأولياء والأنبياء دون باقي أصناف البشر، وإنما هو لكل مجتهد وطارق لهذا الباب. يقول:

«فهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود الالهي، غير مضنون بها على أحد. ولكن لا بد من الاستعداد للقبول بتزكية النفس وتطهيرها عن الخبث والكدورة»[2].

ويقول أيضاً:

«ولا تحسب أن هذا خاص بالأنبياء والأولياء، لأن جوهر ابن آدم في أصل الخلقة موضوع لهذا.

والأنبياء والأولياء هم بنو آدم. قال سبحانه وتعالى: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾.

فكل من زرع حصد، ومن مشى وصل، ومن طلب وجد، والطلب لا يحصل إلا بالمجاهدة»[3]. بل إن الغزالي يحذر من عدم طلب هذه

(١) ميزان العمل ٢١ ـ ٢٢ .
(٢) ميزان العمل ٢٢ .
(٣) كيمياء السعادة ٩١ ـ ٩٢ (ملحق بالمنقذ من الضلال) .

الرتبة بقوله أن: من لم يكن له نصيب من هذا العلم فإنه يخاف عليه سوء الخاتمة»[1].

ويذكر أن: «معرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارة تكون بنور إلهي في القلب، يحصل بالفطرة كما كان للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين»[2].

إذن فالفطرة البشرية قابلة لتلقي هذا الوحي كما تلقاه الأنبياء، ولكن، كيف السبيل الى تلقي هذا العلم الذي تلقاه الأنبياء من قبل؟

يجيب الغزالي على ذلك بقوله:

«وحقيقة القول ان القلب مستعد لأن تتجلّى فيه حقيقة الحق في الأشياء كلها. وإنما حيل بينه وبينها بالأسباب الخمسة التي سبق ذكرها[3]. كالحجاب المسدل الحائل بين مرآة القلب وبين اللوح المحفوظ الذي هو منقوش بجميع ما قضى الله به إلى يوم القيامة. وتتجلى حقائق العلوم من مرآة اللوح في مرآة القلب يضاهي انطباع صورة من مرآة في مرآة تقابلها. والحجاب بين المرآتين تارة يزال باليد، وأخرى يزول بهبوب رياح تحركه، وكذلك قد تهب رياح الألطاف، وتنكشف الحجب عن أعين القلوب، فيتجلى فيها بعض ما هو مسطور في اللوح المحفوظ، ويكون ذلك تارة في المنام، فيعلم به ما يكون في المستقبل»!

ويضيف قائلاً: «فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر، وفاض على صدورهم النور، لا بالتعلم والدراسة، والكتابة للكتب، بل بالزهد في الدنيا، والتبري عن علائقها، وتفريغ القلب من شواغلها، والاقبال بكنه

(١) الاحياء ١٩/١ .
(٢) الاحياء ٢٦/٤ .
(٣) سيذكرها لاحقاً .

الهمة على الله تعالى، فمن كان لله كان الله له»[1].

إذن فمعنى ذلك أن علم التصوف علم مستقل بنفسه مستغن عن العلوم الاكتسابية التي يسلكها العلماء عادة، ومصادرة مستقله، وهي أرفع مقاماً من المصدر الكسبي من حيث تحصيلها بواسطة ملك أو التشرف بالنظر الى اللوح المحفوظ، أو التلقي عن الله مباشرة، وبلا واسطة، والمطلوب لذلك تصفية القلب من الذنوب والكدورات التي هي حاجب عن هذه الرؤية.

والغزالي يرى أن العلوم تجد سبيلها الى قلب العالم عن طريق الحواس، لكنها تتفجر من داخل قلب العارف عن طريق الانعكاس الذي يحصل من اللوح المحفوظ. يقول: «فإن قلت: فكيف يتفجر العلم من داخل القلب وهو خال؟

فاعلم أن هذا من عجائب أسرار القلب ولا يسمح بذكره في علم المعاملة... إن القلب قد يتصور أن يحصل فيه حقيقة العالم وصورته تارة من الحواس وتارة من اللوح المحفوظ، كما أن العين يتصور أن يحصل فيها صورة الشمس تارة من النظر إليها وتارة من النظر إلى الماء الذي يقابل الشمس ويحكي صورتها.

فمهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ رأى الأشياء فيه وتفجر إليه العلم منه، فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحواس، فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الأرض»[2].

ولذلك فللقلب بابان:

باب مفتوح الى عالم الملكوت، وهو اللوح المحفوظ.

---

(١) الإحياء ٣/١٨ ـ ١٩ .
(٢) الاحياء ٣/٢٠ ـ ٢١ .

وباب مفتوح الى الحواس الخمس المتمسكة بعالم الملك والشهادة».

والباب الأول تحصل به عند الغزالي مطالعة اللوح المحفوظ. «يحصل التأمل في عجائب الرؤيا واطلاع القلب في النوم على ما سيكون في المستقبل أو كان في الماضي من غير اقتباس من جهة الحواس. وإنما يتيح ذلك لمن انفرد بذكر الله تعالى. وجعل قوله ﷺ: سبق المفرّدون شاهداً على كلامه الذي حاكى به الفلاسفة وآراءهم.

وهنا يخلص الى نتيجة مهمة وهي:

«ان الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء ـ وبين علوم العلماء والحكماء: هو ان العلوم تحصل للأولياء والأنبياء من الباب الباطن. أي من داخل القلب، من الباب المنفتح إلى عالم الملكوت»[1].

ولعلك تلحظ بعد كل ما ذكرته لك أن ما يدعيه الغزالي من الكشوفات الصوفية إنما هو انتقاص من مرتبة النبوة، ودعوة عامة للجميع الى تسلقها وارتقائها. وهذا الرأي له خطورته التي قد تفوق خطورة الرأي الباطني القائل بفيضان العلوم الموحاة الى الامام المعصوم. حيث أن عدد الأئمة الموحى إليهم عند الباطنية لا يتعدى الاثني عشر إماماً.

أما عدد الأولياء الذين يتلقون العلوم الكشفية فإنه لا حصر له البتة. إذ باب الوحي مفتوح على مصراعيه، وما عليك إلا أن تصفي قلبك من الكدورات وتنقيه من المعاصي. ثم تخلو بنفسك في زاوية وتفتح عين الباطن، جاعلاً قلبك في عين الملكوت حتى تنفتح لك تلك الطاقة، وتظهر لك أرواح الملائكة والأنبياء، والصور الحسنة الجميلة الجليلة فينكشف لك ملكوت السموات والأرض، وترى ما لا يمكن وصفه ولا شرحه![2].

---

(١) الإحياء ٣/٢٠ .
(٢) أنظر كيمياء السعادة ٨٨ (ملحق بالمنقذ من الضلال).

فتزكية النفس هنا وتطهيرها ومحو كل العلائق الردية والشهوات عنها، والتي تربطها بالجنبة السافلة ـ هو الشرط لإزالة الحجاب بينها وبين اللوح المحفوظ.

حتى إذا محقت تلك العلائق الردية أو ضعفت حوذي بها نحو النظر في الحقائق الالهية. فتفيض عليها من جهة الله تعالى تلك الأمور الشريفة كما فاضت على الأولياء والأنبياء والصديقين»[1].

«ومن ثم يخلو المرء بنفسه في زاوية مقتصراً من العبادة على الفرائض.. ثم ينقطع اختياره. فلا يبقى له إلا الانتظار لما يظهر له من فتوح ظهر مثله للأولياء، وهو بعض ما يظهر للأنبياء قد يكون أمراً كالبرق الخاطف لا يثبت، ثم يعود، وقد يتأخر... ومنازل أولياء الله فيه لا تحصى لتفاوت خلقهم وأخلاقهم».

وبعد هذا الشرح من الغزالي لبيان طريقة حصول الوحي الذي يظهر على الأنبياء والأولياء، يختم هذا الشرح بقولـه:

«فهذا منهج الصوفية»[2].

وقد تصدى ابن تيمية لمحاولة مساواة الأولياء بمنزلة الأنبياء قائلاً بأنه: «لا يزال الأولياء[3] مع الأنبياء في إيمان الغيب، ولا يتصور أن الولي يُعطى ما أعطيه النبي من المشاهدة والمخاطبة.

وأفضل الأولياء أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ونحوهم، وليس في هؤلاء من شاهد ما شاهده النبي ﷺ ليلة المعراج، ولا شاهد الملائكة الذين كانوا

(١) ميزان العمل ٢٨ ـ ٢٩.
(٢) ميزان العمل ٣١ ـ ٣٢.
(٣) يريد بالأولياء ههنا: الصحابة الملازمين للرسول ﷺ، أو أصحاب كل نبي ممن ناصروه واتبعوه.

ينزلون بالوحي على النبي.. ولا سمع عامة الأنبياء ـ فضلاً عن الأولياء ـ كلام الله كما سمعه موسى بن عمران.

وأضاف:

«والإيمان بكل ما جاء به الأنبياء واجب. فإنهم معصومون، ولا يجب الإيمان بكل ما يقوله الولي بل ولا يجوز، فإنه ما من أحد إلا يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسول الله ﷺ. ومن سب نبياً من الأنبياء قتل وكان كافراً مرتداً، بخلاف الولي.

ولا ريب أن الرجل كلما عظمت ولايته وعظم نصيبه من انكشاف الحقائق له: كان تعظيمه للنبوة أعظم» ا.هـ.[1].

بخلاف الصوفية، فإن كلامهم في الوحي والكشوفات والعلوم اللدنّية ما زاد النبوة إلا انتقاصاً وابتذالاً.

وهنا لا بد من التطرق لنقطة مهمة وهي أن كلام الغزالي في النبوة إنما هو امتداد لكلام ابن سينا في ذلك.

فإن ابن سينا يرى أن النبي له ثلاث قوى:

الأولى: قوة قدسية، وهي تابعة لقوة العقل النظري، ويتمكن بها النبي من إدراك الحد الأوسط دفعة واحدة.

الثانية: قوة التخييل والحس الباطن، بحيث يتمثل له ما يعلمه في نفسه فيراه ويسمعه، فيرى في نفسه صوراً نورانية هي ملائكة الله، ويسمع في نفسه أصواتاً هي عنده كلام الله، وذلك من جنس ما يحصل للنائم في منامه، ويحصل لغير الأنبياء بالرياضة.

(١) شرح العقيدة الأصفهانية ١٢١ ـ ١٢٢. والصفدية ١/٢٦١ ـ ٢٦٢ لإبن تيمية تحقيق محمد رشاد سالم ط. الرياض.

الثالثة: قوة نفسانية يتصرف بها في هيولي العالم، ويتمكن بها النبي والولي في التأثير في مادة العلم. وهو يزعم أن خوارق العادات التي للأنبياء والأولياء هي من هذا النمط(١).

والغزالي لم يفارق هذا التقسيم في شيء»، فقد ذكر هذا التقسيم في كتابه «معارج القدس في مدارج معرفة النفس» قائلاً:

(خواص النبوة): للنبوة خواص ثلاث:

إحداها: تابعة لقوة التخيّل والعقل العملي.

والثانية: تابعة لقوة العقل النظري.

والثالثة: تابعة لقوة النفس(٢).

فشرح هذه الخواص الثلاث على طريقة ابن سينا والفلاسفة عموماً.

وقد صرح في مشكاة الأنوار بأن المقدار الذي انكشف لنا من خواص النبوة الستة والأربعين ثلاث خواص(٣).

ويذكر ابن تيمية بأن هذه الخواص الثلاث للنبوة ـ التي ذكرها الغزالي وقلد فيها الفلاسفة ـ كانت السبب في اشتداد نكير علماء الاسلام عليه وكلامهم فيه. فذكر منهم طائفة. ثم قال:

«ولهذا عظم نكير الناس على صاحب «كيمياء السعادة» وصاحب «المضنون به على غير أهله» و«مشكاة الأنوار» لما كان في كلامه ما هو من جنس كلام هؤلاء الملاحدة. وقد عبّر عنه بالعبارات الاسلامية والاشارات الصوفية.

---

(١) أنظر الاشارات والتنبيهات ٣٦٨/٢ تحقيق د. سليمان دنيا. والشفاء (النفس) ٢٤٤. وانظر الصفدية ٦/١ ـ ٧ لابن تيمية والنبوات ١٦٨ و ٢٤٠ ط دار الفكر.

(٢) معارج القدس ١٣٥ ـ ١٤٥ ط. دار الآفاق الجديدة ـ بيروت.

(٣) مشكاة الأنوار ٣٥ (القصور العوالي).

وبسبب ذلك اغترّ صاحب «خلع النعلين»(١)، وابن سبعين، وابن عربي، وأمثالهم ممن بنى على هذا الأصل الفاسد.

بل لا بد في النبوة من إيحاء إلهي يختص الله به من يخصه بذلك من عباده بمشيئته وقدرته. وهو سبحانه عالم بذلك النبي وبما يوحيه إليه من الوحي، وبقدرته خصه به من كرامته. فهؤلاء الملاحدة يدّعون أن خطابه لموسى بن عمران ليس هو إلا ما حصل في نفس موسى من الإلهام والإيحاء.

والواحد من أهل الرياضة والصفاء قد يُخاطب كما خوطب موسى بن عمران، وأعظم من ذلك. وأنه قد يسمع نفس الخطاب الذي سمعه موسى، كما زعم ذلك صاحب الإحياء في بعض المواضع وإن قيل إنه رجع عن ذلك»(٢).

يريد بذلك قول الغزالي في الإحياء(٣).

«واستمع بسر قلبك لما يوحى. فلعلك تجد على النار هدى. ولعلك تُنادى بما نودي به موسى ﴿إني أنا ربك﴾.

وقوله في مشكاة الأنوار(٤):

«بل أقول: موسى فهم من الأمر بخلع النعلين: اطرح الكونين. فامتثل الأمر ظاهراً بخلع نعليه، وباطناً بخلع العالمين».

---

(١) هو ابن قسي الذي ألف كتابه المذكور «خلع النعلين» وقال فيه بأن وارداته عمرانية الأصل، أي تشبه ما حصل لموسى بن عمران عليه السلام، ومصدر آرائه في ذلك كتاب «مشكاة الأنوار» للغزالي وغيره من كتبه المبنية على أصول الفلاسفة.

(٢) الصفدية ٢٠٩ ـ ٢١٢ و ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

(٣) ٢٥١/٤.

(٤) ص ٣٢.

ثم يذكر ابن تيمية أن الغزالي «يكفّر الفلاسفة في التهافت، وفي المضنون يذكر ما هو حقيقة مذهبهم، حتى يذكر في النبوات عين ما قالوه، وكذلك في الالهيات، وفي الصفات الثلاث التي جعلوها خاصة الأنبياء»(1).

---

(1) النبوات ١٦٨ - ١٦٩ .

الفصل الرابع

علوم المكاشفة

يرى الغزالي أن العلوم على نوعين :

الأول : علوم المعاملة . وهي عنده العلم الظاهر كالأحكام الفقهية ونحوها .

الثاني : علوم المكاشفة : وهي العلم الباطن المتفجر من داخل القلب لا عن طريق الحواس الظاهرة (1) .

وعبّر عن هذا النوع الثاني (المكاشفة) بأنه :

«عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة . وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة :

حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه ، وبصفاته الباقيات التامات ، وبأفعاله وبحكمه في خلق الدنيا والآخرة ، والمعرفة :

---

(1)- الإحياء١/١٩ . و ٤/١٠٣ .

بمعنى النبـوة والنبي . ومعنى الـوحي .. وكيفيـة ظهـور الملك للأنبياء ، وبكيفيـة وصول الـوحي إليهم ، والمعرفة بملكوت السموات والأرض » (١) .

واستطرد - في تعريفه لعلم المكاشفة - قائلاً :

« ونعني بعلم المكاشفة أن يرتفع الغطاء حتى تتضح له جلية الحق في هذه الأمور اتضاحاً يجري مجرى العيان الذي لا يُشك فيه » .

وأضاف :

« وهذا ممكن في جوهر الإنسان لـولا أن مرآة القلب قـد تراكم صدؤها وخبثها بقاذورات الدنيا . فبقدر ما ينجلي في القلب ويحاذي فيه شطر الحق (٢) يتلألأ فيه حقائقه » (٣) .

مكاشفة القلوب :

فإذا أزيلت هذه القاذورات وتطهر القلب من تراكم هذا الصدأ ، فإنه يصير ممكناً - عند الغزالي - الإطلاع على اللوح المحفوظ ، ومعرفة مقادير الخلائق حسبما هو مدوّن فيه ، ومعرفة ما سيكون في المستقبل ، وكشف ما في ضمائر الناس واعتقاداتهم ، وما تخفيه صدورهم !!!

أليس يقول في الإحياء :

« فـانظر الآن كيف صفت قلوبهم وأحـوالهم ، وكيف خلصت لله

(١) - الإحياء ١/١٩ - ٢٠.

(٢) - أي الله.

(٣) - الإحياء ١/٢٠ قلت: وهذا مطابق لرأي ابن سينا القائل: «فإذا عبر الرياضة إلى «النيل» صار سره مرآة مجلوة محاذياً بها شطر الحق. ودرت عليه اللذات العلا، وكان له نظر إلى الحق ونظر إلى نفسه. ثم إنه ليغيب عن نفسه، فيلحظ جناب القدس فقط (انظر الإشارات والتنبيهات ٢/١١٩).

أعمالهم حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير مناطقة باللسان ، ولكن بتشاهد القلوب ، وتناجي الأسرار » ليثبت مكاشفة العارفين لقلوب الناس ؟

أليس يذكر طائفةً من قصص الصوفية ليقرر لك ذلك ؟

إليك بعض هذه القصص والروايات التي حكاها في إحيائه ضمن باب « بيان شواهد الشرع على صحة طريقة أهل التصوف » . يقول :

« وعن أبي سعيد الخراز قال : دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيراً عليه خرقتان ، فقلت في نفسي : هذا وأشباهه كلٌّ على الناس ، فناداني وقال : ﴿ والله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ﴾ فاستغفرت الله في سري فناداني وقال : ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ﴾ (١) .

« ودخل أبو العباس بن مسروق على أبي العباس الهاشمي - وهو عليل وكان ذا عيالٍ ولم يعرف له سبب يعيش به - قال : فلما قمت قلت في نفسي من أين يأكل هذا الرجل ؟ فصاح بي : يا أبا العباس ، ردّ هذه الهمة الدنيّة فإن لله تعالى ألطافاً خفية » (٢) .

« وقال حمزة بن عبدالله العلوي : دخلت على أبي الخير التيناني ، واعتقدت في نفسي أن أسلم عليه ولا آكل في داره طعاماً ، فلما خرجت من عنده إذا به قد لحقني وقد حمل طبقاً فيه طعام وقال : يا فتى ، كُلْ ، فقد خرجت الساعة من اعتقادك » (٣) .

ويختم الغزالي هذه الروايات بقوله :

(١)- الإحياء ٤/٢١٦.

(٢)- ن. م. ص.

(٣)- ن. م. ص.

«وما حكي من تفرس المشايخ وإخبارهم عن اعتقادات الناس وضمائرهم يخرج عن الحصر» (١).

ويخلص إلى القول بأن هذا الكشف الذي يحصل للصوفية هو:

«العلم الخفي الذي أراده ﷺ بقوله: إن من العلم كهيئة المكنون، لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله تعالى» (٢).

إن الغزالي يصف هذا العلم بأنه «العلم الخفي» تارة، وبـ«العلم الباطن» (٣) تارة أخرى وأيضاً بأنه العلم اللَّدنّي (٤) وقد أشار في ميزان العمل بكونه «علماً مكتوماً» (٥).

وإطلاق مثل هذه العبارات يفرح لها الباطنية كثيراً. لا سيما إذا خرجت من فيّ رجل عرف بمعاداته لهذه الطائفة. ناهيك عن أن هذا الطريق المعتمد على الكشف والذي يختص به العارفون دون العوام هو عين ما تخصه الباطنية لأئمتها المعصومين وتسميه بـ«العلم الباطن» الذي لا يؤتى للعوام ولا يُرزقونه، وإنما يأخذونه من أولئك الأئمة.

فهذه التسميات، وهذه الطريقة، تشير إلى وجود نوع تقارب بين الصوفية والباطنية في الآراء والمعتقدات. ولا يخفى أنه بمثل هذا الكلام الذي يقوله الغزالي يعيد بناء ما قد هدّمه من قبل حيث أسقط مذهب الباطنية وفنده.

---

(١) - ن. م. ص.

(٢) - قال الحافظ العراقي: رواه أبو عبد الرحمن السلمي في الأربعين. والسلمي هذا قد شهد علماء الحديث ورجاله بأنه كان يضع الأحاديث للصوفية. راجع فصل: (الغزالي والباطنية).

(٣) - أنظر الإحياء ٣/٢٤.

(٤) - الرسالة اللّدنيّة ١١٢ (القصور العوالي).

(٥) - ميزان العمل ١١١.

وليس هنا موضع هذا البحث. فقد سبق الكلام عنه بما يغني عن إعادته هنا. وإنما أردت بهذه الجملة بيان أنه حين يشرح الغزالي كيفية حصول الكشف بواسطة الإلهام والوحي فإنه يقترب بذلك من نظرية الفيض السكندرانية التي تميز بين النفوس والعقول. واستعدادها لقبول الإشراق. وقد كانت هذه النظرية مصدر أصحاب التعليمية الذي عولوا عليه في استحداث مذهبهم.

فالمصدر إذن يوناني، وقد كان هذا المصدر سبب التكلم والتقرمط والتجهم والتفلسف ومن اعتمده في شيء فلا بد وأن يشابه بكلامه كلام أهل هذه الطوائف بحكم موافقته لهم في التلقي من المصدر الذي تلقوا منه.

الغزالي بين شخصيتي المكاشف والفقيه:

لقد جعل تقسيم العلوم - إلى معاملة ومكاشفة - من الغزالي رجلاً ذا شخصيتين:

شخصية الغزالي المكاشف الصوفي.

وشخصية الغزالي الفقيه.

فإذا تكلم الغزالي الفقيه في علوم الظواهر والفقه - فيما يسميه بعلوم المعاملة - فإنه لا يكاد يحيد عن خط الفقه قيد أنملة. وهو يعرض عليك المسألة الفلانية بكل جوانبها ويستعرض لك فيها أقوال العلماء والخلاف والرأي الراجح من ذلك كله.

وقد ينهاك الغزالي الفقيه عن شيء ما يخالف الفقه، لكنه ما أن يتحول إلى شخصية: «الغزالي المكاشف» حتى يأمرك بما قد نهاك عنه الغزالي الفقيه.

فإذا أشعرته بمخالفته للعلوم الشرعية في ذلك، فإنه يقطع كلامه

فجأة ليذكّرك بأن : « هـذا من علوم المكاشفة ومما لا يليق بعلوم المعاملة » (١) .

والسبب في ذلك يعود إلى اعتباره الناس عنده عواماً وخواصاً. فهو يهمس في أذن الخواص ما يحاول إخفاءه عن العوام .

وإذا صنف كتباً للخواص في المعرفة ، حجبها عن العوام وسماها بـ« المضنون به على غير أهله » . فالعوام عنده لا يليق بحقهم إلا علوم الظواهر كالحث على العبادات وغيـر ذلك . أما الخواص فـإنه يجوز إطلاعهم على العلوم الكشفية ، كالإطلاع على حقيقة النبوة وكيفية سلوك الوحي ومعرفة درجاته . وهذه من العلوم التي لا يجوز أن تسطر في كتب العامة ولا يُصرَّح بها أمامهم ! (٢).

وهذا التقسيم قال به الفلاسفة قبل الغزالي ، حيث يقسمون الناس إلى أهل البلادة ـ وهم العوام ـ وأهل البصيرة والذكاء ـ وهم الخواص ـ .

ولذلك يقول إبن تيمية :

« وأما التي يسميها [الغزالي] علوم المكاشفة ، ويرمز إليها في الإحياء ، ففيها يستمد من كلام المتفلسفة وغيرهم . كما في مشكاة الأنوار والمضنون به على غير أهله وغير ذلك .

وبسبب خلطه التصوف بالفلسفة كما خلط الأصول بالفلسفة » (٣).

---

(١)- أنظر الإحياء ٨٨/١.

(٢)- هذا وقد أنحى ابن رشد على الغزالي باللائمة وذلك لتصريحه بعلوم الحكماء للعوام. كقوله بأنه العلم إنما يحصل بالخلوة والفكرة وأن هذه المرتبة من جنس مراتب الأنبياء في العلم (أنظر مناهج الأدلة ٨٩ ودرء تعارض العقل والنقل ٢٢٤/٦ تحقيق د. محمد رشاد سالم).

(٣)- شرح العقيدة الأصفهانية ١٣٥.

الفرق بين «العلم اللدني» ووحي الأنبياء:

ولا يلبث أن يصبح هذا الكشف علماً خاصاً « لدنّياً » مستقلاً عن العلوم الربانية الأخرى . فإنه عند بيان الغـزالي لطريقة تحصيل العلوم الربانية ، ذكر أن التعلم الرباني يكون على نوعين :

١ ـ التعلم الإنساني .

٢ ـ التعلم الرباني .

أما التعلم الرباني فإنه على وجهين : أحدهما من خارج ، وهو التحصيل بالعلم . والثاني من داخل . وهو الإشتغال بالتفكر من الباطن .

ويشرح الغزالي كيفية تفجر العلم الثاني من القلب قائلاً :

« وإذا غلب نور العقل على أوصاف الحس يستغني الطالب بقليل الفكر عن كثرة التعلم ، فإن نفس القابل تجد من الفوائد بتفكر ساعة ما لا تجد نفس الجامد بتعلم سنة » (١) .

وهو يذكر أن الإلهام الذي يحصل للأولياء أثر الوحي ، إذ يقول :

« فإن الوحي هو تصريح الأمر الغيبي ، والإلهام هو تعريضه .

والعلم الحاصل عن الوحي يسمى علماً نبوياً .

والذي يحصل عن الإلهام يسمى علماً لدنياً . والعلم اللدني هو الذي لا واسطة في حصوله بين النفس وبين الباري » (٢) .

« فمن إفاضة العقل الكلي يتولد الإلهام ، ومن إشراق النفس الكلية يتولد الإلهام . فالوحي حلية الأنبياء . والإلهام زينة الأولياء » (٣) .

ويقول :

---

(١)- الرسالة اللّدنيّة ١١٢ ـ ١١٣ .

(٢)- الرسالة اللدنية ١١٦ .

(٣)- ص ١١٦ .

« فأما علم الوحي فخاص بالرسل، موقوف عليهم كما كان لآدم وموسى عليهما السلام وإبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم وغيرهم من الرسل »(١).

وهذه الجملة الأخيرة تتعارض مع دعوة الغزالي الجميع لسماع الكلام الذي سمعه موسى من الله فإنه قال: « واستمع بسر قلبك لما يوحَى ... ولعلك من سرادقات العرش تنادي بما نودي به موسى ﴿ **إني أنا ربك** ﴾(٢) وهو بذلك يدعوهم إلى بلوغ مرتبة لم يبلغها أنبياء الله من غير موسى والتي اختص بها عنهم!.

ومع أنه هنا يفرق بين الوحي والإلهام، فإن هذا التفريق تفريق لفظي لا ينال حظه من الواقع في شيء، حتى أنه ليصرح بعد ذلك بعدم وجود فرق يذكر بين الوحي والإلهام. وذلك بأن قال في الإحياء(٣):

« ولم يفارق الوحي الإلهام في شيء من ذلك، بل في مشاهدة الملك المفيد للعلم. فإن العلم إنما يحصل في قلوبنا بواسطة الملائكة. وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً** ﴾ [الشورى ٥١].

وقد أكد أيضاً على ضرورة أن تتم المعرفة الحقيقية - وخاصة في الإلهيات وعالم الغيب - عن طريق الوحي والإلهام(٤).

وهو تارة يصرح بأن الكشف وتلقي العلوم يحصل من الله بلا واسطة مستدلاً على ذلك بقوله تعالى ﴿ **وعلمناه من لدنا علماً** ﴾(٥).

(١) - ص ١١٧.
(٢) - الإحياء ٤/٢٥١.
(٣) - الإحياء ٣/١٩.
(٤) - الجواهر الغوالي ١٣٥ و ١٤٠.
(٥) - أنظر كيمياء السعادة ٩٠ (ملحق بالمنقذ من الضلال). والرسالة اللدنية ١١٦.

حاكياً عن أبي يزيد البسطامي قوله:

« ليس العالم الذي يحفظ من كتاب - فإذا نسي ما حفظه صار جاهلاً - إنما العالم الذي يأخذ علمه من ربه أي وقت شاء بلا حفظٍ ولا درس »(١).

وتارة أخرى يصرح بأن الكشف وتلقي العلوم يحصل في قلوب العارفين بواسطة الملائكة(٢).

بعد ذلك نجد أن الفرق بين الوحي والإلهام ينعدم عملياً وإن بقي الفارق لفظياً، فكيف وأن الغزالي يقول - فيما سبق - بأن الوحي لم يفارق الإلهام من جهة تلقي العلوم بواسطة الملائكة؟ وأن النبوة انفتاح قوة أخرى فوق العقل؟(٣).

هل عرف السلف هذا الوحي المسمى بـ « الكشف »؟

وهنا أجد ضرورة طرح السؤال التالي:

لماذا يفتح الله على الأولياء علوماً بنفس الطريقة التي فتحها على الأنبياء من قبل. ما دامت الرسالة قد بُلغتْ، والدين قد أُكمل؟ أليس معلوماً أن الوحي قد انقطع بموته ﷺ؟

إن العارف بسيرة السلف الصالح وأحوالهم ليعلم تمام العلم فساد هذا الكشف الذي قال به الغزالي، والفلاسفة من قبله.

فالصحابة هم أولياء الله لا ريب، وأحب الخلق إلى الله تعالى. وهم أعرف به ممن سواهم - ولا سيما من أدعياء المحبة والعشق الإلهي -

(١) - الإحياء ٣/٢٤.
(٢) - الإحياء ٣/١٩.
(٣) - أنظر شرح العقيدة الأصفهانية ١٢٣.

وأفضلهم له عبادة . ومما يستدل به على حرصهم على دينه وإجلالهم له أنهم لم يدّعوا هذا النوع من الكشف أو الوحي المناهض لوحي الأنبياء الناسخ لما نزل عليهم .

بل كانوا يبكون انقطاع الوحي بعد موته ﷺ ، ولو كان شيء من ذلك يحصل لهم لما بكوا عليه إذ يستحيل أن يكون بكاؤهم على شيء لم يفقدوه !

فعن أنس رضي الله عنه أن أبا بكر رضي الله عنه قال لعمر رضي الله عنه ـ بعد وفاة النبي ﷺ ـ : إنطلق بنا إلى أم أيمن رضي الله عنها نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها . فلما انتهيا إليها بكتْ ، فقالا لها : « ما يبكيك ؟ أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ ؟ فقالت : إني لا أبكي أني لأعلم أن ما عند الله تعالى خير لرسول الله ﷺ ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء .

فهيّجتهما على البكاء ، فجعلا يبكيان معها »[1] .

أما الغزالي والفلاسفة فإنهم يجعلون النبوة مكتسبة وذلك حين زعموا أن استعداد الإنسان بطريق الرياضة وتصفية القلب يؤهله لأن يفيض عليه ما فاض على الأنبياء من قبله ، وأن النبوة عبارة عن قوى نفسانية وخصائص موجودة في كافة البشر وإنما حالت الشهوات بينهم وبين اكتشاف هذه الخصائص التي في أنفسهم. وأمثال هؤلاء لا يبكون انقطاع الوحي.

ولذلك كان كلامهم مفضياً إلى الطعن بالنبوة والإنتقاص من مرتبتها .

وقد قلد الغزالي كلامهم ووافقهم عليه في هذا الباب .

وهذا ما دعا المازري وغيره إلى الإنكار عليه ، والقول بأن كلامه يؤثر في الإيمان بالنبوة[2] .

---

(١)- أخرجه مسلم ح (٢٤٥٤) وابن ماجه (١٦٣٦).
(٢)- شرح العقيدة الأصفهانية ١٢٣.

ونحن نسأل الله تعالى أن يجعل ما واجه الغزالي الفلاسفة به وإقحامهم فيه أثقل في ميزانه يوم القيامة من الكفة التي توضع بها سيئات ما تلاعبهم فيه.

تأويل السمعيات أو إثباتها موقوف على الكشف :

ويذهب الغزالي إلى أن معرفة ما يُتأول ـ من الصفات الإلهية وغيرها ـ مما لا يُتأوّل تنال بطريقة الكشف ، فما وافق الكشف عليه أُثبت وما منعه تُؤوّل !.

وهذا كلام خطير يرمي إلى تقديم الكشف على الأدلة الشرعية من حيث المرتبة .

فقد ذكر الغزالي في الإحياء كلاماً طويلاً في علم الظاهر والباطن ، إلى ان قال :

« وذهبت طائفة إلى التأويل فيما يتعلق بصفات الله تعالى ، وتركوا ما يتعلق بالآخرة على ظواهرها ومنعوا التأويل فيه . وهم الأشعرية .

وزاد المعتزلة عليهم حتى أوّلوا من صفاته تعالى : الرؤية ، وأوّلوا كونه سميعاً بصيراً ، وأوّلوا المعراج وزعموا أنه لم يكن بالجسد ، وأوّلوا عذاب القبر والميزان والصراط وجملةً من أحكام الآخرة .

ومن ترقّيهم إلى هذا الحد زاد الفلاسفة فأوّلوا كل ما ورد في الآخرة وردوه إلى آلام عقلية وروحانية ، ولذات عقلية ، وأنكروا حشر الأجساد . . . » .

إلى أن قال : « وحد الإقتصاد بين هذا الإنحلال كله وبين جمود الحنابلة دقيق غامض لا يطلع عليه إلا الموفقون الذين يدركون الأمور بنور إلهي لا بالسماع[1] . فما وافق ما شاهدوه بنور اليقين قرّروه ، وما خالف أوّلوه » .

---

(١)- أي بالادلية السمعية وهي الكتاب والسنة.

وأضاف الغزالي بقوله :

« فأما من يأخذ معرفة هذه الأمور من السمع المجرد فلا يستقر له فيها قدم ، ولا يتعيّن له موقف » ا . هـ (١) .

يعلق إبن تيمية على هذا الكلام الذي أورده في كتابه « درء التعارض » بما يلي : « قلت : هذا الكلام مضمونه أنه لا يستفاد من خبر الرسول ﷺ شيء من الأمور العلمية ، بل إنما يدرك ذلك كل إنسان بما حصل له من المشاهدة والنور والمكاشفة » (٢) .

« وهذان أصلان للإلحاد ، فإن كل ذي مكاشفة إن لم يزنها بالكتاب والسنة ، وإلا دخل في الضلالات » .

ويقول :

« وما جاء به الرسول معصوم لا يستقر فيه الخطأ .

وأما ما يقع لأهل القلوب من جنس المخاطبة والمشاهدة ففيه صواب وخطأ ، وإنما يُفرّق بين صوابه وخطئه بنور النبوة .

قال بعض الشيوخ ما معناه : قد ضُمنت لنا العصمة فيما جاء به الكتاب والسنة ، ولم تُضمن لنا العصمة في الكشوف » (٣) .

ثم يذكر إبن تيمية أنه : « من المعلوم أن هذا [الكشف] لو كان ممكناً ، لكان السابقون الأولون أحق الناس بهذا ، ومع هذا فما منهم من ادّعى أنه أدرك بنفسه ما أخبر به الرسول ﷺ » (٤) .

---

(١) - الإحياء ١/١٠٤ لقد حكم الغزالي في الاحياء بأن من: «اكتفى بالعقل عن أنوار القرآن والسنة فهو مغرور» (إحياء ٣/١٧) فما رأيه فيمن يكتفي بالكشف دون أنوار الكتاب والسنة ألا يكون مغروراً أيضاً؟

(٢) - درء تعارض العقل والنقل ٥/٣٤٨.

(٣) - ن. م. ٥/٣٤٩.

(٤) - ن. م. ٥/٣٥٣ - ٣٥٤.

ويؤكد على ضرورة بيان أمرٍ مهم وهو أن من أعرض عن الأدلة السمعية الشرعية في الأصول الخبرية ـ كالصفات والنبوات والمعاد ـ فإنه لا بد وأن يتناقض . وأنه من سلك طريقاً يتناول به علم هذه الأمور غير الطريقة الشرعية النبوية فإن قوله متناقض فاسد ، وليس له قانون مستقيم يعتمد عليه ، فكيف بمن عارضها بطريقٍ تُناقِضُها ويعتمد فيها على آراء متناقضة يحسبها براهين عقلية ، ومشاهدات ومخاطبات ربانية ؟ بينما هي خيالات فاسدة ، وأوهام باطلة . كما قال السهيلي : أعوذ بالله من قياس فلسفي ، وخيال صوفي » (١) .

ثم يبين إبن تيمية أصل كلام الغزالي في هذا الباب ومصدره قائلاً :

« وهذا الكلام أصله من مادة المتفلسفة والقرامطة الباطنية ، الذين يجعلون النبوة فيضاً يفيض من العقل الفعّال على نفس النبي ، ويجعلون ما يقع في نفسه من الصور هي ملائكة الله ، وما يسمعه في نفسه من الأصوات هو كلام الله .

ولهذا يجعلون النبوة مكتسبة . فإذا استعد الإنسان بالرياضة والتصفية فاض عليه ما فاض على نفوس الأنبياء » (٢) .

إن مكمن الخطر في نظرية الكشف والمكاشفة أنها شجعت التصوف الفلسفي على التطرف والإلحاد والغلو دونما أي حرج ، حتى إنه كان من هؤلاء من يطمع في النبوة كالسهروردي المقتول الذي كان يقول : لا أموت حتى يقال لي : « قم فأنذر » (٣) .

وقد آلت هذه النظرية ـ نظرية الكشف ـ بابن عربي إلى القول بأنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسول .

---

(١) - ن. م. ٥/٣٥٧.

(٢) - ن. م. ٥/٣٥٣.

(٣) - أنظر درء التعارض ١/٣١٨.

ولهذا جعل مرتبة الولي أرفع من مرتبة النبي . يقول :

« وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء ، وما يراه أحد من الأنبياء والرسل إلا من مشكاة الرسول الخاتم ، ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولي الخاتم . حتى أن الرسل لا يرونه ـ متى رأوه ـ إلا من مشكاة خاتم الأولياء : فإن الرسالة والنبوة ـ أعني نبوة التشريع ورسالته ـ تنقطعان . والولاية لا تنقطع أبداً » .

فالمرسلون من كونهم أولياء لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء » ا . هـ [1]. وقد ذكر أن الولاية هي الفلك المحيط العام لأنها لا تنقطع بينما نبوة التشريع انقطعت بمحمد ﷺ [2] .

ومن الأسباب التي يفضل فيها خاتم الأولياء على خاتم الأنبياء : « أنه إذا كان رسول الله ﷺ شبّه نفسه بلبنةٍ في حائط كدلالةٍ منه على ختم النبوة ، فإن خاتم الأولياء هو في موضع لَبِنَتَيْن » [3] وأنشد يقول :

مقام النبوة في برزخٍ

فُوَيْقَ الرسول ودون الولي [4]

ولهذا كانت العلوم الشرعية ـ عند الغزالي والصوفية ـ أقل مقاماً من الكشوفات وهي ضرورية لعوام الناس لكن أصحاب الكشوفات قد يستغنون عنها بما يحصلونه من العلوم اللدنّيّة .

(1) فصوص الحكم ٦٢/١ تحقيق: أبو العلا العفيفي. دار الكتاب العربي ـ بيروت.

(2) ـ ن. م. ١٣٤/١ وانظر رد الشوكاني على ابن عربي هذا الموضوع (قطر الولي ٢٠٥ ـ ٢١٠) تحقيق إبراهيم إبراهيم هلال. ط. دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

(3) ـ ن.م. ٦٣/١

(4) ـ لطائف الأسرار لابن عربي ٤٩ (تحقيق: أحمد زكي وطه عبد الباقي سرور) .

استقلالية العلوم الكشفية عن الشرعية :

ولما كان العقل السليم ـ المستفيد من هدي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ـ يأبى هذا الكشف الذي أتى به الغزالي والصوفية الداعي إلى التنافس على مرتبة النبوة .

ولما كانت الفطرة السليمة ترفض هذا الإنتقاص من هذه الرتبة الكريمة ، فإنه يحتمل حينئذٍ حصول إنكار على المخالفات من الأقوال والأفعال التي تصدر على مدعي الكشف . ولذلك سارع الغزالي إلى التنبيه على استحالة مقارنة هذه الكشوفات وموازنتها بالموازين الشرعية ـ أعني الكتاب والسنة اللذين هما مصدر تشريع المسلمين ـ فقال بأن :

« هذه الطريقة لا سبيل إليها للعقلاء ببضاعة العقل أصلاً ، وإنما تُدرك بالذوق من سلوك طريق التصوف » . وقال :

« فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيّق رحمة الله الواسعة » [1] .

وهذا هروب من الميزان الشرعي ـ الكتاب والسنة ـ الذي جعله الله فرقاناً يفرق به بين الحق والباطل ويفصل فيه بينهما .

والكشف من الباطل الذي لو وُزن بميزان الشرع لظهر بطلانه فأراد الغزالي والصوفية أن يجعلوا بينه وبين الشرع برزخاً .

قال الغزالي :

« ولقد تحامق وتجاهل جداً من أراد أن يستنبط بطريق العقل لها حكمة أو ظن أنها ذكرت على سبيل الإتفاق لا عن سرٍ إلهي فيها يقتضيها بطريق الخاصية » [2] .

(1)ـ المنقذ من الضلال ١١ .

(2)ـ ن. م. ٥٩

وقد قال في الإحياء :

« إعلم أن ميل أهل التصوف إلى الإلهية دون التعليمية . ولذلك لم يتعلموا ، ولم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون .

بل قالوا : الطريق تقديم المجاهدات بمحو الصفات المذمومة .. وزعموا أن الطريق في ذلك أولاً بانقطاع علائق الدنيا بالكلية وتفريغ القلب منها ويقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن وعن العلم والولاية والجاه .

بل يصير قلبه إلى حالة يستوي فيها وجود كل شيء وعدمه ، ثم يخلو بنفسه في زاوية مع الإقتصار على الفرائض والرواتب ، ويجلس فارغ القلب مجموع الهم .

ولا يفرق فكره بقراءة قرآن [١] ولا بالتأمل في تفسير ، ولا بكتب حديث ولا غيره » ا . هـ [٢].

وقد علق على ذلك الإمام إبن الجوزي رحمه الله قائلاً :

« عزيز عليّ أن يصدر هذا الكلام من فقيه . فإنه لا يخفى قبحه [أي هذا الكلام] فإنه على الحقيقة طيّ لبساط الشريعة التي حثت على تلاوة القرآن وطلب العلم.

أما عن طلب الحديث فقد ذكر الغزالي عن أبي سليمان الداراني قوله : « الزهد عندنا ترك كل شيء يشغلك عن الله عز وجل »[٣].

---

(١)- ويذكر الغزالي أنه في الوقت الذي رغبت فيه نفسه لسلوك طريق التصوف شاور متبوعاً مقدماً من الصوفية في المواظبة على تلاوة القرآن. فمنعه من ذلك قائلاً له: السبيل أن تقطع علائقك من الدنيا بالكلية!.هـ (انظر ميزان العمل٣١) فجعل تلاوة القرآن من جملة شواغل الدنيا المعوقة عن الالتفات إلى الآخرة!!!.

(٢) - تلبيس إبليس ٣٢٣.

(٣) - الإحياء ٢٢٩/٤.

ترى ما هي هذه الشواغل التي تقطع الطريق على طالب الآخرة في رأي أبي سليمان ؟ ينقل لك الغزالي رأي أبي سليمان في أربعة مواضع من إحيائه فيقول :

« وقال أبو سليمان الداراني : إذا طلب الرجل الحديث ، أو تزوج ، أو سافر في طلب المعاش فقد ركن إلى الدنيا » [١] .

وهذه البنود الثلاثة المعوقة عن طلب الآخرة والتي نهى عنها الداراني هي نفس ما يراه الجنيد للمريد حيث ينقل عنه الغزالي قوله :

« أحب للمريد المبتدىء أن لا يشغل قلبه بثلاث وإلا تغيرت حاله :

١ـ التكسّب .
٢ـ طلب الحديث .
٣ـ التزوج . ثم قال :

واحب للصوفي ألا يكتب ولا يقرأ لأنه أجمع لهمّه » [٢] .

إذن ، فالصوفية زاهدون في كل شيء حتى في تلاوة القرآن وكتابة الحديث والتأمل في التفسير ! فماذا تنتظر من زهد كهذا ؟!!!

إن زهداً كهذا يدعو إلى عدم التشاغل بهذه العلوم الشريفة العالية هو زهد أفلاطوني محدث وليس زهداً إسلامياً صحيحاً .

وقد روى الغزالي عن رابعة العدوية قولها لسفيان الثوري حين لقيته :

« نِعْم الرجل أنت لولا رغبتك في الدنيا . قال : وفيماذا رغبت ؟ قالت : في الحديث » [٣] .

---

(١)- الإحياء ٦١/١ ، ٢٤/٢ ، ٢٣٧/٢ ، ٢٢٩/٤ .

(٢)- ٢٣٩/٤ .

(٣)- الإحياء ٢٣٧/٢ .

وبذلك يصبح الكشف غير مغلق في وجه أحد ، كما يصبح بلا قانون ، ولا حدود ، ولا نظام يعرف به المحق من المبطل ويميز به بين الولي وبين الزنديق .

ولهذا فإنه قد فُتح بالكشف باب دخل منه كثير من العابثين بهذه الأمة ومن الأئمة المضللين يتكلمون في فنون الكشف بما يتعارض والأدلة الشرعية . وبقي هؤلاء العابثون يتدفقون من هذا الباب الذي بقي مفتوحاً إلى يومنا هذا .

فصارت العلوم الشرعية عند هؤلاء من المرتبة التي تلي مرتبة الكشف ، وصار حاملو هذه العلوم الشرعية عند هؤلاء من أهل الظاهر الذين ختم الله على قلوبهم عن ملاحظة هذا العلم الباطن ، وعن التنعم بأسرار الكشف . وهذا ما سأبسط الكلام عنه في الفصل اللاحق .

ولعل هذا الوحي الصوفي وهذه الكشوفات والتجليات هي ما أشار الله تعالى إليه بقوله : ﴿ هل أنبئكم على من تنزّل الشياطين . تنزّل على كل أفّاكٍ أثيم يُلقون السمع وأكثرهم كاذبون ﴾ [الشعراء ٢٢١ - ٢٢٣] ولعل هذا النوع من التنزّل . وإلقاء السمع من الشياطين هو ما ظنه الغزالي وحياً يحصل به سماع المريد لما سمعه موسى ، حتى دعا الخلائق إليه بالإجتهاد في تحصيله بالرياضات والتصفيات والخلوات ، ليسمعوا الكلام الذي سمعه موسى بن عمران عليه السلام .

نظرية إسقاط التكاليف ، وموقف الغزالي من القائلين بذلك :

على أن هنالك مظهراً آخر من مظاهر الشطح الصوفي أنكره كثيرون من المتصوفة وتبنّاه بعض الغلاة منهم وهو القول بإسقاط التكاليف ، وذلك أن الواحد منهم يبلغ حالة مع الله يسرحه فيه رب العزة من قيود الشرائع ويخرجه من حدودها - هذا ما يزعمونه - وهو أكبر الزندقة بل هو ردّة عن الإسلام لا ريب .

وقد كان الغزالي واحداً ممن حملوا على هؤلاء وكفروهم وحثوا على قتلهم وتطهير المجتمع المسلم منهم . فقد قال أبو حامد :

« ومن جنس ذلك ما يدّعيه بعض من يدعي أنه قد بلغ حالة بينه وبين الله أسقطت عنه الصلاة وحلّ له شرب الخمر والمعاصي وأكل مال السلطان .

فهذا ممن لا شك في وجوب قتله - وإن كان في الحكم بخلوده في النار نظر - وقتل مثل هذا أفضل من قتل مائة كافر ، إذ ضرره في الدين أعظم ، وينفتح به باب من الإباحة لا ينسدّ » (١) .

وقد تعمدت ذكر هذا الفصل ههنا لأدلل على أن الغزالي وإن كان يوافق الصوفية في الكثير مما يذهبون إليه. فإنه مع ذلك يخالفهم في بعضها كالقول بإسقاط التكاليف لأنه. إلقاء لكل العلوم واستغناء عنها، وهو خلع لربقة الإسلام من العنق.

فالغزالي وإن كان يقول بالكشف ويعتمده كمصدر مهم يستغني به عن طلب العلوم والتعب في تحصيلها فإنه يصرخ في وجه من يعطلونها كلها ويتحللون منها أمثال هؤلاء الزنادقة .

رغبة الصوفية عن طلب العلم :

وهذا المصدر الكشفي أغنى الغزالي - والصوفية من بعده - عن دراسة العلوم الشرعية ، حيث اقتصروا على الخلوات والتصفيات الكفيلة بقذف العلوم الكشفية إلى قلوبهم .

فالغزالي يصرح في مشكاة الأنوار بأن :

«في الأولياء من يكاد يشرق نوره حتى يكاد يستغني عن مدد الأنبياء»(٢) .

(١)- فيصل التفرقة ١٤٦ .

(٢)- مشكاة الأنوار ٤٠ (مجموعة القصور العوالي).

هذا ويذكر لنا أبو القاسم بن هوازن القشيري في رسالته قولاً أثره للجنيد يقول فيه :

« إذا لقيت الفقير فالقه بالرفق ، ولا تلقه بالعلم . فإن الرفق يؤنسه ، والعلم يوحشه »(1) .

ويذكر القشيري أيضاً أن أحد سادات المتصوفة واسمه « الدقي » سئل عن سوء أدب الفقراء (أي الصوفية) فقال:

«إنحطاطهم من الحقيقة إلى العلم »(2) .

إذن فالصوفية يميلون عن العلم إلى الخلوات ، ويفتحون على أذهانهم باب الخيالات بعد أن يسدّوا عليها باب العلم ، وأي علم ؟

هل هو علم الهندسة أم الجبر أم الطب ؟!.

كلا ، إنه علم القرآن والتفسير وكتابة الحديث ! . ولعل هذا ما دفع بالشياطين إلى استغلال هذا الجهل عند الصوفية فملؤوهم وساوس ظنوها مخاطبات إلهية وفتوحات رحمانية . وقد زعموا أنهم يتلقون في خلواتهم علوماً لدنيّة . وقد صدقوا في كونها علوماً لدنيّة . لكنها ليست من لدن الله وإنما من لدن الشياطين وتخرصاتهم .

ثم إن العلوم الشرعية ـ الكتاب والسنة ـ المنزلة على نبي هذه الأمة ﷺ قد نزلت من لدن الله عز وجل فلماذا لا يسمونها علوماً لدنية؟!.

أستر عورتك !!!

وقد بلغ من ذم الصوفية للعلم ونهيهم عنه أن صار العلم عندهم سمة عار لا يجرؤ صاحبها إظهارها أمامهم إذا كان صوفياً مثلهم .

(1)- الرسالة القشيرية ١٢٥.

(2)- ن. م. ١٢٦.

ومثال ذلك ما رواه إبن الجوزي عن أحدهم حيث قال :

« قال أبو سعيد الكندي : كنت أنزل رباط الصوفية ، وأطلب الحديث في خفية بحيث لا يعلمون ، فسقطت الدواة يوماً من كمّي . فقال لي بعض الصوفية :

« أستر عورتك »(1) .

وهذا العلم الذي يرغب عنه الصوفية ، هو النور الذي يستضاء به في سلوك طريق العبادة ومعرفتها ويكشف به العقبات التي تضعها الشياطين لهذا السالك فيجتنبها .

ولذا فقد بغّض الشيطان الصوفية في العلم وأوحى إليهم أنه مشغلة ليطفىء هذا السراج . فإذا أطفأه خبّطهم في ظلمات الجهل كيف شاء .

وأما أهل العلم فقد أفادهم علمهم ما استطاعوا به أن يقفوا على كثيرٍ من خدع الشيطان وألاعيبه ومداخله . وفقهوا به طريق العبادة إذ العابد بغير علم على غير الطريق .

« وإنما تلاعب الشيطان بأقوام أبعدوا العلم ، وأقبلوا على الرياضة ، بما ينهى عنه العلم . فتارة يفعلون الفعل المنهي عنه ، وتارة يؤثرون ما غيره أولى منه .

وإنما كان يفتي في هذه الحوادث : « العلم » . وقد عزلوه »(2).

(1)- تلبيس إبليس ٣٢٨ - ٣٢٩. وقد أورد ابن الجوزي طائفة من أقوال مشاهير الصوفية. كقول البسطامي:«مساكين أخذوا علمهم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت» وقوله: «حدثني قلبي عن ربي» انظر تلبيس إبليس ٣٢٠ - ٣٣٠.

(2)- تلبيس إبليس ٣٢٣ - ٣٢٤.

صور من استغلال الشياطين لجهل الصوفية :

ولما عزل الصوفية العلم خلطت عليهم الشياطين الأمر ، وصارت تظهر لهم بصور مختلفة بعد أن فتحت عليهم باب الخيال وحببتهم إليه .

فظنوا أن ما يرونه ملائكة الله وأن ما يسمعونه كلام الله . وأن الأنوار هي تجلياته . وقد أنسوا بهذه الوساوس حتى صار منهم من يود مجالسة الشيطان عند تلاوته القرآن طمعاً في هدايته ورجوعه عما هو فيه .

فقد ذكر إبن الجوزي أن أحدهم ـ وإسمه إبراهيم الحصري ـ كان يقول : « كنت زماناً إذا قرأت القرآن لا أستعيذ من الشيطان ، وأقول : « الشيطان » حتى يحضر كلام الحق »[1] .

وقال القشيري :

« قال إبراهيم الخواص : طلبت الحلال في كل شيء حتى طلبته في صيد السمك ، فأخذت قصبة وجعلت فيها شعراً ، وجلست على الماء فألقيت الشص فخرجت سمكة ، فطرحتها على الأرض . وألقيت ثانية فخرجت لي سمكة .

إذ من ورائي لطمة لا أدري من يد من هي . ولا رأيت أحداً .

وسمعت قائلاً يقول : أنت لم تصب رزقاً في شيء إلا أن تعمد إلى من يذكرنا فتقتله ؟. قال إبراهيم : فقطعت الشعر ، وكسرت القصبة وانصرفت »[2] .

ولو أن هذا الصوفي تدبر قوله تعالى ﴿ أحل لكم صيد البحر ﴾ [المائدة ٩٦] . لجزم قاطعاً بأن اللاطم لم يكن سوى إبليس . إذ الله لا

(١)- ن.م. ٣٤٩.

(٢) - الرسالة القشيرية ٨٤.

يعاقب على صيد ما أباحه . ولا يحرم صيد الأسماك لأنها تذكره، فإنه ما من شيء إلا يسبّح بحمده ويذكره.

ولو تركنا ذبح الانعام ـ وهي تذكر الله تعالى أيضاً ـ لم يكن لنا ما يقيم قوى الأبدان .

لكن هذا ظن بجهله أن الله هو الذي هتف به قائلاً : تعمد إلى من يذكرنا فتقتله . وسبب ذلك أنه ـ وغيره من المتصوفة لا يملكون من العلوم الشرعية ما يعرفون به حقيقة هذا الهاتف .

وإنما أعرضوا عنها وطلبوا الكشوفات فاجتالتهم الشياطين والتبس عليهم الأمر . لذا كان العلم يقطع الوساوس . والجهل يورثها .

الفقه والفقهاء عند الغزالي والصوفية

وكما أن الكشف مقدم عند الصوفية على سائر العلوم ـ كما وصفه الغزالي بأنه غاية العلوم ـ فإن الصوفي المكاشف أرفع حالاً وأعظم مقاماً من الفقيه المترسم بعلوم الظاهر، المحجوب عن علوم الباطن.

والغزالي يقسم العلماء إلى فئتين:

الفئة الأولى: علماء القلوب.

الفئة الثانية: علماء الدنيا.

«ولذلك قيل: علماء الظاهر زينة الأرض والملك وعلماء الباطن زينة السماء والملكوت»[(1)].

ثم يقول: «ومفتي القلوب هم علماء الآخرة، وبفتواهم النجاة من سلطان الآخرة، كما أن بفتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا»[(2)].

---

(1)- الإحياء ٢٢/١.

(2)- الإحياء ٢١٣/٤.

وهو يذهب إلى أن الفقه عبارة عن تفصيل لأمور الدنيا، وهو متعلق بمصالحها فقط(١). وأن الفقهاء هم علماء الدنيا فقط، ومهمتهم لا تتعدى ذلك(٢).

يقول الغزالي:

«فإن قلت: لِمَ ألحقت الفقه بعلم الدنيا؟

فاعلم: ... أن [الله] خلق الدنيا زاداً للمعاد ليتناولوا منها ما يصلح للتزود، فلو تناولوها بالعدل لانقطعت الخصومات وتعطل الفقهاء، ولكنهم تناولوها بالشهوات، فتولدت منها الخصومات، فمست الحاجة إلى سلطان يسوسهم، واحتاج السلطان إلى قانون يسوسهم به. فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طرق سياسة الخلق وضبطهم»(٣).

وأضاف:

«واعلم أن أقرب ما يتكلم الفقيه فيه من الأعمال التي هي أعمال الآخرة ثلاثة: الإسلام والصلاة والزكاة والحلال والحرام.

فإذا تأملت منتهى نظر الفقيه فيها علمت أنه لا يجاوز حدود الدنيا إلى الآخرة.. أما الإسلام فيتكلم الفقيه فيما يصح منه. وفيما يفسد. وفي شروطه. وليس يلتفت فيه إلا إلى اللسان.

وأما القلب فخارج عن ولاية الفقيه، لعزل رسول الله ﷺ أرباب السيوف والسلطنة عنه حيث قال: «هلا شققت قلبه»(٤).

قلت: وهذه العبارة قالها رسول الله ﷺ لأسامة بن زيد ـ وهو من أفاضل الصحابة ـ ولو كانت مكاشفة القلوب شيئاً حقيقياً لكان أسامة ـ

(١) ـ المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ٣١ ط. الجندي
(٢) ـ أنظر الإحياء ١ / ١٧١ .
(٣) ـ ن.م. ١/ ١٧.
(٤) ـ الإحياء ١/ ١٧ ـ ١٨.

والصحابة ـ أولى به من العارفين الذين يدّعي الغزالي علمهم بما في ضمائر الناس ومطالعتهم لقلوبهم جاعلاً أسامة رضي الله عنه في هذا الاستدلال بمنزلة الفقهاء المحجوبين عن درك الأسرار ومطالعة القلوب!

والذين ذمهم وعاب عليهم عدم بلوغهم هذه المرتبة التي ألحقها بالعارفين.

ولما جعل حضور القلب شرطاً لقبول الصلاة مخالفاً بذلك إجماع الفقهاء، توقع أن يواجه بالسؤال التالي بقوله:

«فإن قلت: إن حكمت ببطلان الصلاة وجعلت حضور القلب شرطاً في صحتها. خالفت إجماع الفقهاء. فإنهم لم يشترطوا إلا حضور القلب عند التكبير؟

أجاب بقوله:

«فاعلم أن الفقهاء لا يتصرفون في الباطن، ولا يشقون عن القلوب، ولا في طريق الآخرة. بل يبنون أحكام الدين على ظاهر أعمال الجوارح.

وظاهر الأعمال كاف لسقوط القتل وتعزيز السلطان، فأما أنه ينفع في الآخرة: فليس هذا من حدود الفقه»(١).

وهؤلاء الفقهاء عند الغزالي من جنس من قيل له: «هلا شققت قلبه» أما العارفون فإنهم يشقونه. ولا يقال لهم حينئذ ما قيل لأسامة بن زيد رضي الله عنه لأنهم ـ على حد قول الغزالي ـ: « صفت قلوبهم ، حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير مناطقة باللسان ، ولكن بتشاهد القلوب وتناجي الأسرار » (٢) .

والتناقض هنا يبرز حين يستشهد الغزالي بقوله ﷺ لأسامة: «هلا

(١) ـ الإحياء ١/ ١٦٠ .
(٢) ـ الإحياء ٤/ ٢١٦ .

شققت قلبه» علماً بأن أسامة رضي الله عنه صحابي. والغزالي قد جعل من الصحابة أسوة للعارفين في خوضهم في علوم الآخرة دون علوم الدنيا التي يمتاز بها الفقهاء.

الا ترى أنه حين ذكر تقلد الفقهاء للفتاوى واختصاصهم بذلك دون العارفين، أفاد بأن هذا خلاف ما كان عليه الصحابة، حيث كانوا يحترزون عن الفتوى ويحيل كل منهم المستفتي على صاحبه، لكنهم كانوا لا يحترزون إذا سئلوا عن علم القرآن وطريق الآخرة[1].

فنسب واحداً منهم مرة إلى أهل الظاهر، وجعلهم أخرى من علماء الآخرة، منزهاً لهم عن أن يكونوا في الطرف الآخر أعني علماء الدنيا «الفقهاء»!!

قال الغزالي:

«... وأما الآخرة فلا تنفع فيها الأموال، بل أنوار القلوب وأسرارها وإخلاصها.

وليس ذلك من الفقه، وإن خاض الفقيه كان كما لو خاض في الكلام والطب، وكان خارجاً عن فنه... وأما الخشوع [في الصلاة] وإحضار القلب ـ الذي هو عمل الآخرة وبه ينفع العمل الظاهر ـ لا يتعرض له الفقيه ـ ولو تعرّض له لكان خارجاً عن فنه»[2].

ويقول:

«ولو سئل فقيه عن معنى من هذه المعاني: عن الإخلاص، أو التوكل، أو عن وجه الإحتراز عن الرياء، لتوقف فيه، مع أنه فرض عينه الذي في إهماله هلاكه في الآخرة.

(١) ـ الإحياء ١/١٧ ـ ١٨.
(٢) ـ ن.م. ١/٢١.

ولو سألته عن اللعان والظهار والسبق والرمي، لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج إلى شيء منها»[1].

وإني أرى بأن السبب في تدني مرتبة الفقهاء عند الغزالي ـ واعتبارها في الدرجة الثانية بعد مرتبة العارفين المكاشفين ـ عائد إلى أفضلية علوم المكاشفة على علوم المعاملة عند الغزالي، والتي يصفها بأنها غاية العلوم ويصرح بأن من لم يكن له نصيب من هذه العلوم فإنه يخشى عليه من سوء الخاتمة[2].

فلذلك كان أهل كل علم متفاوتين بحسبه. فالعارفون أصحاب علوم المكاشفة أفضل من الفقهاء الذين لا يشقون القلوب ولا يتصرفون في البواطن.

بل ومن العجب أن يجعل المتكلمة أفضل حالاً من الفقهاء حينما يجعل الحاجة إلى المتكلم أشد وأشد بكثير من الحاجة إلى الفقيه (حسبما يقوله)[3].

والسبب الثاني الذي حدا بالغزالي إلى تحديد صلاحيات الفقيه وقصرها على الأمور الدنيوية وعلى الظواهر يعود إلى كون علماء المكاشفة قد استغنوا بكشفهم عن طلب العلم بطريق الاكتساب المعهود. وهذه العلوم اللدنيّة التي تهبط عليهم هي أعظم مقاماً من تلك التي ينالها الفقهاء طريقة التعلم وحفظ المتون.

والسبب الثالث أن أصحاب المكاشفات يكثرون بمكاشفاتهم من الشطح، ويصرحون بكلام لا يوافق الشرع بل يخالفه أشد المخالفة. وهذه

(١) ـ ن. م. ص.
(٢) ـ الإحياء ١/١٩.
(٣) ـ جواهر القرآن ٢٣.

العبارات السيئة لا تجد من ينكرها ويقف بوجه قائلها إلا الفقيه، ولهذا ذمو ونالوا منه ووصموه بالعمى وقسوة القلب.

قال ابن الجوزي رحمه الله:

«وبغضهم للفقهاء أكبر الزندقة، لأن الفقهاء يحظرونهم بفتاويهم عن ضلالهم وفسقهم، والحق يثقل كما تثقل الزكاة»(١).

والغزالي يعترف بوجود مثل هذه الشطحات عند الصوفية، والتي تحدث أثناء مكاشفاتهم - وقد بسطت الكلام على هذا فيما سبق - كقول أحدهم: أنا الحق، وسبحاني ما أعظم شأني وقول الآخر: ما في الجبة إلا الله. لكنه وصف قائلي هذا الكلام بأنهم من العاشقين قائلاً: «وكلام العشاق يطوى ولا يُحكى»(٢).

وهذا الكلام أول ما ينكره الفقهاء بعد عرضه على «الفقه» الذي هو ميزان المسلمين. يوزنون به كل حركاتهم وسكناتهم ويعرضونها عليه.

وهذا ما تضيق به صدور أهل الكشف. فإنهم لا يريدون أن يكون «كشفهم موقوفاً على الأدلة الشرعية المحررة» لأن هذا تضييق لرحمة الله الواسعة (كما يقول الغزالي)(٣).

ولكن، إذا لم نزن الكشف بميزان الإسلام - وهما الكتاب والسنة - فبماذا نزنه؟ أنزنه بميزان دين النصارى أم بتوراة اليهود أم بمذاهب الصابئة والبراهمة والمجوس؟!!

وإذا لم نستعمل «الفرقان» في التفريق بين الحق والباطل - أعني القرآن - فلا يبقى في الفصل بين الحق والباطل مطمع. والفقهاء يوزنون

---

(١)- تلبيس إبليس ٣٧٤.
(٢)- مشكاة الأنوار ١٩ - ٢٢.
(٣)- أنظر المنقذ من الضلال ١١.

راه الصوفية وغيرهم بكلام الله وكلام رسوله ﷺ. فهل في ذلك تضييق رحمة الله عز وجل؟!.

والسبب الرابع: أن هذا الجفاء الذي استحدثه الغزالي بين الصوفي والفقيه شبيه جداً بموقف المسيح من الفريسيين كما تصوره الأناجيل المزعومة.

فالمسيح يصف الفريسيين بأنهم متمسكون بناموس موسى وتعاليمه في الظاهر أما في الباطن فإنهم قساة قلوب. وأشرار، يخالفون في بواطنهم ما يدعون إلى اتباعه في الظاهر، عميان يحفظون الناموس ولكن، لاتفقهه قلوبهم ولذلك كان يكلمهم بالأمثال والمرامز. ولما سئل عن استعماله المرامز والأمثال عند مخاطبتهم أجاب قائلاً:

«لأنهم مبصرين لا يبصرون، وسامعين لا يسمعون ولا يفهمون»(١).

ولذلك كان يسميهم «الناموسيّون» أي المتشبثون بالناموس في الظاهر(٢) (الشريعة الظاهرة). وهذا شبيه بتلقيب الصوفية للفقهاء بـ«المترسمين» برسوم الشرع أو بـ«علماء الظواهر» أو بـ«المتشرّعين».

وكان يرى بأنهم قوم يقتربون إلى الله بأفواههم، ويكرمونه بشفاههم، أما قلوبهم فبعيدة عنه كل البعد، ويعبدونه باطلاً في حين أنهم يعلّمون الناس وصاياه(٣).

---

(١)- متى ١٣: ١٠.
(٢)- كل ما نذكره عن المسيح عليه السلام من الأقوال لا سبيل لها عند المسلمين إلى التصديق، أو التكذيب وإنما الوقف فيها وقد ذكرناها لنبين أوجه التقارب بين المنهج الصوفي من جهة وبين هذه الحالة بين المسيح وبين الفريسيين من جهة أخرى والتي يحتمل أن تكون مصدراً لهذه الفكرة عند الصوفية.
(٣)- متى ١٥: ٧.

ثم يصرخ في وجوههم قائلاً ـ حسبما تزعمه الأناجيل ـ:

«ويل لكم أيها الكتبة والفريسيّون ـ المراؤون ـ لأنكم تُعشِّرون النعنع والشبث والكمّون وتركتم أثقل الناموس الحق، والرحمة والإيمان.

كان ينبغي أن تعملوا هذه ولا تتركوا تلك(١).

أيها القادة العميان الذين يُصفّون عن البعوضة، ويبلعون الجمل.

ويل لكم أيها الكتبة والفريسيّون المراؤون لأنكم تشبهون قبوراً مُبيّضة تظهر من خارج جميلة وهي من داخل مملوءة عظام أمواتٍ وكل نجاسة.

هكذا أنتم أيضاً من خارج تظهرون للناس أبراراً، ولكنكم من داخل مشحونون رياءً وإثماً(٢).

وقد جاء إليه بعض هؤلاء الفريسيين ليجربوه قائلين:

«هل يحلّ للرجل أن يطلق امرأته لكل سبب؟» أجابهم بأن «الذي جمعه الله لا يفرقه إنسان» فأنكروا عليه مخالفته لناموس موسى وقالوا له:

«فلماذا أوصى موسى أن يُعطي الرجل كتاب طلاق فتُطلّق المرأة» أجابهم: «إن موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم»(٣).

إلى غير ذلك من المواجهات الكثيرة بين المسيح عليه السلام والفريسيين والتي يضيق عنها مقام البحث.

ولا يستبعد أن يكون الغزالي ـ أو غيره من الصوفية ـ قد نقلوا نفس الفكرة واستعملوها ولا غرو، فقد كان الغزالي على معرفة جيدة بالأناجيل.

(١) والصوفية يتهمون الفقهاء بأنهم يتعلمون العلم ويتركون العمل.

(٢)ـ متى ٢٣: ١٢ ـ ٢٩.

(٣)ـ متى ١٩: ٣ ـ ٨.

وقد كتب كتاباً اسمه «الرد الجميل لألوهية عيسى بصريح الانجيل» رد فيه على النصارى ادعاءهم ألوهية المسيح.

إضافة إلى أن كثيراً من قصص المسيح قد دخلت الاحياء.

الفقه: اصلاح الظاهر والباطن:

والفقه هو إصلاح لظاهر المرء وباطنه، لا كما يقوله قائلون بأنه إصلاح الظاهر فقط وأن الكلام على القلوب ومعالجة البواطن من الفقيه تجاوز للحدود!.

والقول بأن الفقه هو معرفة ظاهر الشيء بظاهر الحس دون القلب هو خطأ، والقرآن يؤكد ذلك الخطأ.

فقد قال تعالى: ﴿ ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾ [المنافقون ٧] وقد كانت قلوبهم مخالفة لظواهرهم، فدل على أنهم لو تطهرت قلوبهم ووافقت ظواهرهم لكانوا يفقهون.

وقال تعالى: ﴿ **صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون** ﴾ [التوبة ١٢٧] وقال سبحانه: ﴿ **وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون** ﴾ [التوبة ٨٧] فيفهم من ذلك أن القلوب داخلة في نطاق الفقه غير خارجة عنه وأن من لا يعي الأمور بحسه وقلبه لا يكون فقيهاً لها.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى يدل على تناقض الغزالي والصوفية حيث يرمون الفقهاء بأنهم لا يعلمون شيئاً عن علم القلوب كالإخلاص، والتوكل والاحتراز عن الرياء، ثم يرتضون تسميتهم بالفقهاء، مع أنه من يغفل عن علوم كهذه لا يصح تسميته فقيهاً.

وسيد الفقهاء هو عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وهو الذي دعا له النبي ﷺ قائلاً: «اللهم فقّهه في الدين»(١).

(١)ـ أخرجه البخاري ١/٤٥ كتاب الوضوء باب (١٠).

وهو الذي فسر قوله تعالى ﴿ كونوا ربانيّين ﴾ [آل عمران ٧٩] أي: كونوا فقهاء(١) ومع هذا فلم يكن يرى أن علم الباطن وعلم أحوال القلوب هي علوم خارجة عن الفقه ولا يجوز للفقيه التعرض لها.

ولم يكن ليستغني عن العلوم الربانية ويميل إلى العلوم اللدنية والفتوحات الكشفية. وعلى افتراض انه نال هذه العلوم بطريقة الكشف ـ وهذا أبعد ما يكون ـ فكيف يكون والحال هذه فقيهاً حسبما دعا ل الرسول ﷺ، بل يقتضي أن يدعو له ﷺ أن يكون عارفاً أو مكاشفاً، لأن نيل العلوم بهذه الطريقة محرمة ـ عند الصوفية ـ على الفقيه والمتفقهة!. ولو كانت رتبة الفقيه من المنزلة الثانية لما جاز أن يُلقب بها حبر هذه الأمة وترجمان القرآن، ولكان الأولى تسميته بما يسمى به أصحاب المرتبة الأولى: «العارفون» أو «المكاشفون»! ولو أن الغزالي ذم بعض المتفقهة الذين يتقنون العلوم الشرعية الأخروية، وبواطنهم مشربة بحب الدنيا ومتعلقة بها لكان في كلامه وجه من الصحة، إذ لا يخلو الأمر من وجود بعض هؤلاء ممن يتعلقون بالظواهر ويهملون ما يصلح بواطنهم.

لكنه لم يرَ الفقيه من علماء الدنيا إلا لأنه ينظر إلى الفقه على أنه «علم الدنيا» وأنه ليس له تعلق بعلوم الآخرة. فلما ذم العلم ذم أربابه.

(١) ـ أخرجه البخاري ٢٤/١، والبغوي في شرح السنة ٢٨٣/١.

الفصل السادس

المنقذ الحقيقي من الضلال

إن الغزالي قد حصر الحق في أربعة أصناف ولم يتحقق إن كان الحق يعدوها إلى غيرها. وهذه الأصناف هي:

١ ـ المتكلمون.

٢ ـ الباطنية.

٣ ـ الفلاسفة.

٤ ـ الصوفية.

«فقلت في نفسي: الحق لا يعدو عن هذه الأصناف الأربعة... فإن شذ الحق عنهم فلا يبقى في درك الحق مطمع»(١).

لكنه لم يتكلم شيئاً عن طائفة أهل الحديث والآثار النبوية الذين هم أحرص الناس لأن يكونوا على مثل كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه.

(١)- المنقذ من الضلال ١٢.

إذ هم ليسوا بمجادلين كالمتكلمة، ولا خائضين بالرأي والعقل كالفلاسفة، ولا يقولون بعصمة أحد ولا يقسمون الدين إلى باطن يخالف ظاهر ما أنزل الله على رسوله كالباطنية. ولا أصحاب غلوّ وخلوات وخيالات وكشوفات مزعومة كالصوفية.

وأصحاب هذه الأصناف يتفاوت أهلها في الضلالة. فالفلاسفة والباطنية كفار، كفرهم ظاهر عند المسلمين. وكلام الأئمة في ذم البدع الكلامية وطرائق الجدل كثير جداً. والغزالي رجل قد تفقّه على مذهب الشافعي، والتزامه له لا بدّ وأن يعرّفه مواقف الشافعي من أصحاب هذه الأصناف.

وقد أغلظ الشافعي القول في أهل الكلام وعابهم وعاب علومهم، وقال بأن كل ذنب من الذنوب ـ خلا الشرك ـ أهون عند الله من هذا الكلام والخوض فيه. وأفتى بتعزير أهل الكلام بالجلد والتشهير بهم بين الناس وجعلهم عبرة لهم. وقد مر معنا بعض أقواله مما يغني عن ذكرها ههنا.

وقال عن الصوفية ـ فيما يرويه عنه ابن الجوزي[1]:

«لو أن رجلاً تصوّف أول النهار، لا يأتي الظهر حتى يصير أحمق... وما لزم أحد الصوفية أربعين يوماً فعاد عقله إليه أبداً».

وأنشد يقول:

ودع الذين إذا أتوك تنسّكوا
وإذا خلوا كانوا ذئاب حقاف

وبذلك تصبح معرفة بُعد هذه الأصناف عن الحق أمراً بديهياً في العقل ومن كلام الأئمة الأفاضل، ولا يحتاج بعد ذلك إلى إفناء العمر في سلوك مسلكها واعتناق مبادئها ليميز الغزالي الخبيث فيها من الطيب.

(١) ـ تلبيس إبليس ٣٧١.

الإسلام دين الفطرة:

قال الغزالي:

«وقد كان التعطش الى درك حقائق الأمور دأبي وديدني، من أول امري وريعان عمري، غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتي، لا باختياري وحيلتي، حتى انحلت عني رابطة التقليد، وانكسرت على العقائد الموروثة... إذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التنصّر، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهوّد، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الاسلام وسمعت الحديث المروي عن رسول الله ﷺ يقول:

«كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجسانه»[1].

فتحرك باطني الى حقيقة الفطرة الأصلية، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين»[2].

إذا كان الغزالي قد قرر ما قرره بناء على الحديث فلماذا أجمل المسلمين مع اليهود والنصارى والمجوس في تنشئة الصبي على ما يخالف الفطرة؟

أذكر رسول الله ﷺ المسلمين مع هؤلاء الأصناف الثلاثة؟

كلا؛ إنه لم يدخل الاسلام ضمن هؤلاء المخالفين للفطرة، لأن الاسلام هو الذي تنشأ الفطرة عليه. ويدل على ذلك الرواية الصحيحة حيث يقول فيها النبي ﷺ:

«ما من مولود يولد إلا على هذه الملة»[3] أي ملة الاسلام.

فلا يُفهم من الحديث أن الاسلام من جملة الأديان التي يجر الأبوان

(١) ـ أخرجه البخاري ١٠٤/٢، ومسلم (٢٦٥٨) وأحمد في مسنده ٣٥٣/٣ و ٤٣٥.
(٢) ـ المنقذ من الضلال ٥ ـ ٦.
(٣) ـ انظر فتح الباري ٢٤٨/٣، ومسلم ح (٢٦٥٨) والمسند ٢٥٣/٢.

طفلهما إليها. لأن النفس مفطورة على الاسلام لا على النصرانية ولا
اليهودية والمجوسية ولهذا لم يكن للاسلام ذكر في هذا الحديث، بل
ذكره فيه تحت اسم الفطرة.

ولو كان الغزالي باحثاً عن الطائفة الناجية المنصورة لوجد صفتها
أكثر الأحاديث النبوية مداولة بين الناس، وهو قوله ﷺ:

«تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة
نبيه»(١).

لا سيما وأن السنة آنذاك كانت ظاهرة على مستوى الدولة، كما
يتجلى ذلك في الأوامر التي أصدرها القادر وأمثاله، والتي تعرّض بسببها
الأشاعرة ـ وسائر المبتدعة ـ لما يسمونه بـ«المحنة»(٢).

لكن الغزالي كان يبحث عما أسماه بـ«حقائق العلوم» لا العلوم
نفسها المعروفة عند الناس. ولذلك فقد وجد ما أراده وبحث عنه عن طريق
التصوف لأن الصوفية ينظرون الى الكشف والعلوم اللدنيّة على أنها حقائق
لا يحصل رتبتها ومنزلتها إلا أهل المعرفة، وهم قلة قليلة.

والغزالي يحكي بأن المنقذ من الضلال كان هو الكشف. الذي
توصل به الى الحقائق التي كان يبحث عنها.

فبعد أن شفي الغزالي من مرضه وعادت نفسه الى الصحة والاعتدال
ورجعت الضروريات العقلية مقبولة، موثوقاً بها، قال:

«ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في

(١)ـ أخرجه مالك في الموطأ ٢/٨٩٩، وقال فيه الألباني: وهو معضل كما ترى. لكن
له شاهد من حديث ابن عباس بسند أخرجه الحاكم.
(٢)ـ انظر طبقات السبكي ٣/٥٢ و ٢٤٥.

الصدر، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف، فمن ظن أن الكشف موقوف
على الأدلة المحررة فقد ضيّق رحمة الله تعالى الواسعة»(١).

وهذه الجملة الأخيرة خطيرة، إذ هي تفيد أن الكشف غير مقيد بأدلة
شرعية أو عقلية تقررها أو تنكرها، بل هو مستقل بحاله لا يوزن بشرع
صحيح ولا عقل سليم. وسنرى في الفصول القادمة كم كان لهذه النظرية
أبعادها وخطورتها حيث أنها آلت به الى تقسيم العلوم إلى علوم معاملة
تتقيد بالأدلة الشرعية وتنحصر بها. والى علوم مكاشفة تأتي بالعجائب التي
لا سبيل الى ادراكها بالعقل ولا غيره، لأن لها طوراً آخر وراء العقل.

ويمكن القول بأن سبب تحلل الباطنية للشرائع كان هذا القسم الثاني
الذي نسبوه الى إمامهم المعصوم.

فليس الكشف موقوفاً على الأدلة المحررة فحسب، بل كل حركات
العبد وسكناته موقوفة على تلك الأدلة، مرهونة بها، وإليه الاشارة بقوله
تعالى: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾
[الأنعام ١٦٢].

وقد ضمن لنا رسول الله ﷺ العصمة بكتاب الله وبالسنة المطهرة ولم
يضمنها بكشف الصوفية.

ثم كيف عرف الغزالي أن الطريق الصحيح للمعرفة يبتدىء بالشك
وينتهي الى الكشف؟

إن اختيار الشك هو ترجيح بلا مرجّح، وإلا فما الذي جعله البداية
الحقيقية للمعرفة؟ فحريّ به أن لا يتوصل بعد ذلك إلى الحق الذي ظن
أنه توصل إليه، كالقول بالكشف والعلم اللدني وحصول المشاهدات الربانية

(١)ـ المنقذ من الضلال ١١

ورؤية الملائكة وسماع أصواتهم التي قال بها لغزالي، لأن طريقه في تحـري الحق لم تكن صحيحة حيث إنـه كـان يبحث عمـا أسماه بـ «الحقائق». مما يبين أنه كان يبحث عن شيء معين وهو الكشف.

ولأنه اعتمد في هذا البحث على الشك في الفطرة التي فطر الله الناس عليها. والشك لا يوتي بالحقائق ولا يوصل إليها.

الباب السابع

وقفاتٌ مع كتاب الإحياء

ورؤية الملائكة وسماع أصواتهم التي قال بها لغزالي، لأن طريقته في تحـري الحق لم تكن صحيحة حيث إنـه كـان يبحث عمـا أسماه بـ«الحقائق». مما يبين أنه كان يبحث عن شيء معين وهو الكشف.

ولأنه اعتمد في هذا البحث على الشك في الفطرة التي فطر الله الناس عليها. والشك لا يوتي بالحقائق ولا يوصل إليها.

الباب السابع

وقفاتٌ مع كتاب الإحيا

الفصل الأول

ذكر المنام الذي زعموا فيه تأيد النبي ﷺ لكتاب الاحياء

وإذا كنا قد ذكرنا من عجائب أقوال وآراء الغزالي في الكشف ما ذكرناه، وإذا كانت هذه العجائب مما لا يوافقه عليها الشرع ولا يقرها ذوو الفطر السليمة، فتعال معي أعرض عليك أكذوبة من أكاذيب الصوفية وجدناها عند السبكي، وجعلها الشيخ عبد القادر العيدروس بمثابة (عصا)، يلوح بها أمام كل منكر على الغزالي وعلى إحيائه، مخوفاً إياهم من عاقبة ذلك. حيث ذكر في كتابه «تعريف الأحياء بفضل الإحياء» تلك القصة قائلاً:

«وذكر اليافعي أن أبا الحسن بن حرزهم الفقيه المشهور المغربي كان بالغ في الإنكار على كتاب إحياء علوم الدين - وكان مطاعاً مسموع الكلمة - فأمر بجمع ما ظفر به من نسخ الإحياء وهمّ بإحراقها في الجامع يوم الجمعة فرأى ليلة تلك الجمعة كأنه دخل الجامع فإذا هو بالنبي ﷺ فيه، ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. والإمام الغزالي قائم بين يدي النبي ﷺ فلما أقبل ابن حرزهم قال الغزالي: «هذا خصمي يا رسول الله

فإن كان الأمر كما زعم «تبت إلى الله»(1)، وإن كان شيئاً حصل من بركة واتباع سنتك فخذ لي من خصمي، ثم ناول النبي ﷺ كتاب الإحياء فتصفحه النبي ﷺ ورقة ورقة من أوله إلى آخره ثم قال: والله إن هذا لشيء حسن، ثم ناوله الصدّيق رضي الله عنه، فنظر فيه فاستجاده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق إنه لشيء حسن، ثم ناوله الفاروق عمر رضي الله عنه فنظر فيه وأثنى عليه كما قال الصدّيق، فأمر النبي ﷺ بتجريد الفقيه علي بن حرزهم عن القميص وأن يُضرب ويُحد حد المفتري فجُرِّد وضرب، فلما ضرب خمسة أسواط تشفع فيه الصديق رضي الله عنه وقال: يا رسول الله لعله ظن فيه خلاف سنتك فأخطأ في ظنه، فرضي الإمام الغزالي وقبل شفاعة الصديق. ثم استيقظ ابن حرزهم وأثر السياط في ظهره، وأعلم أصحابه وتاب إلى الله عن إنكاره على الإمام الغزالي واستغفر، ولكنه بقي مدة طويلة متألماً من أثر السياط»(2).

ألا قاتل الله ملفق هذه الفرية ما أكذبه! ألم يعلم. أن رسول الله ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب؟ أم أن تعصبه الأعمى أغفله عن هذه الحقيقة التي أراد الله أن يجعلها علامةً على كذبة، ألا فليتبوّأنّ مقعده من النار هو وأمثاله ممن يكذبون على رسول الله ﷺ متعمدين فقد جاء في الصحيح عنه ﷺ انه قال: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» رواه مسلم.

أما الأمر الآخر الذي يشهد بكذبه فإنه الاحياء نفسه وما فيه من الأباطيل التي لا يقول بها ولا يقرها أجهل الناس بالإسلام فكيف بالنبي الكريم صلوات الله عليه أيقر بهذه العجائب التي مررنا على بعضها؟!!!

---

(1) ـ ما أغنى مختلق هذه الأكذوبة، أتقبل توبة الرجل بعد موته ؟.

(2) ـ تعريف الأحياء بفضائل الإحياء ٣/٥ ـ ٤ (ملحق بالإحياء) وطبقات الشافعية للسبكي ١٣١/٤ ـ ١٣٢.

ولو فرضنا ـ جدلاً ـ أن رسول الله ﷺ قرأ الإحياء وقلبه «صفحة صفحة» ـ حسبما يقوله هذا المدّعي ـ فهل أقرّ فيه قول الغزالي ـ فيما ينقله عن أبي تراب النخشبي ـ: «لئن رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة»(1). ؟ أم هل أقر قول أبي يزيد لأحد أعيان بسطام: «قولك سبحانه الله شرك، لأنك سبحت نفسك فعظمتها وما عظمت ربك» ؟ (2)

ـ ألم يطلع ﷺ في الإحياء على ما يقارب الستمائة حديث بين ضعيف وموضوع؟!!(3).

ـ ألم يقرأ قول الغزالي في آداب الخلوة: «ويخلو بنفسه في زاوية ويقتصر على الفرائض والرواتب، ولا يقرن همه بقراءة قرآن ولا بالتأمل في تفسير ولا يكتب حديثاً»؟(4).

ـ ألم يقرأ قوله: «القلوب وإن كانت محترقة بحب الله تعالى فإن البيت الغريب يهيّج منها ما لا تهيج تلاوة القرآن» وقوله: «إعلم أن الغناء أشد تهييجاً للوجد من القرآن لوجوه عديدة»؟(5).

---

(1) ـ الإحياء ٣٥٦/٤.

(2) ـ الإحياء ٤ / ٣٥٨ .

(3) ـ مع أن الغزالي قد حث في رسالته الصغيرة (الأدب في الدين) على المحدّث التحدث بالأحاديث المشهورة وترك المناكير قائلاً:
« ـ آداب المحدث ـ: على المحدث أن يحدث بالمشهور، ويروي عن الثقات، ويترك المناكير». (رسالة الأدب في الدين ص ١١١ ـ ملحقة بكتاب المنقذ من الضلال ط المكتبة الثقافية بيروت). ومع هذه النصيحة التي قدمها الغزالي للمحدث فقد حشا إحياءه بالمئات من هذه الأحاديث المنكرة. وقد جمع السبكي معظم هذه الأحاديث في طبقاته فبلغت في ثمانية وثلاثين صفحة. انظر الطبقات ١٤٥/٤ ـ ١٨٢.

(4) ـ الإحياء ١٩/٣.

(5) ـ الإحياء ٣٠١/٢ و ٢٩٨/٢.

ـ ألم يقرأ قوله عن أصحاب مرتبة «الصّديقين» بأنهم:

«قوم رأوا الله سبحانه وحده ثم رأوا الأشياء به، فلم يروا في «الدارين» غيره، ولا اطلعوا في الوجود على سواه» وهذا هو النظر بعين التوحيد «وهو يعرّفك أنه الشاكر وأنه المشكور وأنه المحب وأنه المحبوب، وهذا نظر من عرف أنه ليس في الوجود غيره.. فهو الشاكر وهو المشكور»[1].

ـ ألم يطلع على تقسيم الغزالي للناس إلى صنفين:

١ ـ الصنف الأول: وهم الأذكياء الذين لا يطلبون الجنة ـ بل يحتقرونها ـ وإنما يطلبون مجالسة رب العزة دائماً؟!!

٢ ـ الصنف الثاني: وهم البله أي البسطاء الذين يتمتعون في الجنة بالنسوان والطعام والشراب كالبهائم مستبدلين الذي هو أدنى بالذي هو خير؟[2].

ـ ألم يقرأ قوله:

«وما حكي من تفرّس المشايخ وإخبارهم عن اعتقادات الناس وضمائرهم يخرج عن الحصر»[3]؟

ـ ألم يقرأ رسول الله ﷺ قوله:

«واستمع بسر قلبك لما يوحى فلعلك تجد على النار هدى، ولعلك من سرادقات العرش تُنادي بما نودي به موسى ﴿ إني أنا ربك ﴾»[4].

(١) ـ الإملاء في إشكالات الإحياء ٥/٣٠ ـ ٣١ (ملحق بالإحياء) وانظر الإحياء ٤/٨٦.

(٢) ـ الإحياء ٤/٣٣٥. أما العبارة الأخيرة وهي: (مستبدلين الذي هو أدنى..) ففي جواهر القرآن ٤٤ و ٤٩.

(٣) ـ الإحياء ٣/٢٥.

(٤) ـ الإحياء ٤/٢٥١.

ـ أيكون الغزالي معصوماً من كل زلة ومنزهاً عن كل نقصان حتى يتلقى الرسول ﷺ احياءه ورقة ورقة فلا يجد فيه خطأ بسيطاً أو ملاحظة صغيرة على الأقل؟

ـ وأخيراً أتساءل فأقول:

ـ أيرضى الرسول ﷺ أن يشتمل كتاب الإحياء على شتى المواضيع ـ عمومها وخصوصها كبيرها ودقيقها ـ حتى ليتطرق إلى أبواب الخلوة والسماع ـ بينما لم يكتب فصلاً واحداً عن الجهاد في سبيل الله يحث الناس عليه؟!! أيعقل أن يكون قد سكت عن ذلك كله؟

ـ أيرضى رسول الله ﷺ أن يدخل الصليبيون القدس فيستبيحون الأعراض ويسفكون الدماء ويدخلون بيت المقدس بصلبانهم وسيوفهم ويذبحون المسلمين كالخراف بينما الغزالي قابعاً في زاويته منكبّاً على أوراده في خلوته المظلمة يتدثر بكساء أو إزار ليسمع نداء الحق ويشاهد جلال الحضرة الربوبية!. أو مشغولاً بتصنيف إحيائه ليقرر فيه أن من كان لديه قميصان وسروالان ومنديلان فهو خارج عن جميع ألوان الزهد، وأن من يدّخر لأربعين يوماً فذلك موجب لحرمانه من المقام المحمود، وأن من خرج إلى البوادي بغير زاد (على التوكل) ولم يجد شيئاً فعليه أن يرضى بالموت إن لم يتيسر له حشيش أو قوت.

بينما لم يكتب فيه كلمة واحدة يعبر فيها عن مشاعره تجاه ما جرى للمسلمين من المجازر هناك!.

أهذا هو الإحياء الذي زعموا أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه تصفحه ورقة ورقة قائلاً: «والله إن هذا لشيء حسن»؟! وأن أبا بكر قال له: «نعم والذي بعثك بالحق إنه لشيء حسن»؟!

إن هذه الرواية المختلقة لم تكن إلا بمثابة تهديد وتخويف لكل من يهمّ بإنكار هذه الأباطيل الواردة في كتاب الإحياء والتي كتبها من حمل لقب «حجة الإسلام» وما فيها مما يوافق دين الإسلام.

فلا يخافن أحد هذه الأساطير الصوفية ولا يترددنّ في إنكار أي شيء باطل يراه منهم فإن إنكار المنكر هو ركيزة هذا الدين وما تركه قوم إلا استحقوا غضب الله وعقابه، والصوفية أوهموا الناس عكس ذلك فخوفوهم من انتقام الله منهم بسبب إنكارهم. قال تعالى: ﴿ **كنتم خيْر أمةٍ أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾ [آل عمران ١١٠] وقال سبحانه: ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾ [التوبة ٧١].

وقد ترك بنو إسرائيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فاستحقوا اللعن على ألسنة أنبيائهم، قال تعالى: ﴿ **لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه** ﴾ [المائدة ٧٨].

وعن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهوّن عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»[1].

فهذا أمر من رسول الله ﷺ بالتمسك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن نامر بكل ما يوافق شرع الله وننهي عن كل ما يخالف شرعه.

(١)- رواه الترمذي (٢١٧٠) وقال حديث حسن، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: وفيه حبان بن علي وهو متروك وقد وثقه ابن معين في رواية وضعفه في غيرها، (٢٦٦/٧) لكن الحديث حسن كما قال الترمذي (انظر صحيح الجامع الصغير حديث رقم ٦٩٤٧).

والذين ينكرون على الغزالي كتابه الإحياء إنما ينكرون منه ما خالف شرع الله وسنة رسول ﷺ.

ولو أنهم أنكروا ما جاء فيه من الأحاديث الموضوعة والضعيفة البالغة ستمائة حديث وتركوا ما سوى ذلك لكان في إنكارهم انتصار لأحاديث النبي وكلامه - وهذا ما يُحمدون عليه - فكيف وأنهم ينكرون منه هذه العجائب التي حشا بها الغزالي إحياءه؟

ولقد عهدنا في الصوفية أسلوب الترهيب من الإنكار على مخالفتهم لصريح شرع الله وذلك أنهم يلفقون قصصاً لا أصل لها ليخوفوا بها المنكرين[1].

فقد قال النبهاني: «قال المناوي: قال لي فقيه عصره شيخنا الرملي إن بعض المنكرين رأى أن القيامة قد قامت ونصبت أوانٍ في غاية الكبر وأُغلي فيها ماء يتطاير منه الشرر وجيء بجماعة ضبائر ضبائر فصُلقوا فيه حتى تهرى اللحم والعظم فقال ما هؤلاء؟ قال: الذين ينكرون على ابن عربي وابن الفارض»[2].

وإذا أردت معرفة شيء عن ابن عربي هذا فسيعرّفك هو بنفسه عن نفسه عندما تسمع منه هذين البيتين باختصار. يقول في كتابه «فصوص الحكم»:

(١)- يريد الصوفية أن يسكت الناس عن تحليل مشايخهم للحرام وتحريمهم للحلال وأن لا ينكروا عليهم شيئاً. إذ الانكار على هؤلاء سوء أدب بحقهم لا سيما وهم الأولياء الأقطاب الأوتاد! لقد صار فيهم شبه بحال النصارى الذين قدسوا أحبارهم ورهبانهم وعبدوهم لابالسجود لهم وإنما بتحريم ما حرموه لهم وتحليل ما حللوه لهم بما يخالف الشرع.

(٢)- جامع كرامات الأولياء ٢١٨/٢ ط دار صادر.

فيحمدني وأحمده ويعبدني وأعبده
ففي حالٍ أقرّ به وفي الأعيان أجحده

ولو أردت زيادة في معرفته لنقلنا لك المزيد من بعض الأبيات التي يقول فيها:

فلولاه ولولانا لما كان الذي كانا
وإنّا عينه فاعلم إذا ما قلت إنسانا
فلا تُحجب بإنسان فقد أعطاك برهانا
فكن حقاً وكن خلقاً تكن بالله رحمانا(١)

أما ابن الفارض فكان «يناجي» ربه مخاطباً إياه بضمير المؤنث حين يقول:

لها صلواتي بالمقام أقيمُها
وأشهدُ فيها أنها لي صلّت
كِلانا مُصلٍّ واحد ساجد إلى
حقيقته بالجَمْعِ في كُلّ سَجْدَةِ
وما كان لي صَلّى سِوَايَ ولم تكن
صَلاتي لِغَيْري في أداء كل ركعةِ
وما زِلْتُ إيّاها وإيّايَ لم تزل
ولا فرق بل ذاتي لذاتي أحبّتِ(٢)

وليضمن المتصوفة صرف الآخرين عن الإنكار على هذين الصنمين.

(١)- فصوص الحكم ٨٣و ١٤٣.
(٢)- ديوان ابن الفارض ٣٢ - ٣٨ ط. المكتبة الثقافية - بيروت.

وما تحمله كلماتها في طياتها من الكفر الصريح - وضعوا هذه الأكذوبة إرهاباً للناس ودفعاً لإنكارهم.

وليضمن العيدروس عدم الإنكار على إحياء الغزالي ذكر هذه الرواية المكذوبة على رسول الله ﷺ ولا حيلة له بغير هذا الطريق إذ أن في الإحياء من العجائب ما لا يشهد على رده دليل شرعي ولا تظله حجة بل الأدلة قائمة ضده. ولما عجز هو وغيره عن الرد على المنكرين بطريق علمي مقرون بالأدلة الشرعية الواضحة لجأ إلى دليل الصوفية الرئيسي وهو (الأحلام)!. والإختلاق الصوفي!.

وقد أتى بشواهد على فضل كتاب الاحياء تدل على تعصّبه الشديد.

فقال: قال النووي: «كاد الإحياء أن يكون قرآناً». وقال: «أجمع العلماء العارفون بالله على أنه لا شيء أنفع للقلب وأقرب إلى رضا الرب من متابعة حجة الإسلام الغزالي ومحبة كتبه».

وقال العيدروس: قال الشيخ الكازروني: «لو محيت جميع العلوم لاستخرجت من الإحياء».

ونقل عن علي بن أبي بكر السقاف قوله: «لو قلب أوراق الإحياء كافر لأسلم»(١).

لكنني أتساءل أي كافرٍ من الملل الأخرى اجترأ أن يوافق أبا تراب النخشبي في قوله: لئن رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة؟ ومن منهم يوافق أبا يزيد البسطامي قوله حين قال له رجل سبحان الله فقال له: قولك سبحان الله شرك لأنك عظمت نفسك فسبحتها

(١)- تعريف الأحياء بفضائل الإحياء ٥/٥ - ٦ (ملحق بكتاب الإحياء).

وما سبحت ربك؟ فهذه موجودة في الاحياء وما أظن أن اتباعه لهذه الطامات التي في الإحياء ستنقله من الكفر إلى حظيرة الإسلام. وما رأي الشيخ السقاف لو أن كافراً قرأ القرآن ولم يسلم أيحيله على كتاب الإحياء مطمئناً بتأكيد الشيخ وضمانه إسلام من يقلب صفحات هذا الكتاب؟!!!

ثم إن ما في الاحياء من العجائب ليس سببه زلة قدم، ولا وقوع خطأ، إذ لا يتردد من اتصفوا بصفة النقص - بحكم طبيعتهم البشرية - في القول بأن هذه الطامّات الموجودة في الاحياء منكرة ينكرها الجاهل بفطرته فما بالك بالعالم الذي حمل لقب «فقيه» وحجة الإسلام» ألا يكون من باب أولى أن يعلم استاذ المدرسة النظامية وحامل لواء العلم والتعليم في بغداد ونيسابور ودمشق أن قول أبي تراب النخشبي هو كفر بواح؟ أيليق بمن سمي بـ« حجة الإسلام »أن يثني على صاحب كلمة الكفر هذه وأمثاله وأن يعلق على ذلك بقوله: «فهذه أوائل سلوك القوم وأقل مقاماتهم وهي أعز موجود في الاتقياء من الناس»؟!(1).

يقول الشيخ عبد القادر العيدروس: «كان الوالد مدمناً على مطالعة أي الإحياء وحصل منه نسخاً عديدة وأمر بقراءته عليه غير مرة، وكان يعمل في ختمه ضيافة عامة فملازمته ميراث عيدروسي وتوفيق قدوسي». ثم قال «بأن والده الشيخ علي قد ألزم ولده عبد الرحمن قراءته عليه طيلة حياته فختمه عليه خمساً وعشرين مرة»(2).

ليته أتى بهذه الأساليب لترغيب الناس في الحديث وتلاوة القرآن ولو فعل لكان خيراً له من هذا الإعتساف والدفاع المستميت عن كتاب اشتمل على هذه الأغلاط الشنيعة.

ولقد دفع التعصب القائل بالعيدروس أن نقل البشرى من والده الشيخ

---

(1)- الإحياء ٤/٣٥٧ باب حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم.

(2)- تعريف الأحياء بفضائل الإحياء ٥/٦ (ملحق بكتاب الإحياء).

عبد الله إلى كل من يحصل كتاب الإحياء ويجعله في أربعين مجلداً بدخول الجنة وهاكم مقولته:

«ولما بلغني أن سيدي الشيخ عبد الله العيدروس رضي الله عنه قال: من حصل كتاب إحياء علوم الدين، وجعله في أربعين مجلداً ضمنت له على الله بالجنة فحصلته كذلك بهذه النية ولله الحمد»(1).

فلما علم الناس بهذه الفرصة - فرصة المناقصة لبيع أراض في الجنة لمن يكتب الإحياء - تسارعوا إلى ذلك، منهم عبد الله بن أحمد باكثير وزاد في تبيينه وتزيينه، وجعل لكل جلد كيساً فلما رآه الشيخ عبد الله العيدروس قال: زدت زيادة حسنة فيحتاج لك زيادة فما تريد؟ قال: «أريد أن أرى الجنة في هذه الديار، فأجابه الشيخ، وقال: لا يمكنك الجلوس بعدها عندي فارحل إلى مكة. فرحل إليها. وكان يقول: لو اجتمع بشيوخ الرسالة في جانب الحرم وأنا في جانبه الآخر ما كنت أهتز لما عندهم، لما ملأني به العيدروس»(2).

لقد أصبح كتاب الإحياء عند العيدروس أشبه بصكوك الغفران التي كانت تباع بها الجنة أيام الكنيسة الرومانية، لقد كان ضمان الجنة أو الحرمان منها من قبل «البابا» في الكنيسة من أهم العوامل التي أدت إلى السخرية من النصرانية ورجالاتها - ومن ثم - إلى الإعراض عنها والميل إلى المذاهب الإلحادية في أوروبا. وهذه المهزلة - مهزلة ضمان الجنة على سجية الضامن - تتكرر عند الصوفية. وما ضمان العيدروس لمحصلي كتاب الإحياء بدخول الجنة إلا شاهد على ذلك.

---

(1)- أنظر المشرع الروي في مناقب آل باعلوي ٢/٣٣٦ وقد تقدم ذكره.

(2)- المشرع الروي ٢/٣٥٤ - ٣٤٦. ولقد بلغ الترغيب بالإحياء وقراءته عند صاحب هذا الكتاب إلى درجة الغلو فيه حتى إنه ليذم من لا يقرأه قائلاً: « من لا يطالع الإحياء ما فيه حياء » أ. هـ المشرع ٢/٣٢٨.

وإليك مثالاً آخر نضربه لك. فقد حكى عبد الوهاب الشعراني في «طبقات الأولياء» أن الشيخ مدين الأشموني جاءته امرأته وقالت له: «علي ثلاثون ديناراً وتضمن لي على الله الجنة. فقال الشيخ مباسطاً لها: ما يكفي، فقالت: لا أملك غيرها. فضمن لها على الله دخول الجنة فماتت فبلغ ورثتها ذلك. فجاؤا يطلبون الثلاثين ديناراً من الشيخ وقالوا: هذا الضمان لا يصح. فجاءتهم في المنام وقالت لهم: اشكروا لي فضل الشيخ فإني دخلت الجنة. فرجعوا عن الشيخ»(١).

وها هو الشيخ أحمد الرفاعي يطلب شراء بستان من صاحبه فيقول له صاحب البستان «تشتريه مني بقصر في الجنة؟ فقال: من أنا حتى تطلب مني هذا يا ولدي(٢)؟ أطلب من الدنيا. فقال: يا سيدي، شيئاً من الدنيا ما أريد، فإن أردت البستان فاشتريها بما أطلب. فنكس السيد أحمد الرفاعي رأسه ساعة واصفر لونه وتغير ثم رفع وقد تبدلت الصفرة احمراراً وقال: يا اسماعيل قد اشتريت منك البستان. بما طلبت. فقال يا سيدي اكتب لي خط يدك. فكتب له السيد أحمد الرفاعي ورقة فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما اشترى اسماعيل بن عبد المنعم من العبد الفقير الحقير أحمد بن أبي الحسن الرفاعي ضامناً على كرم الله تعالى قصراً في الجنة تجمعه حدودٌ أربعة: الأولى إلى جنة عدن. والثاني إلى جنة المأوى، والثالث إلى جنة الخلد، والرابع إلى جنة الفردوس بجميع حوره وولدانه وفرشه وستره وأنهاره وأشجاره، عوض بستان في الدنيا وله الله شاهد وكفيل» أ. هـ.(٣).

---

(١)- طبقات الأولياء المسماة بلواقح الأنوار في طبقات الأخيـار ١٠٢/٢.

(٢) - في الأصل أي.

(٣) - قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر ٧٠ - ٧١ ط دار الكتب العلمية. بيروت.

نكتفي بهذه الأمثلة لنخرج من ذلك بحقيقة وهي أن مهازل التصوف - في هذا الباب وأبواب أخرى كالرهبنة والغلو في الدين وفي الرجال - شبيهة جداً بمهازل الكنيسة وأربابها. وبيع «العقارات» في الجنة هو من جملة هذا التشابه والتقارب.

فلا «البابا» قادر على ضمان الجنة لأحد - بل ولا لنفسه - ولا الشيخ عبد الله العيدروس قادر على ضمان الجنة لأحد - بل ولا لنفسه.

وفي الصحيح من الأحاديث ما يفيد نهي النبي ﷺ تزكية الأخ أخاه فكيف بمن يضمن للناس الجنة بل ومن يريهم إياها - كما فعل الشيخ العيدروس لعبد الله بن أحمد باكثير؟!!.

فإنه لما توفي عثمان بن مظعون وكُفن في أثوابه دخل رسول الله ﷺ فقالت أم العلاء الأنصارية: «رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال النبي ﷺ: وما يدريك أن الله أكرمه؟ فقالت: بأبي أنت يا رسول الله فمن يكرمه الله؟ فقال عليه السلام: أما هو فقد جاءه اليقين. والله إني «لأرجو» له الخير، والله ما أدري - وأنا رسول الله - ما يُفعل بي. قالت أم العلاء: فوالله لا أزكي أحداً بعده أبداً»(١).

فكيف لو يعلم رسول الله ﷺ أن قوماً يضمنون الجنة للآخرين لمجرد قراءتهم كتاباً قال الموافق لمصنفه والمخالف له أنه مليء بمادة الفلسفة وشيء من رسائل إخوان الصفا وفيه متناقضات كثيرة. لهذا أقول بأنني لم أكن لأصنف هذا الكتاب تعريضاً بالغزالي وإنما كتبته رداً على أمثال هذا الرجل ممن يغلون فيه حتى إنه ليجعل من كتاب الإحياء سبباً لدخول الجنة!!!!-

فالغزالي قد ولى وأفضى إلى ما أفضى إليه لكن قوماً ابتلوا التعصب واتباع

---

(١)- أخرجه البخاري: كتاب الجنائز باب رقم (٣) وأحمد في المسند ٤٣٦/٦.

الهوى يحيون زلاته ويعرضونها على الناس بمختلف الوسائل وشتى المغريات على أنها من أعظم ما يتقرب به العبد الى ربه حتى إنهم ليعرضون بيع الجنة لمن يشتري الإحياء. يضاهئون بذلك ضلال أحبار ورهبان النصارى!.

الفصل الثاني

من عجائب أقوال الغزالي

فمن العجائب التي وردت في كتب الغزالي - وخاصة كتابه الإحياء - ما يلي:

● «وأما حياة الخلوة ففائدتها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر، فإنها دهليز القلب، . . . وليس يتم ذلك إلا بالخلوة في بيت مظلم، وإن لم يكن له مكان مظلم فليلف رأسه في جيبه، أو يتدثر بكساء أو إزار، ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق، ويشاهد جلال الحضرة الربوبية»[1].

واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿يا أيها المدّثر﴾ ﴿يا أيها المزمّل﴾

وكأن الله أنزل هذه الآيات لتحقيق هذا النوع من الخلوة!!

وقال في التحضير والتمهيد للخلوة وما يجب عمله في ذلك:

(1)- الإحياء ٣/٧٦

«ويخلو بنفسه في زاوية، ويقتصر على الفرائض، ولا يُفرِّق همّه بقراءة قرآن، ولا بالتأمل في تفسير، ولا يكتب حديثاً ولا غيره»(1).

ومنها قوله:

● «إن كان في عالم الملكوت جواهر نورانية شريفة عالية، يُعبَّر عنها بالملائكة منها تفيض الأنوار على الأرواح البشرية، ولأجلها قد تُسمى أرباباً. فيكون الله رب الأرباب لذلك»(2).

ومنها قوله:

● «وأطوِ الطريق، فإنك بالواد المقدس طوى، واستمع بسر قلبك لما يوحى، فلعلك تجد على النار هدى، ولعلك من سرادقات العرش تنادى بما نُودِيَ به موسى ﴿إني أنا ربك﴾!!!»(3).

ومنها قوله:

● «إعلم أن المريد في ابتداء أمره ينبغي أن لا يشغل نفسه بالتزويج، فإن ذلك شغل شاغل يمنعه من السلوك ويستجرّه إلى الأنس بالزوجة.

ومن أنس بغير الله شُغل عن الله.

ولا يغرّنّه كثرة نكاح رسول الله ﷺ فإنه كان لا يشغل قلبه جميع ما في الدنيا عن الله تعالى، فلا تُقاس الملائكة بالحدادين... قال أبو سليمان الداراني: من تزوج فقد ركن إلى الدنيا»(4).

وقال أيضاً:

(1)- الإحياء ١٩/٣.
(2)- مشكاة الأنوار ٢٨.
(3)- الإحياء ٢٥١/٤.
(4)- الإحياء ٣١١/٢

● «وإن كان يثق [المريد] بنفسه أنه لا يزني، ولكن لا يقدر مع ذلك على غض البصر عن الحرام فترك النكاح أولى له... والنظر زنا العين، ولكن إذا لم يصدقه الفرج فهو إلى العفو أقرب»(1)!

من الذي يضمن للمذنب عفو الله عنه، ومن الذي يجرؤ على التألي على الله بعقاب أو عفو؟ ثم ماذا يقول الغزالي فيمن لا يملك إربه ويقع في زنا من مجرد النظر، وكم من حادثة زنا سببها نظرة واحدة. إن ما قاله الغزالي يؤدي الى الإستهانة بالمعصية وهذا يتعارض مع قوله في موضع آخر من إحيائه: «ولا تستصغر معصية أصلاً، فإن الله خبأ غضبه في معاصيه، فلعل مقت الله فيه» (2).

وقوله:

«ولما حضرت ابن المنكدر الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟

فقال: والله ما أبكي لذنب أعلم أني أتيته، ولكن أخاف أني أتيت شيئاً حسبته هيناً وهو عند الله عظيم»(3).

ومنها:

● ما وُجد في كتبه من الكيمياء وهي المعروفة بـ«أبا جاد» والتي يتعاطاها المنجمون الذين ينظرون في النجوم، ويعتقدون أن لها تأثيراً على الحوادث الأرضية، وأن معرفة الأشياء لها صلة بالأحوال الفلكية، وهم يكتبون أحرفاً ضمن مربعات تكون بالتالي رمزاً لرقم معين يحصل بواسطته كشف المقادير المخبأة في تلك الأفلاك.

(1)- الإحياء ١٠١/٣.
(2)- الإحياء ٥٢٦/٤.
(3)- الإحياء ٤٨٢/٤.

٤	٩	٢
٣	٥	٧
٨	١	٦

د	ط	ب
ج	هـ	ز
ح	ا	و

وقد رسم الغزالي هذا الشكل الذي تراه، وذكر بأنه من الأسباب ذات الخواص العجيبة والمجربة في معالجة الحامل التي عسر عليها الطلق. ثم قال:

«يكتب على خرقتين لم يصبهما ماء، وتنظر إليهما الحامل بعينيها وتضعها تحت قدميها فيسرع الولد في الحال الى الخروج»(١).

وقد شاع استعمال هذه الطريقة عند اليهود، وهم أهل خبرة بها، فقد حددوا مدة بقاء رسالة محمد ﷺ وأجل أمته بإحدى وسبعين سنة، وذلك حين نزل قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ حيث كانت الألف عندهم واحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون(٢).

وسئل ابن عباس عن قوم يكتبون أباجاد، وينظرون في النجوم فقال: «ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق»(٣).

● ومنها قوله بأنه:

«عند أول سلوك طريق التصوف تبتديء المشاهدات والمكاشفات، حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً، ويقتبسون منهم فوائد. ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال الى درجة يضيق عنها نطاق النطق. فلا يحاول معبّر أن يعبّر عنها إلا اشتمل

(١)- المنقذ من الضلال ٦٦ وانظر طبقات السبكي ١٤٢/٤ .
(٢)- أنظر فتح القدير للشوكاني ٣١/١ ط دار الفكر
(٣)- رواه الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً.

لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه(١)... وعلى الجملة ينتهي الأمر الى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة الوصول، وكل ذلك خطأ. بل الذي لابسته تلك الحالة لا يزيد على أن يقول:

وكان ما كان مما لست أذكره
فظنّ خيراً ولا تسأل عن الخبر»(٢)

بهذا يعترف الغزالي أن أهل الاتحاد والحلول يشعرون بما يشعر به أهل «الوصول» من تخيل الاتحاد والحلول، لكن الخطأ كامن في تصريحهم وتعبيرهم عن هذا الشعور. ذاك هو الخطأ الذي أشار إليه الغزالي واستدل بهذا البيت من الشعر على حتمية التزام الصمت والسكوت لمن لابسته هذه الحالة.

لا يريد بذلك خطأ الشعور بالفناء في الله، لأن الغزالي قال على نفس الصفحة المشار إليها بأن الفناء بالكلية في ذات الله هو آخر مقامات الصوفية. وإنما يريد أن التصريح بهذا الشعور خطأ. وهذا الباب ستكون له مناقشة في موضع لاحق من الكتاب.

ومنها قوله:

(١)- لا بد وأن تكون حصيلة هذه الخيالات المسماة بالكشوفات ـ خطأ صريح. وبرات كفر صريح كقول القائل منهم: سبحاني ما أعظم شأني. وقول الآخر: أنا الحق، وما في الدارين غيري. لأن القوم لم تعجبهم ولم تكفهم مصادر الاسلام المتمثلة بالكتاب والسنة، فراحوا يبحثون عن شيء آخر وجدوه في الكشف والخلوات وطلب الفناء في الله، وكلها بدع مخالفة لهدي النبوة، فحصل لهم الفناء الذي طلبوه، ولكن: لا في الله. بل فناء في الشيطان، ولئن طلبت الدليل على كونه فناء في الشيطان فاسمع ما يقولونه عند هذه الحال التي تأتيهم من الكفر الصريح الذي سيشرحه لنا الغزالي مثبتاً لا منكراً.
(٢)- المنقذ من الضلال ٥٠ .

● «وليس في الإمكان أبدع من صورة هذا العالم ولا أحسن ترتيباً ولا أكمل صنعاً...»(١). وهذا تصريح منه على أنه ليس للقدرة الالهية من القوة ما تقدر به على الزيادة في الخلق. وفيه ما يفيد الاعتقاد بعجز الجناب الالهي.

ومنها قوله:

● «وإسقاط الجاه عن قلوب الخلق بمباشرة أفعال يُلام عليها حتى يسقط من أعين الخلق. وهذا مذهب الملامتية(٢) إذ اقتحموا الفواحش في صورتها ليُسقطوا أنفسهم من أعين الناس فيسلموا من آفة الجاه.

فمنهم من شرب شراباً حلالاً في قدح لونه لون الخمر حتى يُظن أنه يشرب الخمر فيسقط من أعين الناس(٣). كما فعل بعضهم، فإنه عُرف بالزهد وأقبل الناس عليه، فدخل حماماً ولبس ثياب غيره، وخرج فوقف في الطريق حتى عرفوه. فأخذوه وضربوه واستردوا منه الثياب وقالوا: إنه طرّار، وهجروه»(٤).

● وقال:

«وعن بعضهم أنه كان يعالج قوة الغضب ويتكلف صفة الحلم. فكان يعطي السفهاء الأجرة ليجبهوه بالشتم في المحافل فيتعوّد احتماله. فصار

---

(١)- الإملاء على إشكالات الإحياء. للغزالي ٣٥/٥ (ملحق بالاحياء) والإحياء ٢٥٨/٤.

(٢)- الملامتي هو في اصطلاح الصوفية من لا يبدو على ظاهره ما في باطنه. وهو عند الصوفية من أكثر الخلق إخلاصاً لله لأنه يخفي على الناس صلاحه وتقواه. فتابع هذه القصة لتقف على حقيقة مهزلة الاخلاص عند هؤلاء.

(٣) - إذا كان ترك الرجل العمل خوفاً من الرياء يعتبر رياء. فما بالكم بالذي يعمل ما يشبه الفواحش والموبقات خشية إحسان الظن به واعتقاد الصلاح فيه ؟!!

(٤) - الإحياء ٢٨٨/٣.

حيث يضرب به المثل في الحلم. وآخر عالج حب المال بأن باع كل ما يملك ورمى بثمنه في البحر.

وعبّاد الهند يعالجون الكسل عن العبادة بالقيام طول ليلة على رجل واحدة(١) لا ينتقل عنها(٢).

● وحكي عن الشبلي أنه عالج البخل بأن قام ورمى أمواله في دجلة، وقال: ما أعزّكِ أحد إلا أذلّه الله عز وجل. عقب الغزالي على ذلك بقوله:

«فكذلك الذي يريد علاج البخل ينبغي أن يفارق المال «تكلّفاً» بأن يبذله. بل لو رماه في الماء كان أولى به من إمساكه إياه مع الحب له»(٣).

وماذا لو سأله الله عز وجل عن ماله فيما أنفقه أيكون معذوراً أمام الله في إتلافه له؟

وماذا لو أنقذ به الجياع أو جهّز به الغزاة أليس هذا أفضل من هذه الطريقة الحمقاء في معالجة البخل؟!

ومنها قوله:

● «وأن من أولياء الله من تزوره الكعبة وتطوف به»(٤).

ومنها قوله:

● «وشرط الزاهد أن لا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه... بل يلزمه القعود في البيت، فإذا صار صاحب قميصين وسروالين ومنديلين فقد خرج من جميع ألوان الزهد من حيث المقدار»(٥).

---

(١)- وهؤلاء الهنود مصدر من مصادر التصوف.

(٢)- الإحياء ٦٢/٣.

(٣) الإحياء ٢٥/٣ و٢٦٢ و٦٢. وانظر ميزان العمل ٥٣.

(٤)- الإحياء ٢٦٩/١.

(٥) الإحياء ٤٣١/٤.

ولو أنا عرضنا كلام ـ حجة الاسلام ـ على دين الاسلام لما وجدنا فيه ما يوافق هذا الرأي. لكننا نجد في إنجيل النصارى ما يشبه قوله هذا، فقد ورد في الانجيل:

«ولا يكون للواحد ثوبان»(١).

ومنها قوله:

● «يجوز للصوفي تمزيق الثياب الجديدة (أثناء السماع) إذا قطّعه قِطَعاً تربعةً مربعةً تصلح لترقيع الثياب والسجادات.. فإن الثوب يُمزّق حتى يُخاط منه القميص ولا يكون تضييعاً»(٢).

علق ابن الجوزي على ذلك قائلاً:

«ولقد عجبت من هذا الرجل كيف سلبه حب مذهب التصوف عن أصول الفقه ومذهب الشافعي.. وليس العجب من تلبيس إبليس على الجهال فيهم. بل على الفقهاء الذين اختاروا بدع الصوفية على حكم أبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد، رضوان الله عليهم أجمعين»(٣).

ومنها قوله:

● «إعلم أن الكذب ليس حراماً لعينه، بل لما فيه من الضرر على المخاطَب أو غيره»(٤). لو أن رجلاً قص على آخر قصصاً كاذبة لا يحصل بها أي ضرر عليه ـ كأن يدعي لنفسه شراء سيارة جديدة أو بيت أو أنه لقي ثلاثة على الطريق فصرعهم، أو أنه سافر وهو لم يسافر ـ فما حكم ذلك في دين الاسلام؟ أيكون مباحاً؟ علماً بأنه لا يترتب على هذه الأكاذيب ضرراً!!

(١) ـ إنجيل لوقا ٩ : ٣.
(٢) ـ الإحياء ٣٠٤/٢.
(٣) ـ تلبيس إبليس ٢٦٣ ـ ٢٦٤.
(٤) ـ الإحياء ١٣٧/٣.

ومنها:

● فتواه بأن صلاة المنفرد أولى من صلاة الجماعة إن كان خشوعه يزيد بانفراده. وقد أنكر عليه السبكي هذه الفتوى ـ على تعصبه ـ بقوله: «لا تترك سنة رسول الله ﷺ التي افترضها قوم وشرطها آخرون لصحة الصلاة لمثل هذه الخيالات»(١).

ومنها ما حكاه عنه المازري وهو:

أنه استحسن ابتداء قص الأظفار بالسبابة، لأن لها الفضل على بقية الأصابع، ولكونها المسبِّحة، وقد تعصب له السبكي قائلاً بأنه ليس في ذلك كبير أمر، ولا مخالفة شرع، وذكر بأن هنالك رواية عن علي رضي الله عنه في ذلك غير أنها لم تثبت. ثم قال:

«وقد سمعت جماعة من الفقراء يذكرون أنهم جربوه فوجدوه لا يخطىء، وأن من داوم عليه أمِنَ من وجع العين. ويروون عن عليٍّ كرّم الله وجهه هذا:

إبدأ بيمناك وبالخنصر ... في قص أظافرك(٢) واستبصر
واختم بسبّابتها هكذا ... فافعله في الرجل ولا تمتر
وابدأ ليسراك بإبهامها ... والاصبع الوسطى وبالخنصر
هذا أمانٌ لك قد حزته ... من رمد العين كما قد قُري(٣)

وقد علّق على ذلك الدكتور زكي مبارك قائلاً:

«والسخف ظاهر كل الظهور في هذا الجواب وإلا فما هي الصلة بين قص الأظافر بهذه الكيفية وبين الأمن من وجع العين!

(١) ـ طبقات السبكي ١٤٤/٤.
(٢) ـ هكذا في الأصل. والوزن يستقيم بـ «أظفارك».
(٣) ـ طبقات السبكي ١٢٣/٤ و ١٢٧.

وكيف قال علي بن أبي طالب هذا الشعر السخيف وقد كان من أفصح الناس»(١).

● ومنها قوله:

«... فالاهتمام بالرزق قبيح بذوي الدين، وهو بالعلماء أقبح... فإن الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن»(٢).

ما رأي الغزالي بعالم يستقبح الكسب والخروج طلباً للرزق، لكن يقتات من أموال السلاطين، أو يتذلل لطلبة العلم؟!

● ومنها أنه خصص باباً في آداب التسوّل حث فيه المتسوّل على التأدب بالآداب التالية:

(آداب التسوّل): يبدي الفاقة بصدق الحقيقة، ويُظهر السؤال بلطافة القول. ويأخذ ما أُعطي بمقابلة الشكر - وإن قلّ - وحُسْن الدعاء(٣).

وقد علق محقق كتاب المنقذ من الضلال - الأستاذ محمد محمد جابر - على هذا الأدب العجيب بقوله: «لعل الأوْلى حذف مثل هذه التراجم من كتب المسلمين، إذ لا أدري أن للسؤال آداباً بعد أن ذكر الغزالي في الإحياء أنه حرام، تحت عنوان - باب تحريم السؤال من غير ضرورة - ومثل هذا آداب الفقير.

فهذه تعاليم تنافي عزة الاسلام وأهله، والأولى أن تُكتَب الفصول في علاج هذا المرض واستئصاله من جسم الأمة».

وبعد، فهذه نماذج من عجائب أقوال الغزالي التي كتبها بعد سلوك طريق التصوف، والذي قال عنه بأنه «المنقذ من الضلال».

---

(١) - الأخلاق عند الغزالي ١١٠ ط. الشعب. مصر.
(٢) - الإحياء ٤/٢٧٥.
(٣) - الأدب في الدين ١٢٤ (ملحق بالمنقذ من الضلال).

وهذا بالنسبة لعجائب مقولات الغزالي، ولو أنك أردت التعرف على عجائب كلام غير الغزالي - من المتصوفة - فعليك بمتابعة ذلك في الفصل الذي يلي: «أفضلية السماع على القرآن عند الغزالي والصوفية».

[عجائب ما قاله]:

أفضليّةُ السَّماع (١) على القُرآن

* عند الغزالي والصوفية *

ولقد يبلغ بك التعجب مبلغه حين تعلم أن السماع - الغناء - الذي يجتمع عليه الصوفية هو أشد تأثيراً على قلب السامع من القرآن.

فقد ذكر في كتابه باباً عن السماع أسهب فيه الكلام عن أحوال السامعين ووجدهم وذكر فيه أدلة القائلين بتحريمه وناقشها، وأدلة القائلين بإباحته ووافقها. ثم أجاب عن سؤال مفترض:

«فإن كان سماع القرآن مفيداً للوجد فما بالهم يجتمعون على سماع الغناء من القوّالين دون القارئين؟ قال الغزالي:

«... فاعلم أن السماع أشد تهيجاً للوجد من القرآن من سبعة أوجه:

(الوجه الأول): أن جميع آيات القرآن لا تناسب حال المستمع.. فمن استولى عليه حزن أو شوق أو ندم فمن أين يناسب حاله قوله تعالى ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ وقوله تعالى: ﴿والذين يرمون المحصنات﴾؟.. وإنما المحرك لما في القلب ما يناسبه.

---

(١)- السماع: الغناء الصوفي.

(الوجه الثاني) : أن القرآن محفوظ للأكثرين . ومتكرر على الأسماع والقلوب .

وكلما سمع أولاً عظم أثره في القلوب .

وفي الكرة الثانية يضعف أثره .

وفي المرة الثالثة يكاد يسقط أثره .

والى ما ذكرناه أشار الصّدّيق رضي الله عنه حيث رأى الأعراب يقدمون فيسمعون القرآن ويبكون فقال : « كنا كما كنتم ولكن قست قلوبنا » !. قال الغزالي :

« فإن التكرار على قلبه اقتضى المرون عليه . وقلة التأثر به لما حصل له من الأنس بكثرة استعماله »[1] .

لهذا فضّل الغزالي السماع على القرآن ، ولكن ألا يخلق السماع على كثرة التردد أو التكرار أيضاً ؟

أم أنه يريد أية أدلة يستدل بها على تجويزه السماع !.

الم يقل الغزالي غير مرة في الاحياء أن القرآن لا يخلق على كثرة الترديد ، وأن القلوب لا تمله[2] فما له يغير رأيه ؟!! ومن أين أتى بهذه القصة العجيبة التي يحكيها عن أبي بكر رضي الله عنه ؟؟؟

الم يثبت في الصحيح أن الرسول ﷺ أمر أن يصلي ابو بكر بالناس أثناء مرض موته ﷺ ؟ قائلاً : « مروا أبا بكر فليصل بالناس فقالت عائشة قلت : إن أبا بكر إذا قام لم يُسْمِعِ الناسَ من البكاء فمر عمر فليصلِّ .. فقال : مروا أبا بكر فليصلِّ للناس فقالت عائشة لحفصة قولي له إن أبا بكر

(١) - الإحياء ٢٩٨/٢. وهل هذا الوجد من متطلبات الدين وضرورياته كضرورة القرآن في حياة المسلمين.

(٢) - الإحياء ٢٧٢/١ - ٢٨٩.

إذا قام في مقامك لم يُسمِعِ الناسَ ففعلت حفصة فقال رسول الله ﷺ مه، إنكن لأنتن صواحب يوسف ، مروا أبا بكر فليصلِّ للناس »[1] .

وفي لفظ آخر للبخاري عن عائشة قولها : « إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ غلب عليه البكاء »[2] وإنما بقي أبو بكر رقيق القلب بكّاءً . ووُصِفَ بهذه الصفة عند مرض موته ﷺ. وهذه الرواية رادّة على قوم ادعوا الزهد والتصوف وفضّلوا السماع على القرآن وجعلوه عائقاً للذاهب إلى الله، وأرادوا أن يحتجوا بأكثر هذه الأمة بكاءً وأشهرها به ليقرروا ذلك.

ولقد يزداد الأمر خطورة حين يصرح الغزالي بأن القرآن مناسب للخلق جميعهم إلا للذاهب إلى الله . وانظره إذ يقول :

« إعلم أن قراءة القرآن أفضل للخلق كلهم « إلا » للذاهب إلى الله عز وجل[3] ، فما دام العبد مفتقراً إلى تهذيب الأخلاق وتحصيل المعارف فالقرآن أولى به ، فإن جاوز ذلك واستولى الذكر على قلبه بحيث يُرتجى له أن يُفضي به ذلك إلى الإستغراق ، فمداومة الذكر أولى به ، فإن القرآن يجاذب خاطره ويسرح به في الجنة ، والمريد الذاهب إلى الله تعالى لا ينبغي أن يلتفت إلى الجنة ورياضها ، بل ينبغي أن يجعل همه هماً واحداً، وذكره ذكراً واحداً حتى يدرك الفناء والإستغراق به. إذ لباب القرآن معرفة المتكلم (أي الله) بالقرآن ومعرفة جماله والإستغراق به، والقرآن سائق إليه وهادٍ نحوه». ومن أشرف على المقصد لم يلتفت إلى الطريق»[4].

(١)- اخرجه البخاري ١٧٦/١، ومسلم (٤١٨) و (٤٢٠) والبيهقي في سننه ٨٠/٣ وابن ماجه (١٢٢٥) و (١٢٢٦) وأحمد في المسند ٩٦/٦ و ١٥٩ و ٢٣١ و ٢٧٠ .

(٢)- اخرجه البخاري ١٦٢/١ و ١٦٥ و ١٦٧و كتاب الأذان.

(٣)-الأنبياء هم أكثر الناس ذهاباً إلى الله تعالى فمتى تركوا القرآن ! أم أن مراد الغزالي بذلك الذهاب إلى الفناء في الله!!! كما استدل بقوله تعالى (ففروا إلى الله) مريداً بذلك الفناء!

(٤)- الأربعين ٤٦ .

فالقرآن عنده شغل شاغل وعائق عن تحصيل المطلوب ، لذا أوصى المريد إذا أراد الخلوة أن لا يقرن همه بقراءة قرآن ولا كتابة حديث ولا بالتأمل في تفسير ! (1).

أما بقية الأوجه السبعة فأنا أذكرها لك باقتضاب وهي :

(الوجه الثالث) : أن لوزن الكلام بذوق الشعر تأثيراً في النفس فليس الصوت الموزون الطيب كالصوت الطيب الذي ليس بموزون ، وإنما يوجد الوزن في الشعر دون الآيات .. فالوزن إذن مؤثر فلذلك ... الشعر .

(الوجه الرابع) : أن الشعر الموزون يختلف تأثيره في النفس بالألحان التي تسمى الطرق والاستانات وإنما اختلاف تلك الطرق بمد المقصور وقصر الممدود والوقف في أثناء الكلمات والقطع والوصل في بعضها . وهذا التصرف جائز في الشعر ولا يجوز في القرآن إلا التلاوة كما أنزل .. وإذا رتل القرآن كما أنزل سقط عنه الأثر الذي سببه وزن الألحان وهو سبب مستقل بالتأثير وإن لم يكن مفهوماً كما في الأوتار والمزمار والشاهين وسائر الأصوات التي لا تفهم .

(الوجه الخامس) : أن الألحان الموزونة تعضد وتؤكد بإيقاعات وأصوات أخر موزونة خارج الحلق كالضرب بالقضيب والدف وغيره لأن الوجد ضعيف لا يستثار إلا « بسبب قوي » ، وإنما يقوى بمجموع هذه الأسباب ولكل واحد منها حظ في التأثير . وواجب أن يصان القرآن عن مثل هذه القرائن لأن صورتها عند عامة الخلق صورة اللهو واللعب ، والقرآن جد كله عند كافة الخلق . فلا يجوز أن يمزج بالحق المحض ما

---

(1)- الإحياء ١٩/٣.

هو لهو عند العامة وصورته صورة اللهو عند الخاصة « وإن كانوا لا ينظرون إليها من حيث أنها لهو » (1) .

(الوجه السادس) : أن المغني قد يغني ببيت لا يوافق حال السامع فيكرهه وينهاه عنه ويستدعي غيره ، فليس كل كلام موافقاً لكل حال . فلو اجتمعوا في الدعوات على القارىء فربما يقرأ آية لا توافق حالهم إذ القرآن شفاء للناس كلهم على اختلاف الأحوال ... فإذاً ، لا يُؤمَنُ أن لا يوافق المقروء الحال وتكرهه النفس فيتعرض به لخطر كراهية كلام الله تعالى من حيث لا يجد سبيلاً إلى دفعه .. وأما قول الشاعر فيجوز تنزيله على غير مراده ففيه خطر الكراهة أو خطر التأويل الخطأ لموافقة الحال فيجب توقير كلام الله وصيانته عن ذلك ، وهذا ما ينقدح في علل انصراف الشيوخ إلى سماع الغناء عن سماع القرآن » .

(الوجه السابع) : وهذا الوجه ذكره أبو نصر السراج الطوسي في الإعتذار عن ذلك فقال : « القرآن كلام الله وصفة من صفاته وهو حق لا تطيقه البشرية ، لأنه غير مخلوق فلا تطيقه الصفات المخلوقة (2) .. والألحان الطيبة مناسبة للطباع ونسبتها نسبة الحظوظ لا نسبة الحقوق .. فما دامت البشرية باقية ونحن بصفاتنا وحظوظنا نتنعم بالنغمات الشجية والأصوات الطيبة فانبساطنا لمشاهدة بقاء هذه الحظوظ إلى القصائد أولى من انبساطنا إلى كلام الله تعالى الذي هو صفته وكلامه الذي منه بدأ وإليه يعود » .

إنتهى كلامه .

---

(1)- أي أنها ليست لهواً ولعباً عند الخواص وإن كان ظاهرها يوهم ذلك عند عوام الخلق.

(2)- ألا ليت شعري!. لم كانت تلاوة آيات الله آناء الليل وآناء النهار مما يجوز التحاسد فيه؟!!.

وهل هذا إلا بمنزلة من استدل على إباحة الزنا بما يحصله فاعله
اللذة ؟ وهل يستدل بحصول اللذة وملاءمة الحال على حل اللذيذ واللعب
وهل أصوات المحرمات من المعازف التي ثبت تحريمها من كلام نبي هذه
الأمة تستحل بدعوى حصول اللذة بسماعها ؟ أو لم يكفهم - وقد ...
الغناء ورغبوا فيه - أن سماه أبو بكر رضي الله عنه بـ « مزمور الشيطان » ...
ليس من منشأ الضلالة أن يستدل على تفضيل هذا السماع - الذي أباح به
الغزالي التغزل بوصف سائر أوصاف النساء - بأوجهٍ سبعة ؟

ويا لله العجب ! أي إيمان ونور وهدى يحصل باستماع أبيات
مصحوبة بمزامير الشيطان وكيف يسوغ المرء لنفسه أن يفضل هذا السماع
على كتاب الله ؟ إن رجلاً هكذا حالته هو رجل منكوس ممكور به ، لم ...
في آيات الله ما يحرك قلبه القاسي فأعرض عنه وأقبل على قرآن الشيطان ،
كما في معجم الطبراني وغيره - مرفوعاً وموقوفاً : أن الشيطان قال : يا رب
إجعل لي قرآناً . قال : قرآنك الشعر . قال : إجعل لي كتاباً . قال :
كتابك الوشم . قال : إجعل لي مؤذناً قال : مؤذنك المزمار . قال : إجعل
لي بيتاً . قال : بيتك الحمام . قال : إجعل لي مصائد . قال : مصائدك
النساء . قال : إجعل لي طعاماً . قال : طعامك ما لم يذكر عليه اسمي ..

تُلِيَ الكِتَابُ فَأَطْرَقُوا ، لاَ خِيفَةً
لكنَّه إطراقُ ساهٍ لاَهي -
دُفٌّ ، ومِزْمَارٌ ، وَنَغْمَةُ شاهِد
فمتى شهِدْتَ عبادةً بملاهي
وأتى الغناءُ فكالذبابِ تراقصوا
والله ما رقصُوا من أجلِ الله
ثَقُلَ الكِتَابُ عليهِم لمَّا رَأَوْا
تقييده بأوامرٍ وَنَوَاهي

وعليهم خفَّ الغِنَا لمَّا رأوْا
إطلاقه في اللهو دون مناهي
ورآه أعظم قاطعٍ للنَّفْسِ عن
شهواتِها . يا ويحها المتناهي
وأتى السَّمَاعُ مُوافِقاً أغراضَها
فلأجْلِ ذَلِكَ غدا عظيم الجاه
أين المسَاعِدُ للهوى من قاطعٍ
اسبَابُه عند الجَهول الساهي
إن لم يكن خمرُ الجسُوم فإنه
خمر العقول مماثل ومضاهي
فانظُرْ إلى النشوان عند شرابه
وانظر إلى النشوان عند تلاهي
وانظرْ إلى تمزيقِ ذا أثوابِهِ
من بعد تمزيق الفؤاد اللاهي
واحكم بأيِ الخمرتين أحق بالـ
تحريم والتأثيم عندَ الله[1]

ولهذا التفضيل عند الغزالي شواهد وتجارب فعلية تثبت - عنده - ما يذهب إليه .

فهو يستشهد بقصة عجيبة ويجعلها دليلاً على أن الغناء أشد تأثيراً لحصول الوجد من القرآن .

قال الغزالي : « وقد حُكي عن أبي الحسن الدراج أنه قال قصدت يوسف بن الحسين الرازي من بغداد للزيارة والسلام عليه فلما دخلت

---

(١) - انظر مدارج السالكين لإبن القيم الجوزية ١/٤٨٦ - ٤٨٨ ط دار الفكر.

« الرّيّ » كنت أسأل عنه . فكل من سألته عنه قال : إيش تعمل بالـ[...] الزنديق ؟. قال أبو الحسن : فلم أزل أسأل عنه حتى دخلت عليه [...] مسجد وهو قاعد في المحراب وبين يديه رجل وبيده مصحف يقرأ . [...] هو شيخ : بهيّ حسن الوجه واللحية ، فسلمت عليه فأقبل عليّ وقال لي : أتحسن أن تقول شيئاً ؟ فقلت : نعم . فقال : هات ! فأنشأت أقول :

رأيتُك تبني دائماً في قطيعتي
ولو كُنتَ ذا حزمٍ لهدّمْتَ ما تبني
كأني بكم والليتُ أفضل قولكم
ألا ليتنا كنا إذ الليت لا يُغني

فأطبق المصحف ولم يزل يبكي حتى ابتلت لحيته ، وابتلّ ثوبه حتى رحمته من كثرة بكائه ، ثم قال : يا بنيّ تلوم أهل الري يقولون : يوسف زنديق ! هذا أنا من صلاة الغداة ، أقرأ المصحف لم تقطر من عيني قطرة ، وقد قامت القيامة عليّ لهذين البيتين ؟ » ا هـ .

علق الغزالي على هذه القصة بقوله: «فإذن.. القلوب وإن كانت محترقة في حب الله تعالى، فإن البيت الغريب يهيّج منها ما لا تهيّج تلاوة القرآن»(١).

ترى ما هو رأي محبي الغزالي بالغزالي بعد إطلاعهم على هذه القصة التي أراد لها أن تكون شاهداً على رأيه في تفضيله السماع على تلاوة القرآن ؟؟؟

ماذا يقولون وبماذا يعلقون على قول الغزالي بأن القرآن أفضل للخلق جميعهم إلا للذاهب إلى الله؟ وهل في ذلك إلا الإزدراء لكتاب الله الذي هو شرع الأمة الإسلامية؟

---

(١) - الإحياء ٢/٣٠١. ولعله نقل هذه القصة عن الرسالة القشيرية ١٥٦.

ألم يزدر الحديث بأن جعل كتابته - كما نقل عن الصوفية - ركوناً إلى الدنيا؟

ألم يزدر النبوة بأن دعا إلى الحصول عليها بالكف عن الشهوات والتزام الخلوات ؟

ألم يزدر الجنه ويصف أهلها بأقبح الصفات وأردى النعوت؟(١).

ألم يزدر الفقهاء ويجعل علوم الفقه علوماً دنيوية ؟

ألم يزدر الشريعة بأن قال : فمن جعل الكشف موقوفاً على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله !!!.

أدلة جواز الغناء عند الغزالي:

لم يكن من المستبعد أن يأتي الغزالي بالآيات ويعتسفها اعتسافاً، ويحملها على غير محملها المراد منها، وذلك لتحقيق ما يميل إليه وما تحبه نفسه وترغبه من أنواع السماع الصوفي ومما استدل به الغزالي على جواز الغناء، قوله تعالى: ﴿ **يزيد في الخلق ما يشاء** ﴾ مفسراً الزيادة في الخلق على أنه الصوت الحسن(٢).

ثم روى عن ممشاد الدينوري قوله: «رأيت النبي ﷺ في النوم فقلت له: يا رسول الله هل تنكر من هذا السماع شيئاً؟ فقال: ما أنكر منه شيئاً، ولكن قل هم يفتتحون قبله بالقرآن ويختمون بعده بالقرآن»(٣).

---

(١). سيأتي بيان ذلك كله.

(٢)- الإحياء ٢/٢٧١.

(٣)- الإحياء ٢/٢٧٠ وهكذا فالصوفية لا يعتمدون ما ثبت من الصحاح لمعرفة الحلال من الحرام وإنما يعتمدون الرؤى الفاسدة والخيالات. وهل يصح منه استدلال على جواز الغناء؟.

قال الغزالي: «واحتجوا بقول ابن مسعود رضي الله عنه: (الغناء ينبت النفاق في القلب)». فنقول: قول ابن مسعود رضي الله عنه (ينبت النفاق) أراد به في حق المغني، فإنه في حقه ينبت النفاق، إذ غرضه كله أن يعرض نفسه على غيره ويروّج صوته عليه ولا يزال ينافق ويتودد إلى الناس ليرغبوا في غنائه... فهذا النفاق من المباحات»!(1).

كان الغزالي يحب للمغني أن يكون مخلصاً في غنائه، فلا ينافق الناس فيه ولا ينظر إلى ما عندهم. وإنما يبتغي بذلك وجه الله تعالى وثوابه، ولو أنه فعل ذلك لما حكم عليه ابن مسعود بالنفاق !!!!. بل حتى لو حكم عليه بالنفاق فإنه من نوع النفاق المباح، ولكن هل في النفاق ما يباح؟!!

قال الغزالي: واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ **ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله** ﴾ قال ابن مسعود والحسن البصري والنخعي رضي الله عنهم: إن لهو الحديث هو الغناء. ثم قال الغزالي: وأما شراء لهو الحديث بالدين استبدالاً به ليضل عن سبيل الله فهو حرام مذموم.. وليس كل غناء بدلاً عن الدين مشترى به ومضلاً عن سبيل الله تعالى، ولو قرأ القرآن ليضل به عن سبيل الله لكان حراماً»(2).

واحتجوا بما روته عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى حرم القينة(3) وبيعها وثمنها وتعليمها.

فتأول الغزالي هذا الحديث على أن المراد بالقينة: الجارية التي تغني للرجال في مجلس الشرب. ثم قال: فأما غناء الجارية لمالكها فلا

---

(1) الإحياء ٢/٢٨٦.
(2) - الإحياء ٢/٢٨٥.
(3) - المغنيّة

يُفهم تحريمه من هذا الحديث، بل لغير مالكها سماعها عند عدم الفتنة(1).

قلت: وأي فتنة أعظم من غناء امرأة بين آخرين غير مالكها والمعروف بأن غناء المرأة وإبداء جمال صوتها هو أشد على ضعاف القلوب من مجرد الخضوع بالقول المنهي عنه في كتاب الله تعالى.

وكيف لا يفتتن الرجال بها وقد تأتي لهم أثناء غنائها على ذكر بعض أوصاف النساء وبيان محاسنهن مما يثير شهوتهم ويحرك الشوق عندهم إلى الزنا وغير ذلك.

ولكن الغزالي لم يحرم الغناء المشتمل على أوصاف النساء وحسن قدّهن وقامتهن. فإنه هو القائل: «فأما النسيب وهو التشبيه بوصف الخدود والأصداغ وحسن القدّ والقامة» وسائر أوصاف النساء فهذا فيه نظر، والصحيح أنه لا يحرم نظمه وإنشاده بلحن وغير لحن»!!(2).

آداب الرقص!!! -

قال الغزالي: «الأدب الخامس في السماع: موافقة القوم في القيام إذا قام واحد منهم في وجد صادق من غير رياء وتكلف... وكذلك إن جرت عادة طائفة بتنحية العمامة على موافقة صاحب الوجد إذا سقطت عمامته أو خلع الثياب إذا سقط عنه الثوب بالتمزيق. فالموافقة في هذه الأمور من حسن الصحبة والمعاشرة»!!(3).

ولم لا يكون ذلك! والزعقة عند الغزالي وتمزيق الثياب ليسا مما يحرم فعله. فقد أجاز للصوفي أن يمزق ثيابه على شكل مربعات لأنها تصلح بعد ذلك لترقيع الثياب وخياطة القميص والسجادات»!.(4).

---

(1) - الإحياء ٢/٢٨٤ - ٢٨٥.
(2) - الإحياء ٢/٢٨٢.
(3) - الإحياء ٢/٣٠٤ - ٣٠٥.
(4) - الإحياء ٢/٣٠٤.

ثم قال: «ومن الأدب أن لا يقوم للرقص مع القوم إن كان يستثقل رقصه، ولا يشوّش عليهم أحوالهم، إذ الرقص من غير إظهار التواجد مباح»!!!(1).

تلك هي آداب الصوفية وأحوالهم فهي رقص وتواجد وتمايل وتصفيق فهل فارق حالهم هذا حال قريش أيام الجاهلية؟ كلا!؟

لقد كان دعاء قريش عند البيت صخب ورقص وتمزيق للثياب إلى حد خلعها والطواف حول البيت عراةً(2).

وقد قال تعالى مظهراً أحوالهم التي كانوا يظنون بأنها قربة لهم إلى الله: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية﴾ [الأنفال 35] قال ابن عباس: كانت قريش تطوف بالبيت عراةً تصفّر وتصفق(3). والمكاء الصفير والتصدية التصفيق. والتصفيق عند الصوفية من جملة الآداب التي يؤدونها في خلواتهم، وقد ذكر ابن الجوزي الله شيئاً من ذلك فقال: «وقد كان ابن بنان يتواجد وكان أبو سعيد الخراز يصفق له»(4).

فأي دين هذا الذي يدعو إليه الغزالي؟.. أيكون الرقص والتصفيق والغناء ووصف محاسن النساء وقوامهن وتمزيق الثياب ديناً؟

أَقَـالَ الله حِـيـنَ عَـشِـقْـتُـمُـوهُ
كُلُوا أَكْـلَ البَـهَـائِمِ وَارْقُـصُـوا لـي؟(5)

(1)- الإحياء 2/304 وهل يصح الرقص من غير تواجد، لا سيما وأن الغزالي قد أجاز تمزيق الثياب على شكل مربعات وهذا لا يحصل إلا بالتواجد!.
(2) - والصوفية قد يخلعون ثيابهم ويسمون ذلك أحوالاً.
(3) - تفسير ابن كثير 2/306.
(4) - تلبيس إبليس 258.
(5) - نفس المصدر 378.

الفصل الثالث

رأي الغزالي في الجنة وأهلها

يرى الغزالي أن للعارفين مقاماً يجاوز مقام الجنة إلى مجالسة الرحمن الدائمة، وهذا المقام لا يناله عموم الناس ـ الذين هم عوامهم ـ وإنما هو لخواصهم من العارفين.

وبسبب اعتماده على حديث ضعيف لا تقوم به حجة وهو: «أكثر أهل الجنة البله. وعليون لذوي الألباب»(1).

اعتبر أهل الجنة من البله، وإنما يسكن ذوو الألباب في عليين!!.

يقول الغزالي:

«فمن كان حبه في الدنيا رجاء نعيم الجنة والحور العين، مُكّنَ من الجنة ليتبوّأ منها حيث يشاء، فيلعب مع الولدان، ويتمتّع بالنسوان. فهناك تنتهي لذته في الآخرة...

(1)- قال الحافظ العراقي: أخرجه البزار بسند ضعيف (على حاشية الإحياء 4/335). وانظر ضعيف الجامع الصغير وزيادته رقم (1194).